غزّة
تأملات وعِبَر

غـــــزّة: تأمُّـــــلاتٌ وعِـــــبَـــــر

□ ملف من إعداد: سماح إدريس (بيروت)، ياسين الحاج صالح ويوسف فخر الدين (دمشق)، أحمد الخميسي (القاهرة)

المشـاركـون

(ألفـبـائيّـاً)

- أحمد بهاء الدين شعبان (مقابلة)
- أحمد الخميسي
- أشرف البيّومي (مقابلة)
- حسين العودات
- راحيلا مزراحي
- سري المقدسي
- سماح إدريس
- عرب لطفي (مقابلة)
- عمر البرغوثي
- فيصل جلّول
- محمد فرج
- مريد البرغوثي (مقابلة)
- موفّق نيربيّه
- نزار حسن
- هادي دانيال (قصيدة)
- هشام البستاني (قصة)
- يسري الأمير
- يهودا كوبرمان
- يوآب بار

يضمّ هذا الملفّ أبحاثًا وقصّتين وقصيدةً ومقابلاتٍ قصيرة، تدور كلُّها حول العدوان على غزّة، والمقاومة الفلسطينيّة، والشعب الفلسطينيّ تحت الحصار الإسرائيليّ. بعضُها كُتِب أثناء المعركة، وبعضُها بعد انتهائها (الموقّت). وهي تتناول ظواهر كثيرة: المقاومة المسلّحة، دور المثقف، الدور التركيّ، دور اللوبي الصهيونيّ في الولايات المتّحدة، المظاهرات، «القمم» العربية، فضلاً عن دعوات ومناشدات ومشاهدات وملاحظات.

وقد شارك في الملفّ مصريّون وسوريّون ولبنانيّون وأردنيّون وفلسطينيّون (عربًا ويهودًا من داخل فلسطين وخارجها).

الآداب

مذبحة غيتو غزّة: الوقائعُ والعِبَر

□ يهودا كوبرمان
ترجمتها عن العبرية: رجاء زعبي عمري

أخصّائيّو الدعاية العاملون في خدمة حكومة إسرائيل، والذين يرافقون حملةَ الذبح الجارية في قطاع غزّة، يقولون، ويكرِّرون بلا كلل: «كم تُثبت هذه الحربُ على غزّة أنّ إسرائيل قد استخلصت العِبَرَ من حرب لبنان الثانية!» يعبِّر تكرارُ مثل هذا القول عن القلق الذي يعتري المؤسّسةَ الصهيونيّة، مشغِّلةَ آلةِ الدعاية المذكورة. لقد كان أحدُ نواقص حرب إسرائيل على لبنان أنها لم تتسلّحْ بما تسمّيه إسرائيلُ «مرافقةً دعائيّة.» أما في هذه المرّة فيقولون إنّ «وضعَنا مختلف»؛ أيْ إنهم ـ بحسب ظنّهم ـ ينجحون اليومَ في إيجاد المبرِّراتِ اللازمةِ لكلّ هذا التقتيل الذي يقومون به.

وفي مقابل آلة الدعاية الموجَّهة نحو دول الخارج، ونحو الجمهور اليهوديّ في دولة إسرائيل أيضًا، تعالوْا نذكرْ بعضَ الوقائع الأساسيّة لندرك كيف وصل الوضعُ منذ عام ٢٠٠٦ ـ فنحن مجبَرون على البدء من تاريخٍ ما! ـ إلى ما هو عليه.

الوقائع

في انتخابات المجلس التشريعيّ فازت حركةُ حماس فوزًا ساحقًا (أكثر من ٦٠٪ من الأصوات). وإنه لمبدأٌ ديمقراطيٌّ أساسٌ أنّ الفائزَ بالأغلبيّة هو مَنْ يشكّل الحكومة؛ وهذا هو هدفُ الانتخابات. قد لا يروق بعضَهم برنامجُ حماس، ومنهم كاتبُ هذه السطور، ولكنّ المبادئ الديمقراطيّة هي المبادئُ الديمقراطيّة، ويجب احترامُها وتطبيقُها، وإلاّ فسينشأ لدينا تشوّهٌ فظيعٌ، لأنّ إرادة الشعب هي التي لم يجْرِ احترامُها. وفي هذه الحالات تكون النتائجُ كارثيّةً؛ وهذا ما كان بالفعل.

في واشنطن، وفي العواصم الأوروبيّة، وفي مبنى الحكومة [الإسرائيلية] في القدس، قرّر الجميعُ ـ ولم تكن تلك هي المرّةَ الأولى [التي يفعلون فيها ذلك] ـ أنّ الشعبَ الفلسطينيّ مادّةٌ تشكّلها القوى العظمى وفق مصالحها، ولا مكانَ لإرادة هذا الشعب في الألعاب التي يديرونها. إذنْ، تنبغي إبادةُ «حماس»؛ وعليه، ستكون إسرائيلُ هي الأداةَ الطبيعيّةَ في أيديهم لتنفيذ المهمّة القذرة: سحقِ الشعب.

في بداية شباط، بعد أسبوعيْن بعد الانتخابات، التأم المديرون العامّون لوزارات حكومة إسرائيل برئاسة دوف فايسغلاس، مديرِ عامّ مكتب رئيس الحكومة، في جلسةٍ تداولوا خلالها طرقَ «العقاب» التي يتوجّب اتّباعُها بحقّ السكّان الفلسطينيين في مناطق ٦٧ لأنّهم تجرّؤوا على الاقتراع بعكس رغبة مَنْ يظنّون أنفسَهم أسيادًا عليهم. قالوا في تلك الجلسة: «يجب إحكامُ الطوْق حول العنق.» وبحسب ما نُشر في الصحافة الإسرائيليّة، قهقه فايسغلاس قائلاً: «نعم، ولكنْ ليس إلى درجة الموت خنقًا!». وهكذا فعلوا. اتُّخذتْ إجراءاتٌ أقسى من تلك التي اتُّخذتْ في قمع الانتفاضة الثانية، ومَنعوا دخولَ البضائع الأساسيّة.

بداية حزيران ٢٠٠٧: حركة حماس تُمْسك بزمام الحُكم بعد سنةٍ ونصفِ السنة من تخويل الشعب إيّاها ذلك. جميعُهم: بوش، والرباعيّة، والاتحادُ الأوروبيّ، والأممُ المتحدة، والأنظمةُ العربيّة، وإسرائيل بالطبع، يقرّرون مقاطعةَ حكومة إسماعيل هنيّة التي تشكّلتْ. ولكنهم، وهذا غايةٌ في الأهمية، يقرّرون فرضَ حصارٍ شاملٍ على القطاع، وهو ما يعني إغلاقًا مُحْكمًا للمعابر، منه وإليه، وهذا يعني كارثةً حقيقيّةً ستحلّ على السكّان. ومنذ شباط ٢٠٠٦ تدهورت الأحوالُ حتى بالنسبة إلى ما حلّ بالناس منذ بدء الانتفاضة الثانية. الآن، الحديثُ هو عن ضائقةٍ فظيعة. في قطاع غزّة لا وجود للحاجيّات الأساسيّة. إذنْ، كيف لأمٍّ وأبٍ أن يقفا مكتوفَي الأيدي وهما يَشْهدان أطفالَهما جائعين، مرتجفين من البرد في بيوتهم، أو مرضى يُنْقلون إلى مستشفياتٍ تعاني نقصَ المواد الطبّيّة الأساسيّة؟

هكذا بدأتْ «صناعةُ الأنفاق.» لقد نشأتْ من الحرمان الفظيع الذي أنزلتْه قوى الرجعيّة الظالمة على سكّان قطاع غزّة، الذين وقفوا، لا حولَ لهم ولا قوّة، أمام عناصرَ محلّيّةٍ استغلّت ضائقتَهم المروِّعة، ودسّت في جيوبها أرباحًا كبيرةً على حساب جمهورٍ يقف عاجزًا أمام إسرائيل وهي تَخْنقه. والآن، تريد إسرائيل أن

حرب الإبادة ضدّ غزّة هي مرحلة من سلسلة المذابح الجماعيّة منذ نكبة عام ٤٨.

تبقي المعابرَ مغلقةً، وفوق ذلك أن تسدّ الأنفاقَ في رفح. لقد استغلّت حماس أيضًا تلك الأنفاقَ التي حُفرت، ولكنّ سببَ وجود الأنفاق هو احتياجُ مليون ونصف من السكّان إلى المأكل ووسائل التدفئة والكهرباء!

سياسةُ العقاب، التي أُنزلتْ بجميع السكّان لأنهم صَوّتوا في الانتخابات بما ينافي رغبةَ أولئك الأسياد، رافقتْها حملةُ اعتقالاتٍ في الضفّة الغربية، في الأشهُرِ التي تلت كانونَ الثاني ٢٠٠٦، وطاولتْ مجموعاتٍ كبيرةً من مؤيّدي حركة حماس وأعضائها، ونوّابِ الحركة في المجلس التشريعيّ. وفي أعقاب الاعتقالات، جاء إطلاقُ بعض الصواريخ المتفرّقة. ومع اشتداد الحصار، ازدادت وتيرةُ إطلاق الصواريخ. ولكنْ هل من شكّ في أنّ شعبًا محاصَرًا ومجوّعًا لن يقاوم أولئك الذين حاصروه وجوّعوه؟ أهنالك مَنْ يشكّ في أنّ إسرائيل بدأتْ عندئذ – وباسم قادة هذا العالم – باتخاذِ خطواتٍ بربريّة؟ لا عجب، والحالةُ هذه، أن تردّ حماس بإطلاق الصواريخ، وبوتيرةٍ متصاعدةٍ في شهرَيْ نيسان وأيّار ٢٠٠٧.

في بداية شهر حزيران أعلنتْ حكومةُ إسرائيل أنها على استعداد لإبرام اتفاق تهدئة. وفي اتفاق وقفِ الأعمال العدوانيّة اتُّفق – بوساطةٍ مصريّةٍ – على بندَيْن: وقف النيران من الجانبيْن، وفتْح المعابر. غير أنّ إسرائيل لم تطبّق البندَ الثاني من الاتفاق؛ وردّاً على ذلك، أطلقتْ حركةُ حماس، من حينٍ إلى آخر، صواريخَ باتجاه البلدات الإسرائيليّة المتاخمة للجدار. كان إطلاقُ النيران على فتراتٍ متباعدةٍ جدّاً؛ وعمومًا، منذ عام ٢٠٠٠ وحتى كانون الأول ٢٠٠٧، قُتل جرّاء إطلاق صواريخ القسّام ٨ مواطنين إسرائيليين. وقد طالب الناطقون باسم حماس، مرارًا وتكرارًا، بفتح المعابر. ولكنْ، خلافًا لما اتُّفق عليه، لم تُفتح المعابر، وذلك تطبيقًا لالتزامٍ آخر، أهمّ بكثيرٍ بالنسبة إلى إسرائيل، ألا وهو التزامُها تجاه ما يسمّى «المجتمع الدوليّ» – أيْ قوى القمع والهيمنة على العالم: فقد أُلقيتْ على عاتق إسرائيل مهمّةُ الإطاحة بالحكومة التي نجمتْ عن انتخابات كانون الثاني ٢٠٠٦.

وبحسب ما جاء في صحيفة **هآرتس**، فإنّ إسرائيل، في الوقت الذي قَبلتْ فيه اتفاقَ التهدئة (حزيران ٢٠٠٧)، قد أوكلتْ حكومتُها الأمنيّةُ المصغّرةُ (الكابينِت) إلى الجيش مهمّةَ التخطيط والإعداد لهجومٍ شاملٍ على قطاع غزّة. وقد تدرّبت القواتُ النظاميّة على أساليب الحرب في مناطقَ مأهولة، وتلقّت كلُّ وحدةٍ تفاصيلَ المسار الذي ستسلكه بعد الاجتياح، وتدرّبتْ بناءً عليها. كما تلقّى الطيّارون الحربيّون الأهدافَ التي ينبغي عليهم قصفُها. وهكذا فإنّ الجيش الذي قَصَفَ وفجّر واجتاح، ابتداءً من ٢٠٠٨/١٢/٢٧، كان على استعدادٍ لكافّة التفاصيل الميدانية لحملته، حتى آخرها. ومنذ شهر نوفمبر تواترت الأحداث، إذ إنّ التهدئة تنتهي في ١٢/١٥.

ولكنّ أسبابَ انقضاض الوحش لا تنتهي هنا. فالعاشر من شباط ٢٠٠٩ هو موعدُ الانتخابات البرلمانيّة في إسرائيل؛ واستطلاعاتُ الرأي تتنبّأ بهزيمةٍ ساحقةٍ لائتلاف كاديما – حزب العمل، وبنصرٍ ساحقٍ أيضًا لغريمهما: حزبِ الليكود. ووفقًا

لاستطلاعات الرأي نفسها، يُنتظر أن يكون نصيبُ حزب العمل، وهو حزبُ براك وزير الدفاع، ١٠ ـ ١١ مقعدًا في الكنيست (من أصل ١٢٠!). من الواضح أنّ حربًا تتجنّد لها جميعُ أبواق الإعلام الحكوميّة، ويحصل مَنْ يديرونها على دعايةٍ قُصوى وكأنّهم «ينفّذون إرادةَ الشعب،» هي حربٌ تجلب فوائدَ جمّةً لجهاز الحكم الحاليّ، على الأقلّ في مرحلتها الأولى. وهنالك سببٌ آخر حدّد تاريخَ شنّ الحرب في نهاية شهر ١٢؛ فأوباما يتسلّم مهامَّ منصبه كرئيسٍ للولايات المتّحدة الأمريكيّة في ١/٢٠، والدعمُ الكليّ الذي يبديه الرئيسُ بوش لسياسات إسرائيل يجب استغلالُه حتى النهاية، إذ لا يمكن أن يُعرف ماذا سيحصل مع الرئيس الجديد أوباما.

وهكذا، في بداية شهر ٢٠٠٨/١١، وكما قلنا آنفًا، بدأتْ وتيرة الأحداث بالتصاعد. ففي ١١/٤ هاجمتْ وحدةٌ من وحدات جيش إسرائيل مقاتلين من حركة حماس في نفقٍ حفروه على بُعد بضع مئات الأمتار من الجدار، ولكنْ داخل أراضي قطاع غزّة. وفي اليوم التالي، تسبّب صاروخ أرض – جوّ بمقتل ٥ من ناشطي حماس، شماليَّ القطاع، عندما أُطلق على سيّارةٍ كانت تقلّهم. لا شكّ في أنّ هذه العمليّات كانت عمليّاتٍ استفزازيّة، ومن الصعب ألاّ نراها في سياق سيناريو مُعدٍّ ومخطّطٍ لاستجلاب نتائجه المتوقّعة. وقد ردّت كتائبُ عزّ الدّين القسّام بإطلاق صواريخ مكثّفٍ على البلدات الإسرائيليّة. هنا، وجدتْ إسرائيل مبرِّرَها لإحكام إغلاق المعابر من القطاع وإليه، أيْ لتنفيذ حصارٍ شاملٍ أو: خنْق. وفي أجواء التصعيد الذي قرّرته حكومةُ إسرائيل وقامت به، وجد السكّانُ المحاصَرون في القطاع أنفسَهم أمام الموعد الرسميّ لانتهاء «تهدئة» الأشهر الستّة.

رفضتْ حركةُ حماس تمديدَ التهدئة إنْ لم تُلزَم إسرائيلُ ببند فتح المعابر بينها وبين القطاع: فالمعابر هي قصبةُ الهواء التي يتنفّس منها قطاعُ غزّة. ورفضتْ إسرائيل ذلك؛ فهي تريد لنفسها التحكّمَ الحصريّ بالمعابر. وعلاوةً على ذلك، فإنها تعرف تمامَ المعرفة أنّ حماس سترفض تمديدَ التهدئة من دون تطبيق هذا البند. هكذا وُضعت المتفجّراتُ اللازمةُ للانفجار الكبير الذي كان سيأتي حتمًا: صواريخ «غراد» البعيدة المدى تُطلَق على إسرائيل للمرّة الأولى.

في ١٢/٢٧ فَتحتْ جهنّماتُ السّماء أبوابَها فوق قطاع غزّة. إنها الحرب التي أُعدّت بدقّة طوال أشهر في مقرّ القيادة العامّة لجيش إسرائيل. إنها الحرب نفسُها التي تدرّب عليها، على الأقلّ منذ شهر حزيران، طيّارو إسرائيل الحربيّون، ومظلّيّوها، وسلاحُ مدرّعاتها، وسلاحُ مدفعيّتها، كما سلاحُ مشاتها، وسلاحُ بحريّتها. إنها الحرب التي شنّتها مَنْ تعتبر نفسَها القوةَ العسكريّةَ العظمى في الشرق الأوسط، ضدّ شعبٍ بلا دولة، وبلا جيش، وبلا نظام حكم معقول، وبلا سلاحٍ معتبَر (إذ، في مواجهة عدوٍّ كهذا، ما هو الكَلاشنيكوف وصواريخُ القسّام وصواريخُ غراد، التي تثير الهلعَ ولكنها لا تقتل؟).

مجدّدًا، هذه الحربُ المعلنةُ على الشعب الفلسطيني في غزّة، بدأتْ ولم تنتهِ.

العِبَر

حربُ الإبادة هذه هي مرحلةٌ تُضاف إلى سلسلة المذابح الجماعيّة التي ارتُكبتْ بحقّ الشعب الفلسطينيّ منذ عام ١٩٤٨. فمنذ حرب تقسيم فلسطين التي أدّت إلى النكبة، إلى المذبحة الجارية أمام أعيننا في غزّة، مرورًا بسنوات الخمسين وسنوات الستين من القرن الماضي، إلى تلّ الزعتر وصبرا وشاتيلا، عَقد حكّامُ العالم عزمَهم، مجتمعين، على أمرٍ مفادُه أنه، في الشرق الأوسط الذي نبنيه، كمنطقةٍ هيمنةٍ إمبرياليّة، لا مكانَ للشعب الفلسطينيّ. وهكذا أقيمت دولةُ إسرائيل لتكون حجَرَ زاوية العِمارة الإمبرياليّة هنا: فهي تحافظ على سلامة العِمارة، وهذه هي وظيفتها. ولهذا أيضًا، نجد الأنظمةَ الأخرى في المنطقة، وبوصفها حجارةً في هذه العِمارة نفسها، حريصةً كلَّ الحرص على إسرائيل. وهذا هو ما تُثْبته مجدّدًا المحنةُ الدمويّةُ الحاليّةُ التي تُلمّ بفلسطينيي قطاع غزّة.

من بين مجمل مليون ونصف مليون من سكّان غزّة، يعيش هناك نحو ٩٦٠،٠٠٠ لاجئ؛ أيْ ما يشكّل ثلثَيْ سكّانه. مساحة قطاع غزّة هي ٣٦٠ كم مربعًا، ويُعتبر أكثرَ مناطق العالم كثافةً سكانيّةً، ولاسيّما مخيّم جباليا. نحن نتحدّث هنا عن لاجئين طُردوا من وطنهم. وهم في ذلك مثلُ جميع اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون في لبنان وسوريا والأردن وبقيّة الشتات. منذ عام ١٩٤٨ تتعاقب الحروبُ في المنطقة، واحدةً تلو الأخرى. ولن يكون حلٌّ لقضيّة فلسطين إنْ لم تُحلّ قضيّةُ اللاجئين؛ أيْ إنْ لم يُتح للاجئين تطبيقُ حقّ العودة، عودتهم.

عودةُ اللاجئين، أيْ إعادةُ توحيد الشعب الفلسطينيّ في أرض وطنه، لا يُمْكنها أن تتحقّق سوى في دولةٍ واحدةٍ علمانيّةٍ، أيْ لا تعرّف المواطنَ فيها وفق منشإه العرقيّ أو الديني. ولا يمكنها أن تتحقّق سوى في دولةٍ ديمقراطيّة، أيْ يتساوى فيها المواطنون. فقط دولةٌ كهذه هي دولةٌ حرّة، ومستقلّة، وسيّدة. وإنّ غزّة، المعذَّبة والنازفة، تطرح أمامنا، هي أيضًا، هذا التحدّي.

فلسطين ٤٨

يهودا كوبرمان

ناشط سياسيّ في فلسطين ٤٨. من مؤسّسي «اللجنة لأجل الجمهوريّة الديمقراطيّة العلمانيّة في كامل فلسطين،» ومن المبادرين إلى «مؤتمر حيفا لأجل حقّ العودة والدولة الديمقراطيّة العلمانيّة في فلسطين.» بروفسور في علم الألسنيّات، ونشر في هذا المجال نحو ستين عملاً باللغة الفرنسية. والمقال مكتوب خصّيصًا لـ الآداب.

«الوحشيّةُ الإسرائيليّةُ» إذ تَفْقد أثرَها الردعيَّ في غزّة بعد بيروت

□ فيصل جلّول

قبل أن تشنّ إسرائيلُ حربَها الوحشيّةَ على غزّة قالت وزيرةُ الخارجيّة الإسرائيليّة تسيبي ليڤني (٢٠٠٨/١٢/٢١) إنها ستدمّر غزّة عسكريّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً، وإنّ الدمارَ الموعودَ يتحمّل مسؤوليّتَه الشعبُ الفلسطينيّ. بعبارةٍ أخرى: سيدمِّر الشعبُ الفلسطينيُّ **نفسَه** عبر عدوّه الإسرائيليّ، ولن يكون هذا العدوُّ حاملَ الدمار والموت ولا مسؤولاً عنه! الجديرُ ذكرُه أنّ ليڤني وغيرَها من المسؤولين الإسرائيليين ما برحوا يحمِّلون أهالي غزّة مسؤوليّةَ **الحصار** الإسرائيليّ نفسه، ويزعمون أنه نتيجةٌ لإطلاق الصواريخ، بل عقابٌ إسرائيليّ لأهالي القطاع، جرّاء خيارهم الانتخابيّ لصالح حماس في تشريعيّات العام ٢٠٠٦!

خطابُ السيّد والعبد

تخاطب ليڤني الشعبَ الفلسطينيّ كما تخاطِب ربّةُ منزلٍ متسلّطةٌ خادمتَها بالقول: «تتحمّلين مسؤوليةً حرمانكِ من الطعام والشراب والراتب لأنكِ غيرُ مطيعة ولم تنفّذي أوامري.» لا جِدّةَ في هذه المخاطبة بين الخادم والمخدوم، تمامًا كما لا جِدّةَ في مخاطبة السيّد للعبد، ومخاطبةِ المستوطنِ الإسرائيليّ لصاحب الأرض الفلسطينيّ. ولعلّ شرطَ سيادة هذا الخطاب في الحالات المذكورة يكْمن في انتشار ثقافة الخدم والعبوديّة والخضوع... مع فارق: وهو أنّ الشرط المذكور لم يعد متوفّرًا في علاقة المستوطِن بصاحب الأرض في غزّة، ولكنه للأسف الشديد قد يطاولُ في خطاب ليڤني «السلطةَ» الفلسطينيّةَ، المتدثّرةَ بثوب «الضحيّة،» والمناديةَ بوجوب الابتعاد عن المقاومة المسلّحة... إلى حدّ «الامتناع عن رشق المحتلّين بالحجارة» وفقًا لتعبيرٍ منسوبٍ إلى الرئيس الفلسطينيّ!

وإذ تستجيب «السلطةُ العبّاسيّةُ» خطابَ الثواب والعقاب الإسرائيليّ وتعمل على إعادة ترتيب البيت الفلسطينيّ وفق شروط «اللاجئ الضحيّة،» فإنّ الشطرَ الأعظمَ من الفلسطينيين عمومًا (وقطاعَ غزّة بخاصة) خَلَعَ ملابسَ الضحيّة وارتدى ملابسَ المقاومة وثقافتها، وبالتالي قرّر أن يكون ندّاً لعدوّه. وما معركةُ غزّة إلاّ برهانٌ على ارتفاع الفلسطينيّ إلى مرتبة النِّدّ، بحيث بات قياسُ قواعده على مقاس عدوّه: حيٌّ فلسطينيّ مقابلَ مستوطنة، صاروخٌ يواجه طائرةً حربيّة، جنديٌّ يوازي مقاتلاً، طفلٌ يساوي طفلاً، وامرأةٌ تساوي امرأةً... مع الاعتراف بالفارق الكبير في موازين القوى العسكريّة.

ليس لدى الفلسطينيين ما يَرْبحونه في موقع «الضحيّة» سوى العطف، والشفقة، والتأييد العابر، وقدْرٍ من المساعدات الإنسانيّة، وبعضِ القرارات الدوليّة التي لا تعيد وطنًا ولا تَنْصر قضيّة. ذلك أنّ «الضحيّة» يضحّى بها من أجل غرضٍ معيّن، كما يَفْعل رعاةُ القطعان في أمريكا الجنوبيّة إذ يقدِّمون الضحايا للتماسيح لكي تَعْبر قطعانُهم النهرَ من ضفّةٍ إلى أخرى، وذلك في علاقةٍ وحشيّةٍ جديرةٍ بشريعة الغاب. أما في غزّة فيقاتل الفلسطينيون كي تنتصب قامةُ قضيّتهم، وهم كفّوا عن تقديم الضحايا للوحش الإسرائيليّ ومداعبته خوفًا من الانتقام. في غزّة يقاتلون ليحْملوا ليڤني على مخاطبتهم بوصفهم أحرارًا لا عبيدًا... وهي ستَفْعل ذلك آجلاً أمْ عاجلاً!

الحربُ الفلسطينيّةُ الأولى

يخوض الفلسطينيون في غزّة حربَهم الأولى على أرض فلسطين منذ العام ١٩٤٨. قبل ذلك كانت الحروبُ الفلسطينيّة ضدّ الدولة العبريّة تدور على أراضٍ عربيّة، أو من خلالها؛ وقد انتهت هذه الحروبُ في العام ١٩٨٢ غداةَ خروج منظمة التحرير الفلسطينيّة من بيروت. وقبل حرب غزّة خاض الفلسطينيون انتفاضةً مسلّحةً، لا حربًا، انتهت بدسّ السمّ للرئيس ياسر عرفات. فخَلَفَه الرئيس محمود عبّاس، عرّابُ أوسلو وداعيةُ المفاوضات «المطْلقة» مع إسرائيل و«لا شيء غير المفاوضات ولو لم نحصلْ على شيء» على ما يُنسب له.

إزاء هذا التمسّك الفلسطينيّ غير المشروط بالمفاوضات، افترقتْ حماس عن السلطة، واختارت استراتيجيّةَ المقاومة، وأقامت علاقاتٍ خارجيّةً متناسبةً مع هذا الاختيار الذي ازداد رسوخًا بعد حرب تمّوز ٢٠٠٦ في لبنان. ولقد شنّت إسرائيلُ الحربَ على غزّة للقضاء على هذا الاختيار الذي بدا فعّالاً وممكنًا على أرض فلسطين، ومن أجل فلسطين حصرًا، وبوسائل فلسطينيّة، ومن دون وصايةٍ وأهدافٍ خارجيّةٍ كما كان يحصل من قبل.

قبل حرب غزّة كانت الوطنيّةُ الفلسطينيّةُ مضطرمةً، لكنها ظلّت محكومةً بسقف الانتفاضة المدنيّة أو شبه المسلّحة. وهي كانت تحتاج إلى تأييد دوليّ وعربيّ فعّال كي تتوّج بإنجازات، وكي يؤدّي تراكمُ التضحيات إلى انتصارٍ وطنيّ. ولمّا كانت إسرائيلُ هي الأقوى على المسرح الدوليّ، وجرائمُها محميّةً من رعاة القانون الدوليّ؛ ولمّا كان النظامُ العربيّ الرسميّ لا يريد خوضَ معركة فلسطين ولا يتمتّع باحترامٍ يُذكر في العلاقات الدوليّة؛ فقد ظلّت تضحيات الانتفاضة، بجانبيْها المدنيّ والمسلّح، بلا نتائجَ وطنيّةٍ تُذكر (فشلُ المعركة القضائيّة الدوليّة حول مجزرة جنين ـ فشل المعركة الحقوقيّة حول الجدار العازل رغم الحكم لصالح فلسطين...). والراجح أنّ هذا الفشل هيّأ الظروفَ الملائمةَ لانطلاقة التيّار الفلسطينيّ المقاوم. ويمكن القولُ، دون مجازفةٍ كبيرة، إنّ حرب غزّة اندلعتْ بأثرٍ من الاستعداد الفلسطينيّ الصبور والطويل لهذه الحرب بوسائلَ محدودة، تعوِّضها: إرادةُ القتال الصلبة، والإعدادُ الإيديولوجيُّ المحْكم، ناهيك بالانفراد بمسرح الحرب بعد إنهاء الشراكة الأمنيّة مع التيّار المفاوض في رام الله في النصف الثاني من عام ٢٠٠٧.

لم يخْطئ الصهاينةُ في تقديرهم لخطورة المقاومة عليمصيرهم في غزّة: فهم كانوا يتلقّوْن الصواريخَ على مدار اليوم، ويعْرفون أنّ مطْلقيها يسعوْن إلى استدراج الكيان الصهيونيّ إلى ساحة المعركة. وإذ بادرتْ إسرائيل إلى شنّ الحرب في توقيتٍ ملائم لها، فقد عجزتْ عن ضمان نتائجها، أي القضاءِ على خيار المقاومة عبر تفكيك بنيتها التحتيّة واعتقالِ قادتها أو اغتيالهم.

لقد بدأتْ حربُ فلسطين الأولى ضدّ الكيان الصهيونيّ من غزّة. ولعلّ قادة إسرائيل يدركون أنّ الحرب سجالٌ وأخذٌ وردٌّ وتراجعٌ وتقدّم، لكنّ الأصعبَ فيها هو اتّخاذُ قرار الحرب بعد طول خضوع، وبعد مسيرة نضالٍ فلسطينيّةٍ طويلةٍ لم تتوقّفْ منذ سقوط فلسطين قبل ٦١ عامًا. لهذا كلّه يمكن القولُ إنّ حرب غزّة هي حربُ فلسطين الأولى التي تستحقّ وصفَ «الحرب،» ولعلّها لن تكون الأخيرة ـ شأنها شأن كلّ حروب التحرير الوطنيّ المحكومةِ دائمًا وأبدًا بالانتصار.

مأزق الوحشيّة الإسرائيليّة

تصرّ الدولةُ العبريّة منذ إنشائها على استعراض قوّتها العسكريّة في مواجهة العرب، تارةً عبر الحروب الخاطفة في مواجهة جيوشٍ مكشوفةٍ ومفكّكةٍ وحديثةِ التكوين، وتارةً أخرى عبر غارات التصفية والاغتيال، وتارةً ثالثةً عبر استخدام نيرانٍ كثيفة في معركةٍ واحدةٍ بنيّة الإبادة ورفع حجم الكلفة البشريّة والعمرانيّة لدى الطرف المجابه.

مع حرب أكتوبر ١٩٧٣ انتهى المفعولُ الردعيّ للحروب الخاطفة، وصار على إسرائيل أن تخوض حروبًا طويلةً باهظةَ الكلفة (بشريّاً واقتصاديّاً ومعنويّاً)، كما حصل في اجتياح لبنان عام ١٩٨٢، وكما حصل طوال الحروب اللاحقة حتى العام ٢٠٠٦. أما عمليّاتُ الاغتيال والغارات المباغتة فقد تراجعتْ منذ أنْ أحسنَ معظمُ المستهدَفين استخدامَ وسائل الحيطة والحذر والتخفّي والردّ. ولم يبق سوى وسائل القتال الوحشيّة التي يراد من خلالها إقناعُ الطرف المعنيّ بلاجدوى القتال خوفًا من أن يَدفع ثمنًا باهظًا لقتاله. فلقد بيّنتْ حربُ لبنان، وتبيِّن حربُ غزّة، بوضوح، أنّ الكيانَ الصهيونيّ بات أمام معادلةٍ جديدة: فهو إنْ قاتل دفاعًا عن نفسه لم يعد قادرًا على حمايته بانتصاراتٍ سريعةٍ وحاسمة؛ وإنْ فاوض لحماية نفسه باتفاقاتِ سلام «عادلة» اصطدم بالرأي العامّ الصهيونيّ الذي ترعرع على حلم «إسرائيل الكبرى» وعلى هزائم الدول العربيّة المتتالية؛ وإن اعتمد سياسةَ اللاحرب واللاسلْم مَنَحَ أعداءه فرصةً ذهبيّةً للاستعداد للحرب القادمة عبر امتلاك وسائلِ قتالٍ وتجهيزاتٍ أفضل. وما الوحشيّة الإسرائيليّة سوى التعبير المباشر عن هذا المأزق، وهي في كلّ الحالات الورقةُ الأخيرةُ في الدفاع عن الكيان الصهيونيّ برمّته، وهي اليوم تُختبر في غزّة كما اختُبرتْ قبل أكثر من عاميْن في جنوب لبنان. وفي الاختبار يتّضح أنّ الوحشيّة الإسرائيليّة تؤدّي إلى زيادة تصميم المقاومة على مواصلة القتال بوسائل جديدة وفعّالة، وإلى اكتسابها دروسًا من كلّ معركة. وعليه، صار واضحًا للمقاومين أنّ الصهاينة يخشوْن القتالَ في مجابهاتٍ مباشرةٍ، وأنهم جبناء، وبالتالي يمْكن قهرُهم.

وفي السياق الاختباريّ أيضًا تنطوي «الوحشيّةُ» الإسرائيليّةُ على الخلاصات التالية:

١ ـ انتشار حال الهلع في صفوف الجيش الإسرائيليّ الذي يتعمّد الإبادةَ في قتاله خوفًا من عدوّه. وقتالُ الإبادة لا يفْصح عن قوةٍ واقتدارٍ بل عن ضعفٍ كامن. والثابت أنه عندما تدرك أنّ عدوّكَ يخاف، فإنّكَ ستتجرّأ على قتاله بوصفه «أوهنَ من بيت العنبكوت،» كما يعبّر السيّد حسن نصر الله، لا بوصفه وحشًا لا يُقهر كما تُقدّمه وسائلُ الدعاية الإسرائيليّة.

٢ ـ تُجرِّد الوحشيّةُ الحربيّةُ الكيانَ الصهيونيَّ من «تفوّقه الأخلاقيّ،» وتنقله من موقع الطرف الذي يدافع عن قضيّةٍ «تستحقّ أن يموت المرءُ من أجلها بوسائل أخلاقيّة» إلى موقع المجرم الذي يَرتكب جرائمَ بحقّ الإنسانيّة. لقد كانت النازيّةُ والفاشيّةُ متفوّقتيْن عسكريّاً، لكنهما ضعيفتان أخلاقيّاً، فكان أنْ هُزمتا بسبب ضعفهما الأخلاقيّ. والنظامُ الدمويّ في تشيلي انتصر بالحديد والنار على معارضيه، غير أنه انهار بسبب ضعفه الأخلاقيّ. وهكذا لا تحمي الوحشيّةُ الكيانَ الصهيونيّ، بل يمكن

حين تفقد الوحشيّة الإسرائيليّة قدرتها على إقناع الفلسطينيّ بالخضوع، فإنها تفقد جدواها.

أن تُلحق به أذًى يفوق الأذى العسكريّ الذي تتسبّب به المقاومة. أوَلَمْ يتفكّك النظامُ العنصريّ في جنوب أفريقيا، رغم قوته العسكريّة، بسبب ضعفه الأخلاقيّ؟

٣ ـ كان تفوّقُ إسرائيل مستمدّاً أيضًا من خوف الفلسطينيين وضعفهم. لكنْ ما إنْ بدأوا يتخلّصون من الخوف ويتلمّسون طريقهم نحو الحريّة والتمرّد ويكفّون عن الخضوع، حتى تبيّن للدولة العبريّة أنّ الطفلَ الفلسطينيّ لا يهاب الدبّابةَ الأحدثَ والأقوى في العالم. والطفلُ نفسُه صار شابّاً، وصار يتحدّى الدبّابةَ بمدفعه وصاروخِه البيتيّ.

٤ ـ إنّ الناظر إلى حرب غزّة يرى بوضوح أنّ قوة الكيان الصهيونيّ العسكريّة الغالبة هي الطيرانُ الحربيّ الذي مازال قادرًا، رغم فقدانه فاعليّتَه أمام الصواريخ البدائية، على إلحاق الأذى بالمقاتلين وبذويهم في زمن الحرب. لكنْ ماذا لو تمكّن المقاومون من الحصول على سلاحٍ فعّالٍ ضدّ الطيران؟ أيبقى الكيانُ الصهيونيُّ منتصبًا؟

عندما تَفْقد الوحشيّةُ العسكريّةُ الإسرائيليّةُ قدرتَها على الردع، إيْ على إقناع الفلسطينيّ بالخضوع، فإنها تفقد جدواها، وتتسبّب بعطبٍ خطيرٍ للمشروع الصهيونيّ. ولعلّ هذا ما يجعل إسرائيلَ تبدو هذه الأيّامَ أكثرَ شبهًا بلصٍّ ارتكب عمليّةَ نهبٍ كبيرةً من دون أن يتمكّن من تصريف المنهوب وتشريعِه وهو يسعى إلى حمايته بالحديد والنار. ولا شكّ في أنّ اغتصاب فلسطين عملٌ من أعمال اللصوصيّة العملاقة في القرن العشرين، وانتهت جميعُها الى الفشل، وآخرُها السطوُ الفرنسيُّ على الجزائر والسطوُ البريطانيُّ على عدن لما يناهز القرنَ وثلثَ القرن.

الحقّ والطاعة

يرى جان جاك روسّو في مكانٍ ما من مؤلّفاته أنّ القوة تَفْقد تأثيرَها في الناس ما لم يحوّلْها القويُّ إلى «حقّ،» وأنّ طاعة الناس للقويّ تظلّ مؤقّتةً وغيرَ موثوقةٍ ما لم تصبحْ واجبًا يؤدّيه المعنيّون بصورةٍ منتظمة. ولقد عمل الغزاةُ والمحتلّون في التاريخ وفق هذه القاعدة: هكذا احتلّ الصهاينةُ فلسطينَ بالقوة وجعلوا احتلالَهم «حقّاً» تاريخيّاً في العودة إلى ما يسمّى «أرض الميعاد،» وجعلوا «طاعةَ» العالم الغربيّ لهذا الحقّ المزعوم واجبًا لا خيارًا. لكنهم فشلوا في انتزاع طاعة الفلسطينيين، أصحابِ الأرض، الذين ما برحوا يقاتلون الكيانَ العبريَّ في غزّة من أجل استرجاع أرضهم المنهوبة، غيرَ عابئين بوحشيّته العارية من كلّ أثرٍ أخلاقيّ.

باريس

فيصل جلّول

كاتب لبنانيّ مقيم في باريس.

غزّة: نهاية اللوبي الصهيونيّ في أميركا؟

□ سري المقدسي
ترجمه عن الإنكليزية: سماح إدريس

ثمة اعتقادٌ شائع، ولاسيّما في العالم العربيّ، بأنّ اللوبي الصهيونيّ في الولايات المتحدة يُحْكِم قبضتَه على التوجُّهات الأميركيّة حيال الصراع الإسرائيليّ ـ الفلسطينيّ. غير أنّ هذا ليس صحيحًا. ولا أقصد أن أقلّل هنا من قوة شبكة المنظّمات والأفراد العاملة في خدمة مصالح إسرائيل في الولايات المتّحدة، ولا من قدرتها على الدفع قُدُمًا بتصريحاتٍ، بل سياساتٍ، تتعارض تعارضًا مباشرًا مع مصالح أميركا نفسها. لكنّي أعتقد أننا وصلنا إلى مرحلةٍ بلغ فيها اللوبي الصهيونيُّ حدودَه القصوى. وهو اليومَ يواجه سلسلةً متصاعدةً من التحدّيات التي لا يستطيع أن يتصدّى لها. والأمر نفسُه ينطبق على الدولة الصهيونيّة: فهي تدرك أنها بلغتْ لحظةً من التأزّم تعبِّر تمامًا عن وعيها بلاجدوى أفعالها. إنّ العنف الهائل الذي شنّته إسرائيلُ على غزّة، وهو يفوق ذاك الذي شنّته على لبنان عامَ ٢٠٠٦ (إنْ أَخَذْنا في الاعتبار الفارقَ في القوة ـ أي في التهديد الموجَّه إلى إسرائيل ـ بين حماس وحزب الله، وحقيقةَ أنّ غزّة كانت قد حوصِرتْ وجُوِّعتْ وأُفقِرتْ قبل القصف الذي بدأ في ٢٠٠٨/١٢/٢٧، وهو لم يحدثْ لجنوب لبنان أبدًا)، يعبّر عن شعور بالفزع من جانب إسرائيل وانعدام إيمانٍ بنفسها. والحقّ أنّ العنف على غزّة لا يمكن هضمُه في الولايات المتّحدة على الإطلاق؛ ولقد قفز اللوبي الصهيونيّ بسرعة كي يسعى إلى تبرير ذلك العنف، لكنّ كلّ تبريراته تهاوتْ أمام مشهد الموت والدمار. ذلك أنّ هناك أناسًا، أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى، باتوا قادرين على الرؤية من خلال ستار التبريرات الشفيف.

وفي الحدّ الأدنى فإنه من الواضح أنّ التوجّهات في أميركا تتغيّر في مساراتٍ تتحدّى اللوبي الصهيونيّ بشكلٍ مكشوف. والأمور تجري بسرعةٍ كبيرة. والوضع الآن رجراجٌ بمكانٍ بحيث إنه يمكن تصوُّر الهزيمة الدائمة للوبي الصهيونيّ، وللصهيونيّة في الولايات المتّحدة، إنْ تمّ استخدامُ الموارد الصحيحة بطريقةٍ مثْمرة.

لكي نَفْهم أسبابَ ذلك علينا أولاً أن نَفْهم كيف يَعْمل اللوبي وكيف لا يَعْمل. لنبدأْ بكيف لا يعمل: اللوبي المذكور ليس آلةً مركزيّةً واحدةً قادرةً على ترجمة رغباتها بشكلٍ كامل إلى إعلاناتٍ أو سياساتٍ فعليّة، بل هو اتحادٌ فضفاضٌ من المنظّمات والأفراد التي تدين بإنجازاتها السياسيّة الرئيسيّة لغياب ثقلٍ عربيٍّ موازنٍ أكثر ممّا تدين لطاقاتها ومواهبها. بل أذهب إلى أنه أيّاً كان الأثر الذي تمارسه الصهيونيّةُ في الولايات المتّحدة، فإنه مدينٌ للعجز العربيّ الذاتيّ أكثر مما هو مدينٌ للقوة الصهيونيّة ـ أيْ إنه مدينٌ للغياب العربيّ في أميركا أكثرَ مما هو مدينٌ للحضور الصهيونيّ هناك. وهذا يعود جزئيّاً إلى أنّ الدفاع عن الصهيونيّة في أميركا يشكّل فعليّاً محاولةً للسباحة ضدّ التيّار: تيّارِ التاريخ والوقائع أولاً، وتيّارِ القيم الأميركيّة ثانيًا.

من المهمّ أن نتذكّر أنّ الدفاعَ عن إسرائيل في الولايات المتّحدة يرتكز بشكلٍ أساسيّ إلى السعي إلى تجنّب الحقيقة التاريخيّة و«إعادة تعليبها.» وهذا صعبٌ في أحسن الظروف؛ إذ إنّها مهمةٌ مستحيلةٌ أن يواجَه أحدٌ بمعارضةٍ متصاعدةٍ داخل مجتمع لا تكون فيه الأخبارُ والمعلوماتُ متمركزةً، وهي لم تكن يومًا أكثرَ لامتمركزًا مما هي عليه اليوم. تأمّلوا مثلاً أنّ مَنْ يدافعون عن إسرائيل في الولايات المتّحدة يواصلون إعادةَ تعليب الأساطير نفسِها منذ أكثر من ثلاثة عقودٍ على الأقل، وكلُّها أساطيرُ باليةٌ، إذ إنّ كثيرًا جدّاً من الناس فكّكوها حتى لم يَعُد لها أيُّ اعتبار. والواضح أنّ تدفُّق المعلومات إنما هو لصالح مَنْ يحاول أن يتحدّى المشروعَ السياسيّ الذي تمثّله إسرائيل. تأمّلوا الوضعَ من منظور المدافعين عن إسرائيل: أتريدون أن تكونوا أنتم مَنْ يفتّشون عن وسائلَ تبرِّر كيفَ أمطرتْ إسرائيلُ بالفوسفور الأبيض لاجئين مرعوبين متكوّمين في مدرسةٍ تابعةٍ للأمم المتحدة في غزّة؟! لن تكون المهمّة يسيرةً أبدًا، وبخاصّةٍ أمام جمهورٍ تتزايد شكوكُه حيالكم وحيال الرسائل التي توجّهُونها.

وبالأهميّة نفسها فإنّ المشروع السياسيّ للصهيونيّة يمثّل قيمًا تتناقض تناقضًا حادّاً مع القيم السياسيّة التي تمثّلها أميركا ـ وأنا أعني هنا تحديدًا القيمَ الثقافيّةَ وعلى مستوى الخطاب. فالقيمة السياسيّةُ الأولى في أميركا هي مبدأُ المساواة المنصوصُ عليه (بقدسيّةٍ) في «إعلان الاستقلال» ودستورِ الولايات المتّحدة. كما أنّ

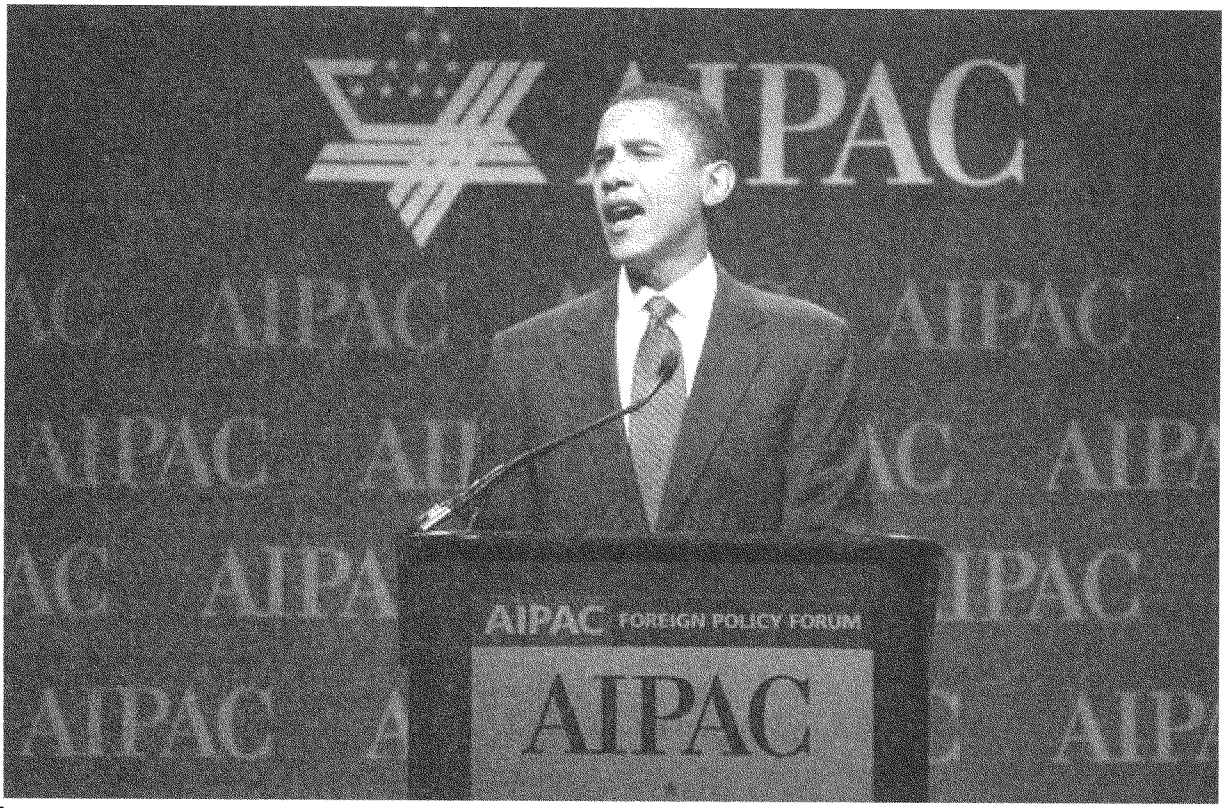

٣١٪ فقط من الديموقراطيين وافقوا على أن تلجأ إسرائيل إلى العنف في غزّة، وهؤلاء هم أعضاء حزب أوباما!

فَصْلَ الكنيسة عن الدولة أمرٌ أساسيّ هو الآخر في الحياة السياسيّة الأميركيّة. ومثله مفهومُ «المواطن العَلمانيّ.» وهذه المفاهيم الثلاثة تعرِّف لُبَّ القيم السياسيّة لأميركا، والصهيونيّةُ معاديةٌ لها جميعها في الصميم. وعليه، فإنّ الدفاع عن الصهيونيّة في أميركا لا يتضمّن تجنُّبَ الحقائق التاريخيّة وإعادةَ تعليبها فحسب، مثل حقيقة النكبة عامَ ١٩٤٨ أو أحداثِ ١٩٦٧ أو قصفِ غزّة في ٢٠٠٨ ـ ٢٠٠٩، وإنما يتضمّن أيضًا السعيَ إلى إعادة تعليب الصهيونية نفسها لكي تكون غيرَ ما هي عليه: فهي تَنْجح في عملها ما لم يفتح المرءُ العلبةَ ويَنْظُر فعلاً إلى ما في داخلها. ومن جديد أدعوكم إلى أن تضعوا أنفسَكم في موقع المدافعين عن إسرائيل في الولايات المتّحدة وهم يحاولون أن يبرِّروا لماذا لا تَمْلك إسرائيلُ أدنى فكرةٍ عن المواطن العلمانيّ، ولا أدنى فكرةٍ عن مفهوم القوميّة العلمانيّ (ومن ثم لا مؤسّسةَ زواج مدنيّ مثلاً في إسرائيل) ـ وكلُّها أمورٌ مركزيّةٌ في أيّة ديموقراطيّة ليبراليّة غربيّة، كالتي تصور إسرائيل نفسَها للغرب أنّها تنتمي إليها. قانونيّاً، لا تعترف إسرائيلُ مثلاً، بوجود جنسيّة إسرائيليّة؛ فوثائقُ الدولة الرسميّةُ وبطاقات الهويّة هناك تتحدث عن «جنسيّة يهوديّة.» وليس عليكم أن تَعْلموا الكثيرَ عن [سوء] معاملة إسرائيل لمواطنيها الفلسطينيين [داخل مناطق ٤٨] كي تَعْلموا أنّ ثمة ما يثير الغرابةَ في فكرة مواطَنةٍ (citizinship) مفصولةٍ عن القوميّة (nationality)؛ وهذا هو سببُ تمتُّع غير المواطنين اليهود في إسرائيل بحقوقٍ وامتيازاتٍ يُحْرم منها غيرُ اليهود من مواطني إسرائيل، أي الفلسطينيون. ومع ذلك، فإنّ الزعم بأنّ إسرائيل ديموقراطيّةٌ ليبراليّةٌ غربيّةٌ تعاملُ كلَّ مواطنيها على قَدَم المساواة أمرٌ مركزيٌّ من أجل ترويج إسرائيل في أميركا والدفاع عنها. والحال أنّ إسرائيل حَظرتْ مؤخّرًا كلَّ الأحزاب السياسيّة العربيّة داخل ٤٨ من المشاركة في انتخابات شباط (فبراير). أيودّ أحدٌ أن يتحمّلَ مسؤوليّةَ تبريرِ هذا العمل لجمهورٍ أميركيّ تتزايد شكوكُه حيال إسرائيل: جمهورٍ بدأ يدرك، وإنْ ببطءٍ، أنّ إسرائيل ليست ما تزعم أنّها إيّاه منذ زمن طويل؟!

إنّ السبب الذي دَفَعَ الجمهورَ الأميركيَّ إلى الشكّ الكبير في الدعاوى الصهيونيّة هو أنّ إقناعَ الناس بهذه الرسالة، والدفاعَ عن إسرائيل بشكل عامّ، كانا يعتمدان في السابق على تماسُك وسائل الإعلام الإخباريّة المركزيّة التابعة للشركات الأميركيّة حتى منتصف التسعينيّات من القرن الماضي. وأما الآن فوسائلُ الإعلام هذه في حالٍ من التفكّك والأزمة. فمزيدٌ من الناس يَحْصلون اليوم على الأخبار، ويناقشون الأحداثَ الراهنة، من خلال المواقع الإلكترونيّة والمدوّنات البالغة الانتشار: وقلّةٌ اليومَ تعتمد على وسائل الإعلام السائدة. فالحال أنّ السيطرة على جريدتيْن أو ثلاث جرائد كبرى وعلى محطّتين أو ثلاث محطّات تلفزيونيّة كبرى شيء: ومحاولةَ ممارسةِ الضبط البوليسيّ للإنترنت لكي يحصّنَ إسرائيلَ من النقد شيءٌ آخر. وفي كلّ يوم تَشْهد مجموعةٌ كبيرةٌ من المواقع الإلكترونيّة التي يزورها الكثيرون من الناس مقارباتٍ بديلةً وأكثرَ نقديّةً إزاء الصراع الإسرائيليّ ـ الفلسطينيّ ودور أميركا فيه. فمواقع مثل Counterpunch، وElectronicintifada، وAlternet، وTruthdig، وFiredoglake، وPost Huffington،

وSalon، وMondoweiss، وAngryarab، وJuan Cole، وغيرُها الكثير، عَرَضَتْ مقالاتٍ مفصّلةً وبالغةَ الذكاء، كَتَبها معلّقون عديدون تتجاوز معرفتُهم بالأحداث الجارية ما يقدِّمه الصحافيّون المحترفون في وسائل الإعلام السائدة ـ بما في ذلك، بالمناسبة، مقالاتٌ رائعةٌ كتبها يهودٌ أميركيّون يكذِّبون، مرةً وإلى الأبد، المفهومَ السخيفَ الذي يقول إنّ اليهود في أميركا يؤيّدون بصلابةٍ العنفَ الذي تقوم به إسرائيل.

❖ ❖ ❖

هناك كتابان يساعداننا على وضع التبدّل في اتجاهات الرأي العامّ الأميركيّ حيال إسرائيل ضمن السياق الصحيح: **اللوبي الإسرائيليّ** لستيفان والت وجون ميرشايْمر و**فلسطين: سلام لا أپارتهايد** لجيمي كارتر. الكتابان، من الناحية السياسيّة والشعوريّة، متباعدان بشدّة. فوالت وميرشايمر يعبِّران عمّا يسمّى بـ «المدرسة الواقعيّة» في العلاقات الدوليّة: إنّهما رجلان أبيضان محافظان من جامعتيْن كُبريَيْن وليسا من نقّاد إسرائيل التقليديين على الإطلاق (معظمُ هؤلاء كانوا يأتون من صفوف اليسار). أمّا كتاب كارتر، فرغم أنّ مؤلِّفَه رئيسُ جمهوريّة سابق، إلا أنه يمثِّل مقاربةً أخلاقيّةً للسياسة الخارجيّة الأميركيّة مختلفةً جداً ـ بمعنًى من المعاني ـ عن مقاربة والت وميرشايْمر. ولكنّ الكتابيْن، على اختلاف مقاربتيْهما اختلافًا حاداً، يَنْقدان نقدًا كبيرًا الدعمَ الأعمى لإسرائيل الذي طبَعَ السياسةَ الخارجيّةَ الأميركيّةَ في العقود الأخيرة. وكلا الكتابيْن هوجِم بشراسةٍ من قِبل المدافِعين عن إسرائيل في وسائل الإعلام السائدة ودوائر الحكومة. لكنّ الكتابيْن كليْهما قوبلا بالترحاب على المستوى الشعبيّ، وبيعتْ نسخُهما بوفرةٍ مدهشةٍ، وسيكون لهما بلا ريْبٍ وقعٌ مديدٌ على كيفيّة مقاربة أعدادٍ متزايدةٍ من الأميركيين لمسألة فلسطين، ولقد بيَّنَ نجاحُ كتاب كارتر [من حيث ضخامةُ المبيعات] أنّ اللوبي الصهيونيّ لا يسيطر بالتأكيد على كيفية تفكير الأميركيين إزاء الشرق الأوسط أو الصراع الفلسطينيّ ـ الإسرائيليّ؛ والأرجح أنه لم يسيطرْ في أيّ زمنٍ مضى!

التطوّر الآخر الذي يشير إليه الكتابان ـ وبخاصةٍ كتابُ كارتر من جديد ـ هو البوْنُ الذي يزداد اتساعًا بين ما يُقال ويفكَّر به في وسائل الإعلام السائدة على مستوى النُّخَبِ السياسيّة في واشنطن من جهة، وما يُقال ويفكَّر به على مستوًى أوسعَ وأكثرَ ارتباطًا بعامّة الناس من جهةٍ أخرى. ومع أنّ كارتر رجلُ دولةٍ كبيرُ السنّ، فقد هاجمه المدافعون عن إسرائيل بضراوة في وسائل الإعلام السائدة؛ بل إنّ قادة حزبه أنفسَهم تعمّدوا الابتعادَ عنه. ومع ذلك فقد كان كتابُه على لائحة الكتب الأكثر مبيعًا في جريدة **نيويورك تايمز** طوال أسابيع، وما زال إلى اليوم الكتابَ الأكثرَ مبيعًا في السوق الأميركيّة من بين الكتب المختصّة بفلسطين.

هناك طرقٌ أخرى لقياس الفالق الذي يزداد اتّساعًا بين النُّخب السياسيّة والإعلاميّة من جهة، والمواطنين الأميركيين العاديين من جهة ثانية. فلقد كشف استطلاعٌ أجْرتْه مؤخّرًا دائرةُ العلاقات الدوليّة في جامعة ميريلاند، مثلاً، أنّ ٧١٪ من الأميركيين، يعتقدون أنّ على بلادهم ألاّ تقف إلى جانب إسرائيل في صراعها ضدّ الفلسطينيين بل أن تتّخذ موقفًا محايدًا. إذنْ، على الرغم من خنوع المؤسّسة السياسيّة الأميركيّة لإسرائيل، فإنّ الغالبيّة العظمى من الأميركيين يتبنّون وجهةَ نظرٍ مخالفةً لنُخبهم السياسيّة أو للإعلام السائد. وهذا البون يتوسّع، والمسألةُ مسألةُ وقتٍ فحسب قبل أن تَعْمد وسائلُ الإعلام والمؤسّسةُ السياسيّةُ إلى اللّحاق بجمهور المنتخبين. مثالٌ آخر: استطلاعٌ لـ Rasmussen قبل ثلاثة أيام فقط من قصف غزّة أواخر كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٨ وَجَدَ ـ رغم التغطية المنحرفة للقصف في وسائل الإعلام السائدة ـ أنّ ٤٤٪ من الأميركيين يَدْعمون أعمالَ إسرائيل العسكريّة، ولكنّ ٤١٪ يعارضونها ويعتقدون أنه كان يجب اتّباعُ الديبلوماسيّة بدلاً منها. هذه النِّسَب متقاربة جدّاً: أيْ إنّ الدعم المطلق لإسرائيل لم يعد أبدًا ما كان يُظنّ في السابق. ثم إنّ التمعّن في الرقميْن يَكْشف أنّ أكثر مَنْ أيّد قصفَ إسرائيل جمهوريّون، وأنّ أكثر مَنْ عارضه ديموقراطيين: و٣١٪ فقط من الديموقراطيّون وافقوا على أن تلجأ إسرائيلُ إلى العنف في غزة، وهؤلاء هم أعضاءُ حزب الرئيس الجديد. فإلى أيّ مدى، وإلى متى، سيريد أوباما أن يشذَّ عن قاعدته السياسيّة؟ وكم سيودّ أن يَبْذل من رأس المال السياسيّ من أجل الدفاع عن أفعالِ إسرائيل التي لا يمكن الدفاعُ عنها؟

❖ ❖ ❖

لا أعتقد أنه سيكون من الصواب لمن يؤْمنون بإحقاق السلام والعدالة في فلسطين أن يسترخُوا ويَقْعدوا ويتركوا للرأي العامّ أن يأخذ مجراه. ولكنّ الأمر الجيّد هو أن الوضعَ في أميركا مترجرجٌ جدّاً، وثمة فرصةٌ جديرة بالاقتناص هنا: وهي أنّ بربريّة إسرائيل في غزّة لم تفشلْ فحسب في تحقيق أهدافها على الأرض، بل دفعتْ بالقضيّة الصهيونيّة في أميركا إلى مزيدٍ من التقهقر. والأفضل من ذلك الأمر هو أنّ مَنْ ينادون بالعدالة للشعب الفلسطينيّ سيجدون أنفسَهم يَسْبحون **مع** التيّار لا **ضدّه**. فالجهرُ بالحقيقة أسهلُ بكثير من محاولة بيع الأكاذيب البالية القديمة على ما يُضطرّ الصهاينةُ أن يفعلوه. لكنّ الأمرَ الملحّ هو بناءُ نوعٍ من الدعم المؤسّساتيّ لإعلام الجمهور الأميركيّ بتاريخ الصراع الفلسطينيّ ـ الإسرائيليّ والحقائق الراهنة. فلم يَحْدثْ من قبلُ أن حلّت مثلُ هذه اللحظة السانحة للعرب لكي يستثمروا في بناءِ مؤسّساتٍ تصل إلى الجمهور الأميركيّ وتوصِلُ إليهم حقيقةَ النضال الفلسطينيّ وعدالتَه.

لوس آنجلس، كاليفورنيا

سري المقدسي

بروفسور الأدب الإنكليزيّ والأدب المقارن، جامعة كاليفورنيا، لوس آنجلس.

بعد العدوان على غزّة: خروجٌ عربيّ ودخولٌ تركيّ

□ حسين العودات

أكّد العدوانُ على غزّة موتَ النظام العربيّ موتًا لا فكاكَ منه، وأضاء إمكانيّاتِ (وضرورةَ) تعديل إستراتيجيّة النظام التركيّ ليهتمَّ بمجاله الحيويّ الإقليميّ الذي تخلّت عنه الجمهوريةُ منذ أكثر من ثمانين عامًا. وسيكون لنتائج هذا العدوان تأثيرٌ عميقٌ على الاستراتيجيّات المقبلة لدول المنطقة وقواها السياسيّة، يطاول مستقبلَ التسوية، التي رأى بطرس غالي، الأمينُ العامُّ الأسبقُ للأمم المتحدة، أنها تأخّرتْ بسببه إلى جيلٍ آخر.

لقد حَرَّكَ العدوانُ المياهَ الراكدة، وذكّر الدولَ العربيةَ التي تقاعدتْ عن مهمّاتها (أو التي في الطريق إلى ذلك التقاعد) أنها ما زالت عالقةً في نيران الصراع الذي ربما يعيدها إلى بؤرته، ووَضَعَ القضيّةَ الفلسطينيّةَ ومسارات التسوية التي تم التوصّلُ إليها (وتلك التي كانت في متناول اليد) على طريقٍ وعرةٍ قد تكون مسدودةً، إنْ لم تتغيّر إستراتيجيّاتُ دول المنطقة، أعربيّةً كانت أمْ إقليميّة.

وسواء أحقّق العدوانُ أهدافَه العسكريّة أو السياسية أمْ لم يحقّقْها، وسواء انتصر الإسرائيليون أو لم ينهزم الفلسطينيون، فإنّ حقائقَ استراتيجية إقليمية ظهرتْ للعيان وفَرضتْ نفسَها. ورغم أنّ هذه الحقائق لم تكن بعيدةً عن أذهان السياسيين ومعرفة الإستراتيجيين وعن ثقافة النخبة في البلدان العربيّة وفي الدول الإقليميّة الأخرى، إلا أنّ الصَّلف الإسرائيليّ، والغزوَ الإسرائيليَّ اللاحق، والدورَ الذي لعبه رجب طيب أردوغان رئيسُ وزراء تركيا، والموقفَ العربيّ المتردِّدَ والمتناقضَ وغيرَ الجادّ (سواء من المعتدلين أو الممانعين)، وَضعتْ تحت الضوء أمريْن رئيسيْن. **الأول**، تأكيدُ موت النظام الإقليميّ العربيّ موتًا سريريّاً كاملاً، وعدمُ إمكانيّة إحيائه لا بصدمةٍ ولا بأيّة وسيلةٍ أخرى. **والثاني**، تذكيرُ الإستراتيجيين الأتراك بأهميّة الدور الإقليميّ لبلدهم، وبخطإ تجاهلهم مجالَهم الحيويّ الإقليميّ وعمقَهم الثقافيّ والجغرافيّ الذي أهملتْه الجمهوريّةُ التركيّةُ طوال أكثر من ثمانية عقود، بما يجعل من الطبيعيّ إعادةَ النظر باستراتيجيّتهم الحاليّة والمقبلة، وبخاصّة: استماتتُهم في الالتحاق بأوروبا (وكأنّ هذا خيارُهم الوحيد)، وصبرُهم على الصدّ الأوروبيّ، وسكوتُهم عن الإهانات التي توجَّه إلى بلدهم بين الفترة والأخرى من هذا الزعيم الأوروبيّ أو ذاك، ولوكُ المبرِّرات الأوروبيّة إزاء قبول تركيا عضوًا في المنظومة الأوروبيّة وترحيل البحث في هذه الإمكانيّة لعدة سنواتٍ أخرى. وهكذا فُتحتْ مجالاتٌ إستراتيجيّة إقليميّة كان يَعْرفها الجميعُ ويلمسونها وتحتاج فقط إلى مبادرةٍ شجاعة، أو ظرفٍ مناسب، لإزالة الغلالة التي تغطّيها، فتصبحَ أهدافًا سياسيّةً جديدةً للعرب ونظامهم الإقليميّ، وللأتراك ومداهم الحيويّ وأمنِهم القوميّ ومصالحِهم الاقتصاديّة والثقافيّة وغيرها.

❖ ❖ ❖

تأسّس النظامُ الإقليميّ العربيّ، الذي عبّر عن نفسه بإنشاء جامعة الدول العربيّة، عامَ ١٩٤٥، وهو أقدمُ نظامٍ إقليميّ في العالم كلّه. ولكنْ رغم عمره المديد، والظروفِ التاريخيّةِ العاصفة التي مرّت على البلدان العربيّة منذ تأسيسه، وما استجدّ خلالها في السياسات العالميّة والإقليميّة (من تراجُع الاستعمار القديم، ودخولِ الولايات المتحدة إلى المنطقة، ونموِّ حركة التحرر العربيّة ثم ضمورها، وصراعاتِ الحرب الباردة، وغيرها)، فقد بقي هذا النظامُ عاجزًا عن إنجاز مهمّاته، السياسيّة أو الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة أو التي تتعلّق بالأمن القوميّ... بل يستقرّ ترتيبُه (ويا للمفارقة) في ذيْل الأنظمة الإقليميّة الكبرى من حيث تحقيق مصالح أعضائه، كما هي حالُ الاتحاد الأوروبيّ أو اتحاد جنوب شرق آسيا (آسيان) أو اتحاد دول أمريكا اللاتينية، باستثناء أمرٍ واحدٍ برع في إنجازه إلى ما يقْرب الكمالَ: وهو أمنُ الأنظمة السياسيّة القائمة! فقد كانت اجتماعاتُ وزراء الداخليّة العرب تتمّ بانتظام، وتسير بسلاسةٍ عزّ مثيلُها، وتتّخذ قراراتٍ تلقى الإجماعَ غالبًا وتنَفَّذ بسرعةٍ وفعّاليّةٍ لأنها ذاتُ علاقةٍ بأمن أنظمة الأعضاء منفردةً أو مجتمعةً. أما ما عدا ذلك فالارتباكُ، والتناقضُ، والخلافاتُ، وسياسةُ المحاور، وتعطيلُ ميثاق الجامعة والاستخفافُ بقراراتها وعدمُ تنفيذها: كانت كلّها من السمات الأساسيّة لنشاطات

الجامعة وأعضائها والمنظّمات التابعة لها وللنظام العربيّ بمجمله.

لا يُلْزم ميثاقُ الجامعة أحدًا من أعضائها بتنفيذ قراراته (التي كانت دائمًا غيرَ ملزمة لأحد حتى لو اتُّخِذتْ بالإجماع حسب نصوص الميثاق). ولذلك طالما مارس المشاركون في اجتماعات الجامعة ولجانها، بما في ذلك مؤتمراتُ القمة، سياسةَ التوافق، التي هي في الواقع سياسةُ التنازلات الكبرى المتبادلة، وصولاً إلى قراراتٍ لا معنى لها تتّصف بغموضها وعموميّتها وفخامتها اللغويّة. ومع ذلك، فلكلّ عضوٍ الحقُّ في عدم تنفيذها، بمن في ذلك الذين وافقوا عليها؛ كما أنّ من حقّ الأقليّة إهمالَ قرارات الأكثريّة: فلا وجودَ لعلاقاتٍ ديموقراطيّة، أو تقاليد خضوع الأقليّة للأكثريّة، في اجتماعات مجلس الجامعة. ولأنّ الأمر كذلك، ولأنّ اهتمامات الأنظمة الحاكمة لا تتجاوز أنوفَها، فقد بقي النظامُ العربيّ عاجزًا، وربما غيرَ راغبٍ في مواجهة أيّة مشكلة عربيّة مواجهةً جديّةً مسؤولة. وهكذا فشلت الجامعةُ في رسم استراتيجيّة عربيّة موحّدة، أو في التوصّل إلى ثوابت يقْبلها العربُ جميعًا ويلتزمون بها حتى لو كانت اتفاقاتِ الحدّ الأدنى: كالتضامن العربيّ، أو الموقف من القضيّة الفلسطينيّة ومن إسرائيل، أو من التكتّلات العالميّة الكبرى، أو من القطبيْن الرئيسيْن أيّامَ الحرب الباردة، أو من حرب أفغانستان أيّامَ الوجود السوفييتيّ، أو من أيّة قضيّة سياسيّة مهمّة داخل البلدان العربيّة أو في محيطها أو على النطاق العالميّ. وافتقر العربُ طوال نصف القرن الماضي إلى الاتفاق على موقفٍ موحّد تجاه قضاياهم وقضايا غيرهم.

لقد حقّقت الجامعةُ العربيّةُ بعضَ الإنجازات الثانويّة غير السياسيّة وغير ذات الصلة بالأمن القوميّ العربيّ من خلال إقامة منظّماتٍ تابعةٍ لها تعتني بالشؤون الثقافيّة أو الاجتماعيّة أو الصحّيّة أو الاقتصاديّة في البلدان العربيّة، لكنها جميعها بقيتْ منظّماتٍ شكليّةً وإجرائيّةً لا أهميّةَ كبيرةً لها ولم تحقّقْ نجاحاتٍ يُعتدّ بها. فرغم قيام هذه المنظّمات المشتركة بقي التعاونُ البينيّ بين الدول العربيّة متدنّيًا جدّاً في مختلف المجالات ولا يوازي مثيلَه القائمَ بين البلدان العربيّة والبلدان الأجنبيّة، وبخاصّةٍ مع بلدان أوروبا ومع الولايات المتحدة. وعلى أيّة حال فإنّ المشكلة ليست في تأسيس هذه المنظّمات من عدمه ليقاسَ من خلالها نجاحُ النظام العربيّ أو فشلُه؛ وإنما القضيّة الأساسيّة هي التساؤل عمّا قدّم هذا النظامُ للأمن الجماعيّ العربيّ، وللمواقف العربيّة الموحّدة، ولقضيّة فلسطين والصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ، ولقضايا أخرى ذاتِ علاقةٍ بمستقبل البلدان العربيّة منفردةً أو مجتمعةً: كمعالجة مشكلة «الأقليّات القوميّة،» أو الخلافات الدينيّة والمذهبيّة، أو المواقف المشتركة من الدولة الحديثة ومعاييرها، وبخاصة معاييرُ الحريّة والديموقراطيّة وحقوق الإنسان وغيرها.

لقد فشل النظامُ العربيُّ القائمُ، إذنْ، في تحقيق مهمّاته الأساسيّة، وأصابتْه الأمراضُ والتناقضاتُ، ومن ثم الضعفُ والخوار. ولم يعد فعّالاً بأيّة حال، وصار يعجز عن حلّ أيّة مشكلة مهما صغرتْ؛ بل إنه غدا وسيلةً تستخدمها البلدانُ العربيّةُ في صراعاتها. وأغرى ضعفُه كلَّ عضوٍ فيه يبحث عن خلاصه بالمساهمة في قيام المحاور داخله، أو بالتحالف مع دولٍ أخرى خارج هذا النظام وبالاستقواء بها بل باستعدائها على العضو أو الأعضاء الآخرين. وكان ترحيلُ بحث أمر الغزو العسكريّ الإسرائيليّ لغزّة إلى مجلس الأمن، بدلاً من عقد مؤتمر قمّةٍ عربيّةٍ فوريّ لمواجهته، مؤشّرًا واضحًا على التردّي الذي وصل إليه هذا النظامُ: فبدلاً من أن يقْلع نظامُنا شوكَه بيديْه، أرجأ الأمرَ إلى ما بعد أن ينتهي الآخرون من فعل ذلك. ولعلّها المرة الأولى في تاريخ الأنظمة الإقليميّة القائمة في العالم التي يوكِلُ نظامٌ إقليميٌّ فيها إلى غيره بحثَ مشاكله وإيجادَ حلولٍ لها. وعندما نتذكّر أن المشكلة ذاتُ صلةٍ بنيويّةٍ بحاضر البلدان العربيّة ومستقبلِها منفردةً أو مجتمعةً، وبمصير الصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ، ندرك الضعفَ الذي أصاب النظامَ العربيّ ودرجاتِ الهوان التي وصل إليها.

لقد كان العربُ جميعًا (حكّامًا ومحكومين ونخبًا وتيّاراتٍ سياسيّةً) يعرفون ضعفَ نظامهم وانحلالَه، ويؤْمنون بضرورة تغييره وتحديثه وجعله نظامًا ملزمًا يستوعب ظروفَ عالمنا المعاصر. إلاّ أنّ الجميع كانوا يخشوْن المبادرةَ إلى إنهائه بإطلاق رصاصة الرحمة على رأسه؛ ذلك لأنّ هموم الأنظمة السياسيّة العربيّة القائمة هي همومٌ أخرى تتعلّق باستقرارها وراحةِ بالها واستمرارها عشراتِ السنين، ولا يقع الهمُّ العامُّ (أيْ ما يسمّى بـ «الهمّ القوميّ») ضمن اهتمامات هذه الأنظمة. ولهذا انكشف تهافتُ النظام العربيّ وعجزُه الكاملُ مع بدء العدوان على غزّة، كما انكشف قبل ذلك خلال العدوان على لبنان عام ٢٠٠٦. ولا أظنّ أنّ أحدًا مازال يرغب في استمراره على الحال التي هو فيها، باستثناء أهل الأنظمة. ولعلّ هذه نتيجةٌ مباشرةٌ ومهمّة من نتائج العدوان يصْعب تجاهلُها والسكوتُ بعدها عن هزال هذا النظام.

❖ ❖ ❖

أما النتيجة المباشرة الثانية المتعلّقة بالنظام التركيّ فهي أنه منذ سقوط السلطنة العثمانيّة وإعلان الجمهوريّة في عشرينيّات القرن الماضي، حاول النظامُ الجمهوريّ وقادتُه، وبخاصّةٍ عسكرُه، القطعَ الكلّيَّ والعشوائيَّ مع نظام السلطنة: استراتيجيّاً، من خلال تخلّيه عن محيطه الإقليميّ ومجاله الحيويّ؛ وسياسيّاً، بإلغاء إدارته وأنظمته، وإقامة نظام سمّاه «علمانيّاً» (؟) (بحراسة العسكر وقيادتهم)؛ وثقافيّاً، بإلغاء الكتابة بالخطّ العربيّ، والتخلّي عن العمق الثقافيّ والتراكم الثقافيّ العثمانيّ، وتبنّي بعض جوانب الثقافة الأوروبيّة دون تبصّر؛ واجتماعيّاً، بمحاولة إلزام الناس تبنّي التقاليد الأوروبيّة (الصغيرة والكبيرة)، والإصرار على تتريك جميع الفئات (الإثنيّة) وإلغاءِ التنوّعات الثقافيّة، والانتقاص من حقوق الأقليّات. وشمل هذا الجفاءُ العالمَ الثقافيّ التركيّ في وسط آسيا، والعلاقات التاريخيّة مع غربها، وتناسي العالم الإسلاميّ في كلّ مكان. وكان قطعًا شبهَ كامل اقتصاديّاً وسياسيّاً وثقافيّاً، وإهمالاً مقصودًا للمجال الحيويّ التركيّ، والتوجّهَ إلى أوروبا بلا قيودٍ أو تحفّظ، واعتبارَ ذلك نهجَ تحديثٍ فيه مصلحةُ تركيا وخلاصُها، والإذعانَ لهيمنة العسكر في الشؤون

العدوان على غزة آتاح لأردوغان أن يقولها بشجاعة: نحن ورثة العثمانيين!

الداخليّة والخارجيّة وتسليمَ القيادة الفعلية إليهم. وكلما حاول المجتمعُ التركيُّ وتيّاراتُه السياسيّة وأحزابُه اتّباعَ طريقٍ آخر، كان يحدث انقلابٌ عسكريٌّ يعيد تركيا إلى الطريق التي اختطّها كمال أتاتورك باسم العلمانيّة، التي تبرّر السياساتِ بالتلطّي تحت خيمتها، بما في ذلك تجميلُ الديكتاتوريّة العسكريّة. إلى أن أصبحتْ تركيا في النهاية أداةً بيد حلف شمال الأطلسيّ، ومحاربًا نشطًا في الحرب الباردة، تتوسّل، وربما تتسوّل، رضى الولايات المتحدة وأوروبا لقبولها في المنظومة الأوروبيّة والمجتمع الغربيّ.

لقد تغيّرت الظروفُ بعد انتهاء الحرب الباردة، وتراخت قبضةُ العسكر الأتراك، واستطاع «حزبُ العدالة والتنمية» أخيرًا تولّي السلطة عام ٢٠٠٢، وأخذ يعالج مشاكلَ تركيا وأزماتها من دون الالتزام المسبّق والجامد بثوابت الجمهوريّة التي استمرّت معظمَ عقود القرن الماضي. وربما انتبهت القيادةُ التركيّةُ الجديدةُ إلى أهميّة العالمَيْن العربيّ والإسلاميّ (والعالم الشرق الأوسطيّ بشكلٍ عامّ) بالنسبة إليها، وتأكّدتْ أنّ مصالحها الحقيقيّة هنا لا هناك، وأنّ عمقَها الثقافيّ والاقتصاديّ والجغرافيّ يقع هنا لا هناك... ولكنْ من دون الرغبة في الهيمنة أو التدخّل في شؤون هذيْن العالميْن الداخليّة، ومع الحرص على استمرار التواصل مع بلدان أوروبا وبذل الجهود وخلق الشروط المناسبة لدخول المنظومة الأوروبيّة. ولذلك أعارت الاهتمامَ مجدّدًا للمجال الحيويّ القديم الذي كان أيّامَ السلطنة العثمانيّة. ويبدو أنّ النظام الجديد اكتشف أهميّة هذا المجال الحيويّ، وأدرك ضرورةَ تغيير الإستراتيجيّة والسياسات باتجاهه والاستفادة منه. وربما كانت حكومةُ «العدالة والتنمية» تنتظر المبرِّرَ المباشر والظرفَ المناسبَ لتعلن تبنّيَها لمثل هذه الإستراتيجيّة الشرق الأوسطيّة، إلى جانب العمل على الانتساب إلى أوروبا، أو ربّما بديلاً عن هذا الانتساب. وكان العدوان على غزّة ومجرياتُه حدثًا أتاح لرجب طيب أردوغان أن يقولها بشجاعة (نحن ورثة العثمانيين) ويعلن سخطَه على العدوان الإسرائيليّ، بل على السياسة الأمريكيّة المائلة لهذا العدوان أيضًا، ويشجّع شعبَه على التظاهر والاحتجاج، ويؤيّد شعاراتِ مئات آلاف المتظاهرين، ويحرّضهم على ذلك من وراء ستار.

❖ ❖ ❖

إنْ صحّت هذه الاستنتاجات فلا شكّ في أننا أمام متغيّراتٍ إقليميّة مهمّة جدّاً في المستقبل القريب. فقد نشْهد قيامَ نظام عربيّ آخر على أشلاء النظام الحاليّ؛ كما قد نشْهد تعديلاتٍ جذريّةً في الإستراتيجيّة التركيّة المقبلة تعيدها إلى محيطها الجغرافيّ والثقافيّ وتؤهّلها للاستفادة من عمقها التاريخيّ. وبذلك يكون العدوانُ على غزّة قد ساهم في رسم إستراتيجيّاتٍ جديدةٍ لدول المنطقة، وشكّل حدثًا مفصليّاً في تاريخها، وهيّأ المناخَ لخروجٍ عربيّ ودخولٍ تركيّ.

دمشق

حسين العودات

كاتبٌ من سوريا.

المنظر من شارع الجبل (حيفا)

□ يوآب بار

شارع الجبل

يبدأ شارعُ الجبل في حيّ وادي النسناس، القريبِ من ميناء حيفا، ويتسلّق جبلَ الكرمل متوجّهًا نحو دير ستيلا ماريس، وقد يكون هذا الطرفُ من جبل الكرمل هو البقعةَ الوحيدةَ من فلسطين التي ترى منها البحرَ حين تنظر شمالاً. ويمتدّ النظرُ ليشملَ مدينةَ عكّا القديمة ومستوطنةَ نهاريّا، ومن بعدها جبال رأس الناقورة تناطح البحرَ وتستّر الجنوبَ اللبنانيّ.

عانى شارعُ الجبل الكثيرَ على مدى السنين. فقد طُرد معظمُ سكّانه العرب، مثلهم مثل أكثر من ٧٠،٠٠٠ من سكّان حيفا العرب، أثناء التطهير العرقيّ الجماعيّ عام ١٩٤٨. وحَوّل الصهاينةُ اسمَ الشارع إلى «شارع الأمم المتحدة» ـ تقديرًا منهم لقرار الأمم المتحدة تقسيمَ فلسطين، ومنْحَها مدينةَ حيفا العربية إلى الدولة اليهوديّة، ومن ثم شرعنةَ جرائم التطهير العرقيّ التي ارتكبوها. وبقي القليلُ من سكّان حيفا العرب، حوالى ثلاثة آلاف، في حيّ وادي النسناس. وانضمّ إلى العرب في حيفا خلال السنين الكثيرُ من لاجئي القرى والمدن الشماليّة الذي هُدمتْ عام ١٩٤٨، فسكنوا في شارع عبّاس الممتدّ إلى غربه، فزاد العربُ وملأوا «الصليبيين» القريبَ من قمّة الكرمل ووصلوا حتى شارع «الثاني من نوفمبر» الذي أراد الصهاينةُ أن يخلّدوا من خلاله وعدَ بلفور المشؤوم. وفي سنة ١٩٧٤ كانت الثورة الفلسطينيّة في أوْجها ففَرضتْ على العالم الاعترافَ بالحقّ ونفيَ الباطل، فدانت الأممُ المتحدةُ الصهيونيةَ بوصفها حركةً عنصريّةً كالأپارتهايد، فغضب الصهاينةُ على الأمم المتحدة وغيّروا اسمَ الشارع إلى «جادّة الصهيونيّة.» ولكنْ شاءت المفارقة أن تصبح «جادّةُ الصهيونيّة» المحورَ الرئيسَ لحيفا العربيّة المتجدّدة. وشكّلت التسميةُ المذكورةُ استفزازًا لمشاعر غالبيّة سكّان الشارع، الأمرُ الذي أدّى إلى مطالباتٍ متزايدةٍ بتغيير اسم الشارع وإعادة اسمه الأصليّ: شارع الجبل.

بحسب سياسة «التعايش» المنشودة لبلديّة حيفا، لا توجد في حيفا مراكزُ عربيّة بل مراكزُ «يهوديّة ـ عربيّة،» أهمُّها «بيتُ الكرمة» الموجودُ في شارع الجبل. في مناسبة الأعياد الشتويّة تقيم بلديّةُ حيفا مهرجانَ «عيد الأعياد» في وادي النسناس، الذي يرتاده عشراتُ الآلاف من الزائرين، معظمُهم من اليهود الإسرائيليين؛ ذلك أنّ وادي النسناس في حيفا هو البقعة الأخيرة في فلسطين العربيّة التي يشعرون براحة التجوّل فيها كسيّاح.

كان يومُ ٢٠٠٨/١/٢٨ آخرَ أيّام عيد الأعياد. وكان شبابُ نادي «حيفا الغد» منهمكين في استقبال زوّار معرض تضامنٍ مع أهل غزّة تحت الحصار، عندما وصلتْ أخبارُ المجزرة الصهيونيّة الجديدة ضدّ أهل غزّة. وسرعان ما تحوّل المعرضُ إلى مركزٍ انطلقتْ منه الاتصالاتُ مع كلّ القوى الوطنيّة والديمقراطيّة في حيفا، والإعداداتُ للمظاهرة الوحدويّة في شارع الجبل قرب بيت الكرمة، حيث رُفعتْ أعلامُ فلسطين والشعاراتُ والهتافاتُ المنددّةُ بجرائم الصهيونيّة والمناصرةُ لأهل غزّة وصمودهم الأسطوريّ. ثم عادت المظاهرة لتتحوّل إلى مسيرةٍ جماهيريّةٍ جابت شوارعَ حارة الواد.

كان لاختيار موقع المظاهرة قرب بيت الكرمة ومقطع شارع الجبل، الواقع بين شارع الكرمة وشارع عبّاس، عدّةُ أسباب، منها: كثافةُ السكّان العرب في المنطقة، ووجودُها على مفترق طرقٍ رئيسٍ يوصل رسالةَ المظاهرة الغاضبة إلى الجماهير العربيّة واليهوديّة؛ ومنها قربُ الموقع من حيّ الواد، الذي يوفّر للمتظاهرين فرصةَ الدفاع عن النفس في حالة الهجوم المعادي، بسبب ازدحامه وكثرة أزقّته. ومنذ ذلك التاريخ واصلت القوى الوطنيّةُ في حيفا المظاهراتِ اليوميّة. وفي بعض الأيّام نَظّمتْ أكثرَ من مظاهرة، معظمُها توقّف أو انطلق أو مرّ في المقطع المذكور من شارع الجبل. وكان من الطبيعيّ أنْ طَرحت اللجنةُ الشعبيّةُ، التي تقود حملةَ الاحتجاج والمظاهرات، تسميةَ منطقة المظاهرات هذه بـ «ساحة غزّة.»

إذا كانت المظاهرة في الداخل تميّزتْ في الماضي بتباين الأجندات، فإنّ تظاهرة سخنين الجبّارة في ٢٠٠٩/١/٣ سارت تحت راية فلسطين.

لماذا غزّة؟

عندما جرت الانتخاباتُ التشريعيّةُ الفلسطينيّة في أوائل عام ٢٠٠٦، شكّك الكثيرون في جدّية (وجدوى) المشاركة في هذه الانتخابات في ظلّ الاحتلال. ولكنْ لا بدّ أن نرى اليومَ أهميّةَ الفرصة التاريخيّة التي استغلّها الشعبُ الفلسطيني ـ رغم كلّ محدوديّاتها ـ لسحب الشرعيّة من نهج التعاطي مع المشروع الإمبرياليّ ـ الصهيونيّ الظالم، وللتأكيد على نهج مقاومة الاحتلال ورفض شرعنة جرائم التطهير العرقيّ منذ عام ١٩٤٨ والتمسّك بالحقوق الوطنيّة. ولا بدّ من الانتباه إلى أنّ مهندسي السياسة الإمبرياليّة فوجئوا بانتصار حماس واعتبروه ضربةً لمشروعهم، ومن ثم ألغوْا كلَّ ادّعاءاتهم بالحاجة إلى دمقرطة العالم العربيّ. ولكنّ هذا الخيار الديمقراطيّ للشعب الفلسطينيّ لم يتحقّقْ على وجه الأرض إلاّ بعد فرض حماس سيطرتَها على قطاع غزّة بقوة سلاحها في حزيران ٢٠٠٧، وذلك بعد محاولاتٍ منهجيّةٍ من القوى الإمبرياليّة لتسليح وتدريب قوًى فلسطينيّةٍ متعاونةٍ لخلق الفوضى والانفلات الأمنيّ والحرب الأهليّة في القطاع.

لأوّل مرّة منذ احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ تمكّنتْ حماس في غزّة من السيطرة على قطعة من الأرض الفلسطينيّة تحت السيادة الفلسطينيّة، وتشكيلِ ميزانِ قوّة يحميها ويضعها خارج نطاق التدخّلات «الأمنيّة» الإسرائيليّة. ولا عجب: فهي غزّة الأبيّة التي قاومت الاحتلالَ في الستينيّات والسبعينيّات، وأعلنت الانتفاضةَ الأولى (كان اتفاقُ أوسلو نتيجةً لرغبة الاحتلال في التخلّص من عبئها أولاً)، وفرضت انسحابَ جيش الاحتلال والمستوطنين عامَ ٢٠٠٥. ورغم قسوة الظروف، يمكن القولُ إنّ قطاع غزّة كان أوّلَ أرضٍ فلسطينيّة شبه محرّرة. ولم يُخفِ الصهاينة تمنّياتهم بأن تَغْرقَ غزّةُ في مياه البحر، حسب تعبير «رجل السلام» الإسرائيليّ رابين. وبالتالي لم نستغربْ وحشيّةَ الحصار والمذابح من قِبل نظام القهر العنصريّ تجاه أول بقعةٍ من الأرض الفلسطينية المحرّرة. غير أنّ صمودَ غزّة ومقاومتَها لم يكونا من شأن أهلها فحسب، وإنما يشكّلان المحورَ الرئيسَ للصراع التاريخيّ بين القوى الظالمة وبين آمال الشعب الفلسطينيّ وشعوب المنطقة كلّها في أن تعيش بسلامٍ وأمانٍ وازدهار.

لماذا أكتب؟

لم توقفْ صرخـتُنا أيّةَ طائرةٍ أو دبّابةٍ أو رصاصة في حملة القهر العنصريّ المجنون الموجَّه ضد أهل غزّة أطفالاً ونساءً وشيوخًا ورجالاً ومقاومين؛ ولم يَشْفِ علمُ فلسطين المرفوعُ في حيفا جُرحَ طفلةٍ واحدةٍ من آلاف ضحايا العدوان. فلماذا نتظاهر؟ ولماذا أكتب عن تجاربنا النضاليّة البسيطة هذه، وهي تخلو من البطولة، واحتمالُ تأثيرها العمليّ معدومٌ، إذ لا يمْكن أن تأخذ السلطاتُ الإسرائيليّةُ القمعيّةُ رأيَنا في حسبان ديمقراطيّتها المزيّفة، والعربُ الفلسطينيّون داخل الكيان الصهيونيّ العنصريّ هم من الكائنات المهدَّدة بالانقراض ولا يمكن أن يشكّلوا

توازنَ قوةٍ مع آلة الحرب المدمِّرة، واليهودُ من أصحاب الضمير قلّةٌ منبوذةٌ في المجتمع الإسرائيليّ العنصريّ؟

لقد شهِدْنا أكبرَ مظاهرات التنديد بالعدوان في تركيا، وهي عضوٌ في حلف الناتو الإمبرياليّ، وتقيم تحالفًا عسكريّاً مع إسرائيل، وتخوض معركةَ قمعٍ وإرهابٍ ضدّ الشعب الكرديّ. ولكنْ ها هي تركيا موجودةٌ في حالة صراع داخليّ بين حركةٍ إسلاميّةٍ انتصرتْ في انتخاباتٍ ديمقراطيّةٍ وشكّلتْ حكومةً، وبين المؤسّسة العسكريّة المعنيّة بتصعيد القمع الداخليّ ومحاربةِ الأكراد والتحالفِ مع إسرائيل والإمبرياليّة. وقد يكون التحرّكُ لنصرة الشعب الفلسطينيّ جزءًا من تحرّك جماهير تركيا لكسب حرّيتهم وللتحرّر من رواسب الديكتاتوريّة والهيمنة الغربيّة.

كذلك الأمرُ في كلّ أنحاء المنطقة. وما إسرائيل إلاّ قلعةٌ عسكريّةٌ متقدّمةٌ للإمبرياليّة ولضرب حركات التحرّر في المنطقة، «مسمارُ جحا» مزروعٌ في قلب الوطن العربيّ الممزَّق، يتدخّل عسكريّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً لفرض الهيمنة الأجنبيّة ويشكّل الذريعةَ للضغط والعقوبات والتدخّلات العسكريّة. ومع نموّ ثقافة المقاومة والرفض الشعبيّ للهيمنة الإمبرياليّة، تزداد عدوانيّةُ السياسة الإمبرياليّة الصهيونيّة، ولكنْ يقلّ مفعولُها وتَضْعف قدرتُها على فرض إملاءاتها.

من هنا وجب أن نراجعَ أجندتنا لنرهّنها ونطوّرها. فنحن نلاحظ، بعد فشل العدوان الأمريكيّ على العراق وفشل العدوان الإسرائيليّ على لبنان عام ٢٠٠٦، أنّ مشروع الشرق الأوسط الجديد قد سقط من الأجندة الإمبرياليّة. ولأنّ مستقبلاً أفضلَ لهذه المنطقة لا يمكن أن يبشّر به طرحٌ ينساق مع المشروع الإمبرياليّ أو ينجمُ عنه، فإنّ التصدّي للمشاريع الإمبرياليّة يجب أن يقترن مع صياغة البدائل، بحيث تكون ساحة صياغة البدائل هي ساحة النضال ضدّ الهيمنة الإمبرياليّة وضدّ حروبها ومجازرها، ومن خلال بناء القوى والتحالفات والرؤية والأخلاق لشرقٍ أوسطَ جديدٍ ـ يضمّ فلسطينَ حرّةً ديمقراطيّةً وعالمًا عربيّاً حرّاً، موحّدًا، يُدار بأيدي شعوبه ولمصلحة جماهيره المقهورة.

من هذا المنظور يكون تحرّكُنا الجماهيريّ البسيط جزءًا من تشكيل القاعدة الجماهيريّة لعمليّة التغيير، وجزءًا من محاصرة الحصار وعزل النظام العنصريّ، ملتحمًا بذلك مع المقاومة البطوليّة لأهل غزّة. وفي هذه الأوقات العصيبة أحاول أن أَنقل انطباعاتٍ سريعةً وجزئيّةً من هذا القطاع في المعركة الكبيرة، آملاً أن نستفيد جميعًا من تبادل المعلومات والأفكار. لهذا نتحرّك، ولهذا أكتب.

تراكمُ التجربة النضاليّة لفلسطينيي ٤٨ وتطوّرها

العرب الفلسطينيّون الذين بقُوا داخل حدود الدولة اليهوديّة بعد جرائم التطهير العرقيّ عام ٤٨ يشكّلون جزءًا حيّاً وفعّالاً من الشعب الفلسطينيّ، يَعُدّ أكثرَ من مليون نسمة، ربعُهم تقريبًا لاجئون في وطنهم، ويعانون جميعًا العنصريّةَ والقمعَ المنهجيّ في كلّ مجالات الحياة. صحيح أنّ الانقطاعَ والفوارقَ في الظروف الموضوعيّة أدّت إلى نشوء أحزابٍ وحركاتٍ وحياةٍ سياسيّةٍ خاصّةٍ داخل منطقة فلسطين ٤٨؛ ولكنْ ما زالت تحرّكاتُ «عرب الداخل» تدور حول الأجندة العربيّة والفلسطينيّة نفسِها، مع تقلّباتها خلال مراحل التاريخ: من القوميّة العربيّة على النمط الناصريّ، والشيوعيّة الثوريّة والإصلاحيّة، ونموّ الثورة الفلسطينيّة المسلّحة والجماهيريّة، والليبراليّة الجديدة، والحركات الإسلاميّة.

بعد اتفاق أوسلو وتشكيل السلطة الفلسطينيّة تحت هيمنة الاحتلال، صَدّق البعضُ أنّ حلّ القضيّة الفلسطينيّة سيكون من خلال دولةٍ فلسطينيّةٍ في الضفّة الغربية وقطاع غزّة. وكانت تيّاراتٌ مركزيّةٌ في مناطق ٤٨ تعمل على تطوير أجندةٍ نضاليّةٍ لتحسين أوضاع العرب داخل الدولة اليهوديّة. ولكنّ هذا الأجندة وصلتْ إلى طريقٍ مسدودٍ نتيجةً لعنصريّة النظام.

كانت مشاركةُ عرب الداخل في الانتفاضة الأولى من خلال يوم غضب واحد، «يوم فلسطين،» في ١٩٨٧/١٢/٢١، بعد مرور ١٢ يومًا على انطلاقة الانتفاضة. وقد شهدت السنواتُ الثلاث عشرة ما بين انطلاقة الانتفاضة الأولى والثانية عمليّةً تراكميّةً مستمرّة في تطوّر وعي الجماهير وطرق التنظيم، تجلّت في بناء مجتمعٍ مدنيّ متطوّر يواجه العنصريّةَ في المناطق والمجالات المختلفة، ووصلتْ ذروةَ التّعبير عن نفسها في مرحلة النضالات الجماهيريّة في أواخر التسعينيّات مع مواجهات أراضي الروحة وأمّ السحالي. وعندما انطلقت انتفاضةُ القدس والأقصى في أواخر أيلول ٢٠٠٠ عمّت الانتفاضةُ الجماهيرَ العربيّةَ الفلسطينيّةَ في النقب والمثلّث والجليل والمدن المختلطة، وشارك عشراتُ الآلاف من الجماهير في مواجهة قوات القمع والقتل. وقد توحّد التضامنُ الطبيعيّ مع معاناة الإخوة الفلسطينيين في الأراضي المحتلّة منذ العام ١٩٦٧ وخيبةِ الأمل من لاجدوى الأساليب الإصلاحيّة في مواجهة العنصريّة المتفشّية. كما ارتفعتْ وتيرةُ الغضب والرغبة في التحدّي أمام عنف الشرطة التي قتلتْ بدمٍ باردٍ ثلاثة عشر متظاهرًا وجرحت المئات. وقد استمرّت الانتفاضة في مناطق ٤٨ عشرة أيّام متتالية.

أما في أيّام عدوان تموز ٢٠٠٦ على لبنان فقد شهدْنا تجنّبَ الجماهير الفلسطينيّة للتحرّك السياسيّ الواسع أثناء الحرب، خوفًا من ردّ فعلٍ عنيفٍ من قِبل النظام. وكان المُنْفذَ المفضّلَ تحرّكٌ مشتركٌ مع مناهضي الحرب في الوسط اليهوديّ. ومن هنا الدورُ البارزُ للمظاهرات ضدّ الحرب في مدينة حيفا المختلطة، وهي مظاهراتٌ لم تتوقّفْ خلال كلّ أيّام العدوان؛ ومن هنا أيضًا المشاركةُ العربيّةُ المهمّة في مظاهرات تل أبيب مع القوى اليهوديّة غير الصهيونيّة.

كانت مظاهرات الألوف في تل أبيب في ٢٠٠٩/١/٣ تجسيدًا جديدًا للتحالف بين القوى المناهضة للصهيونيّة داخل المجتمع اليهوديّ والقوى الوطنيّة الفلسطينيّة.

فلسطينيو ٤٨ وحصار غزّة

حصار غزّة وَجد فلسطينيي ٤٨ غيرَ جاهزين لمواجهة الظرف التاريخيّ، خصوصًا بالنظر إلى الخلاف الفلسطينيّ ـ الفلسطينيّ من خارج سياق الصراع الرئيس مع الاحتلال، ومع اعتياد غالبيّة القيادات في مناطق ٤٨ الاكتفاءَ بدور الداعم لموقف حركة التحرّر الفلسطينيّة من دون محاولة التأثير والمشاركة في صياغة طريقها. كما أنّ العلاقات الهشّة، والمتوتّرةَ أحيانًا، بين قيادات الأحزاب المحليّة داخل تلك المناطق، والنابعة من الصراعات على مراكز القوى، شكّلتْ عائقًا إضافيًا أمام التحرّك الجماهيريّ، ومَنعتْ في حالاتٍ كثيرةٍ العملَ المشتركَ، وتسبّبتْ من ثم في ابتعاد غالبيّة الجماهير (وهي بالطبع غيرُ حزبيّة) عن ساحة العمل النضاليّ.

بعد مرور نصف سنة على فرض الحصار المشدّد على غزّة، تشكّل ائتلافٌ لكسر الحصار، وشارك في تشكيله كلٌّ من: الحركة الإسلاميّة بجناحيْها الشماليّ والجنوبيّ، والتجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ، وحركة أبناء البلد، وأحزاب أخرى، مع غيابٍ ملحوظٍ للحزب الشيوعيّ والجبهة الديمقراطيّة للسلام. وقام الائتلاف بأول مظاهرةٍ جماهيريّةٍ مشتركة في مدينة الناصرة في ٢٠٠٨/١/٥. ورغم أنّ قيادة الحزب الشيوعيّ كانت تتغزّل في ذلك الحين بقيادة السلطة الفلسطينيّة في رام الله وتطعن في شرعيّة سلطة حماس المنتخَبة، فقد رأينا من الممكن والضروريّ توحيدَ القوى الجماهيريّة حول مطلب كسر الحصار، وتمّ ذلك في أهمّ مراحل التضامن مع أهل غزّة خلال سنة ٢٠٠٨. وانطلقتْ عدّةُ فعّاليّات: مثل مسيرة أمّ الفحم الوحدويّة في الرابع من آذار، ومحاولة الانطلاق في سفينة التضامن لفلسطينيي ٤٨ من ميناء يافا في السابع من كانون الأول.

وسجّل الانشدادُ نحو التضامن المباشر مع أهالي غزّة في معاناتهم وصمودهم تطوّرًا ملحوظًا في الدور التاريخيّ لفلسطينيي ٤٨ تجاه القضيّة الفلسطينيّة. ففي الماضي كان هنالك مَن راهن على أنّ «عرب الداخل» سينخرطون كجزءٍ من النظام السياسيّ الإسرائيليّ ليشكّلوا وسيلةَ ضغطٍ على هذا النظام العنصريّ نحو «الحلّ السلميّ» للقضيّة الفلسطينيّة. لكنّ هذا النظام أثبت مجدّدًا أنه غيرُ قادر على الانصلاح، إذ رَفض على الدوام أيَّ دورٍ للعرب «المواطنين» في صياغة سياساته، واشتدّت عنصريّتُه وعنجهيّتُه في مناطق ٤٨ و٦٧. وكان ردُّ فعل فلسطينيي ٤٨ تطويرَ رؤيةٍ للصمود والصراع الطويل الأمد، ولأول مرّة تُستثمر هذه الرؤيةُ سياسيًا في التضامن مع غزّة المحاصرة من أجل تجاوز الموقف المتقوقع للفريق الفلسطينيّ الذي ما زال يراهن على «عمليّة السلام» الفارغة من أيّ مضمون.

لا أكتوبر ثانيًا

في سيناريوهات الحرب الإسرائيليّة يشكّل الرجوعُ إلى ما يشْبه انتفاضةَ أكتوبر ٢٠٠٠ في الداخل أحدَ عوامل الخطر، إلى جانب فتح جبهاتٍ عربيّةٍ على الحدود. وكانت مواجهاتُ انتفاضة القدس والأقصى في الداخل ـ خلافًا للوضع في المناطق

المحتلة منذ ٦٧ ـ ردّ فعلٍ جماهيريّاً عفويّاً لم يقف وراءه أيُّ تنظيم. وكان للقمع الدمويّ لحركة الاحتجاج، السلميّةِ في جوهرها، دورٌ أساسٌ في ازدياد وتيرة المواجهات، وصبَّ ذلك كلُّه في نشوء نوعٍ من الردع المتبادَل بين الجماهير والنظام.

منذ يوم ٢٠٠٨/١٢/٢٨، ومع انطلاق النظام العنصريّ في حملة المذابح والإبادة ضد أهالي غزّة المحاصرين، انطلق تحرّكُ جماهير ٤٨ الفلسطينية، مناشدين جماهيرَ العالم العربيّ، وكلَّ أحرار العالم، التحرّكَ لنجدة غزّة. وعمّ التحرّكُ الجماهيريّ كلَّ قرية ومدينة، وفي الكثير من المواقع سُجّلتْ أرقامٌ قياسيّةٌ من ناحية عدد المظاهرات وعدد المشاركين فيها. وشَهدتْ مدينةُ سخنين الجليليّة الصامدة في ٢٠٠٩/١/٣ أكبر مظاهرة جماهيريّة في مناطق ٤٨ منذ الاحتلال، وهي مظاهرةٌ دعت إليها لجنةُ المتابعة العربيّة التي تضمّ كلّ قيادات فلسطينيي ٤٨. وإذا كانت المظاهرات الجماهيريّة في الداخل تميّزتْ في الماضي بتباين الفرَق والأجندات، بحيث يتظاهر كلُّ تيّار دينيّ أو حزبيّ تحت أعلامه وشعاراته (وكانت «حركة أبناء البلد» تتميّز برفع أعلام فلسطين والشعارات الوطنية «الملتهبة»)، فإنّ مظاهرة سخنين الجبّارة سارت هذه المرّةَ كلّها تحت راية فلسطين ـ راية الحريّة على أرض الوطن ـ والأعلام السوداء، ونادت كلُّها بشعارات التمسّك بالوطن والصمود والعزم على الثورة على طريق التحرير، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ مظاهراتٍ حاشدةٍ أخرى في كلّ أنحاء البلاد.

في الأسبوع الثاني للعدوان، بعد أن بدأتْ قواتُ الاحتلال الاجتياحَ البرّيّ لأراضي قطاع غزّة، أخذ جهازُ الشرطة الصهيونيّة بمحاولة قمع المظاهرات من خلال تفريق بعضها بالقوة واعتقالِ مئات المتظاهرين وشنِّ حملةِ تحقيقٍ وتهديدٍ ضدّ الناشطين. وقد حاولت الشرطةُ إعادةَ توقيف المتظاهرين الذين أُطلق سراحُهم خلال الأسبوع الأول من العدوان وتمديدَ توقيفهم حتى انتهاء الإجراءات القانونيّة، الأمرُ الذي يعني إبقاءهم في المعتقلات أشهرًا طويلة، وكلُّ ذلك بهدف ردع الجماهير عن المشاركة في المظاهرات. وحتى كتابة هذه السطور تستمرّ المظاهراتُ الاحتجاجيّة، ونَسْمع عن مواجهاتٍ متفرّقةٍ هنا وهناك، بعيدًا عن المواجهة الشاملة. ولكننا نرى أنّ هنالك عمليّةً تراكميّةً قوامُها حركةُ الجماهير.

«معارضتان» للحرب داخل المجتمع اليهوديّ في فلسطين

في المجتمع الإسرائيليّ، تتميّز المرحلةُ الأولى من كلّ حربٍ جديدةٍ بانشداد الدعم الإعلاميّ والجماهيريّ إلى النظام؛ ولا تبدأ التساؤلاتُ والشكوكُ والمعارضةُ إلاّ بعد تراكم الخسائر بين الجنود واستمرار الحرب وفقدان آفاق المكسب السياسيّ. وهذا نمطٌ تحرّكٍ يميّز «مناهضي الحرب» من بين الصهاينة، الذين يرون مصلحتَهم من خلال المشروع الاستعماريّ العنصريّ، ويدركون أنه لا يمكن لهذا المشروع التقدّم إلاّ عن طريق الحروب والمذابح وردع الفلسطينيين والعرب عن المطالبة بحقوقهم. ونحن لا نعتبر هؤلاء «مناهضي حرب» أو «دعاةَ سلام» بل نعتبرهم «مناهضي فشل الحرب»... وفي أحسن الأحوال هم يحاولون تثبيتَ مكاسب الصهيونيّة من حروبها السابقة، وذلك عبْر التسويات السياسيّة.

لقد تسبّبتْ أزمةُ الصهيونيّة في تلاشي «معسكر السلام» الإسرائيليّ الذي كان يعتمد على إمكانيّة فرض شروط السلام على العرب من موقع القوة. وفي الوقت نفسه، وبالتحديد مع انتفاضة القدس والأقصى، تشكّلَ قطبٌ جديدٌ داخل المجتمع اليهوديّ من الناشطات والناشطين الديمقراطيين الذين لم يكونوا جزءًا من الإجماع الصهيونيّ بل اختاروا الانضمام إلى النضال التحرريّ الفلسطينيّ. ويشارك أنصارُ هذا التيّار ـ من حركة «تعايش» وحركة «تحرّريّون ضد الجدار» وغيرهم ـ في العديد من المظاهرات الشعبيّة ضدّ الاحتلال في الضفة الغربيّة، وكان لهم دورٌ أساس، إلى جانب الأحزاب العربيّة، في تنظيم الحركة المناهضة للحرب أيّامَ الهجوم الصهيوني على لبنان عام ٢٠٠٦. كما كانت مظاهرةُ الألوف في تل أبيب في ٢٠٠٩/١/٣ ضدّ مجازر الصهيونيّة في غزّة تجسيدًا جديدًا للتحالف بين القوى المناهضة للصهيونيّة داخل المجتمع اليهوديّ والقوى الوطنيّة الفلسطينيّة.

تشكّل مدينتُنا، حيفا، نموذجًا متقدّمًا لطرح بديلٍ من الصهيونيّة داخل المجتمع اليهوديّ، وله ميزتان هامّتان. أولاهما أنّ الحركات الوطنيّة الفلسطينيّة هي العمودُ الفقريّ لأيّ تحرّكٍ سياسيّ؛ وثانيتُهما أنّ التحرّك الديمقراطيّ بين الناشطين اليهود مكمِّلٌ للتحرك الفلسطينيّ لا منفصلٌ عنه. وقد تجسّد هذا النموذج وارتقى إلى مستوى البديل السياسيّ من خلال مؤتمر حيفا لأجل حقّ العودة والدولة العلمانيّة الديمقراطيّة في فلسطين، الذي تمّ عقدُه في ٢٠ ـ ٢٠٠٨/٦/٢١ بمبادرةٍ من «حركة أبناء البلد» وبمشاركةٍ واسعةٍ من ناشطاتٍ وناشطين من حركاتٍ وأحزابٍ عديدة، ومن المجتمع المدنيّ، ومن كلّ أنحاء العالم. ويستمرّ هذا التلاحم النضاليّ في المظاهرات ضدّ مجازر غزّة في شارع الجبل، وفي جميع الفعاليّات المناهضة للعدوان في حيفا.

لا شكّ في أنّ بشاعة العدوان الصهيونيّ، وصمودَ أهل غزّة، يمنحان دفعةً جديدةً لكلّ مناهضي الصهيونيّة، ويكْشفان أمام الكثيرين إفلاسَ الصهيونيّة الأخلاقيَّ والسياسيَّ، وضرورةَ الكفاح للتخلّص من هذا النظام الدمويّ.

حيفا (فلسطين)

يوآب بار

عضو المكتب السياسيّ لـ «حركة أبناء البلد» الفلسطينيّة (www.abnaa-elbalad.org)، ومن المبادرين إلى مؤتمر حيفا لأجل حقّ العودة والدولة الديمقراطيّة العلمانيّة في فلسطين (www.ror1state.org). والمقال مكتوب بالعربية خصّيصًا لـ الآداب. وقد اعتقل الكاتب في ٢٠٠٩/١/٦ بعد انتهاء اعتصام شارك في تنظيمه في شارع الجبل.

الحرب على غزّة: شظايا تأمّلات

□ سماح إدريس

إلى عينيْ لؤيْ صبح

يَعْجز القلم، وتَعْجز العين، عن متابعة الأحداث المتلاحقة في غزّة، منذ أن شنّ العدوُّ الصهيونيّ هجومَه عليها نهايةَ العام المنصرم. في ما يلي تعليقاتٌ على بعض ما شاهدتُ أو قرأتُ، يعْوزها التنظيمُ أحيانًا، وتكتسحُها العاطفةُ أحيانًا أخرى. وقد كتبتُها بين اليوم الرابع والرابع عشر من العدوان، أيْ عشيّةَ صدور قرار مجلس الأمن، آملاً في أن تساعدَني، وتساعدَ القارئَ، على استيعابِ ما يجري واتّخاذِ المواقف المناسبة.

المثقفون العرب ولومُ الضحيّة

عجبي من مثقفين وإعلاميين عرب يدينون حركةَ حماس ويحمّلونها، هي لا الاحتلالَ، مسؤوليّةَ ما يحْدث من تجويعٍ وحصارٍ أولاً، ومن تقتيلٍ ثانيًا. فماذا تقول لصحافيّ يكتب أنّ حماس «ورّطتْ مليون ونصفَ مليون فلسطينيّ بالتجويع منذ أشهر»؟[1] عبد الرحمن الراشد يتّهم حماس بأنها هي مَنْ جَوّع ويجوِّع أهلَ غزّة بعد فوزها بالانتخابات عام ٢٠٠٦. فكأنّه يريد من حماس، ومن أهل غزّة، الذين انتخبوها بكامل إرادتهم، وبحضور مراقبين دوليين، التسليمَ بالاحتلال... وإلاّ فليقاسوا الموتَ جوعًا! وهذا، لعَمري، هو المنطقُ الاستعماريُّ بامتياز، بدلاً من المنطق الذي ينتصرُ للعدل والحقّ. على أننا نسارع أيضًا إلى التذكير بأنّ حصارَ غزّة بدأ قبل فوز حماس؛[2] أيْ إنه لا علاقةَ بين فوز حماس والحصار الإسرائيليّ أصلاً، وإنما هدفُ الحصار إبقاءُ غزّة فقيرةً معدمةً، وكسرُ إرادة المقاومة.

ومن المثقفين مَن يُحمّلون قادةَ حماس، لا الجيشَ الإسرائيليّ والإدارةَ الأميركيّةَ الداعمةَ له، مسؤوليّةَ سقوط الضحايا الفلسطينيين اليوم، بسبب... قساوةِ قلوبهم وغلاظةِ إحساسهم. هكذا يتساءل علي ديوب متفجّعًا وملتاعًا إلى درجة عدم التمييز بين كم الاستفهاميّة وكم الخبريّة: «كم نهر [كذا] من الدم تحتاج عروقُكم الجافّة؟ كم موت [كذا] يكفيكم لكيْ تستيقظوا من موتكم؟ كم ضحيّة بريئة تستلزمها خطاياكم؟»[3]

ومن المثقفين مَنْ يقذفُ بمسؤوليّة الشهداء المدنيين الفلسطينيين على كاهل قادة حماس لأنّ هؤلاء... يعيشون بين الجماهير. كنّا نظنّ أنّ عيشَ القادة بين الجماهير، لا في فنادق النجوم الخمس، أمرٌ محمودٌ ومرغوب. ومع ذلك، فهل في غزّة اليوم (حيث تَقْطن أعلى كثافة سكّانيّة في العالم كما يقال) زوارقُ حبٍّ، أو مربّعاتٌ أمنيّة، أو مناطقُ محيَّدةٌ، تتيح لقادة حماس ألاّ يختلطوا بعامّة الناس؟! ألا يَعْلم أولئك المثقفون أنّ المقاومين «هم من أبناء الشعب، وليسوا جيشًا منفصلاً عنه في معسكرات،» وأنه من «الطبيعيّ أن يعيشوا بين صفوفه،» وإذا كان هذا صحيحًا في كلّ مكان، «فإنه في غزّة أمرٌ مسلَّمٌ به»؟[4]

لكنّ لوْمَ المثقفين «المعتدلين» الأشدَّ إنّما ينصبُّ على صواريخ القسّام؛ فهم يزعمون أنّ هذه الصواريخ هي التي سبّبت الحربَ الحاليّةَ على غزّة. هؤلاء أسمّيهم «مثقفي الذريعة» لأنهم لا يبْرعون إلاّ في تكرار لازمةٍ واحدةٍ، بلا ملل ولا كلل، وهي أنّ المقاومة تقدِّم الذريعةَ للعدوّ. فإذا اجتاحت إسرائيلُ لبنانَ في حزيران ١٩٨٢، فذلك لأنّ الفلسطينيين قَتلوا السفيرَ الإسرائيليّ في بريطانيا قبل أيّام من ذلك الاجتياح (تبيَّن لاحقًا أنه لم يمت). وإذا شنّتْ إسرائيل الاعتداءاتِ على الفلسطينيين عامَ ٢٠٠٠ وما بعدَه، فلأنّ عرفات قدّم لها الذريعةَ حين رَفض الانصياعَ للعرض

١ ـ عبد الرحمن الراشد، **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٨/١٢/٢٩.

٢ ـ Norman Finkelstein, A Debate with Martin Indyk on Democracy Now (with Amy Goodman), Jan 8, 2009.

٣ ـ جريدة **المستقبل**، ٢٠٠٩/١/٤.

٤ ـ عزمي بشارة، **الجزيرة نت**، ٢٠٠٩/١/١.

«السخيّ» في كامپ دايڤيد ٢ (تبيَّنَ لاحقًا أنه وافق على بنودٍ كثيرةٍ أخرى ورفض ما يخصّ القدسَ والأقصى تحديدًا).[١] وإذا غزَتِ الولاياتُ المتحدةُ العراقَ عامَ ٢٠٠٣، فذلك لأنّ صدّامًا قدَّم لها الذريعةَ حين لم يَسْمحْ لها بالتفتيش عن أسلحة دماره الشامل ومصادرتها (تبيَّنَ لاحقًا أنه لم يمتلكْ أيّاً منها). وإذا اعتدت إسرائيلُ على لبنان ودمّرتْه خلال ٣٣ يومًا من صيف ٢٠٠٦، فذلك لأنّ حزبَ الله أسَرَ جنديَيْن إسرائيليَيْن (ليبادلَ بهم أسرى لبنانيين يَقْبعون منذ عقود في الزنازين الإسرائيليّة). مثقّفو الذريعة منتشرون في أكثر المنابر الصحفيّة والإعلاميّة العربيّة، ولاسيّما في صحيفتَي **الشرق الأوسط** (عبد الرحمن الراشد، علي سالم، طارق الحميد،...) و**الحياة** (حازم صاغيّة،...)، وجرائد ثورة الأرز ومواقعها الإلكترونيّة (**النهار**، ليبانون ناو،...) في لبنان. هؤلاء المثقفون إمّا نسُوا تاريخَ الصهيونيّة في بلادنا، بل تاريخَ الإمبرياليّة في العالم، وإمّا يتناسوْن ما طالعوه طوال سنوات، من أجل صبّ جام غضبهم على حركة حماس وصواريخِها والمحورِ السوريّ ـ الإيرانيّ. هؤلاء نسُوا أنّ القوّةَ **تَخْلقُ** الذريعةَ دومًا، ويتناسوْن أبدًا أنّ الأحداثَ التي تلت عمليّاتِ الغزو والاحتلال تُظْهر أنّ الغزاةَ أعدّوا العدّةَ لعملهم قبل زمنٍ طويل. فمثلاً، تنقل صحيفةُ **هاارتس** عن وزير الدفاع الإسرائيليّ إيهود باراك في عددها الصادر في ٢٠٠٨/٣/١ أنه يفكّر في غزو غزّة؛ وكان ذلك منذ عشرة شهور! واعترفتْ إسرائيل بأنها كانت تخطّط لغزو لبنان عامَ ٢٠٠٦ قبل تموّز بشهور، بصرف النظر عن أسْر الجنديَيْن الإسرائيليَيْن (بل لعلّ «ذريعةَ» الأسْر جَنّبتْ حزبَ الله فعلاً ضربةً مفاجئةً لم تستطع حركةُ حماس أن تتجنّبَها للأسف حين اغتال العدوُّ، في نهاية العام ٢٠٠٨، ١٣٠ شرطيّاً بضربةٍ غادرة). كما تتحدّث مقالاتٌ رصينةٌ عن أنّ إسرائيل نفسَها كانت تجنِّد عملاءَها للهجوم على أحياء اليهود ومعابدِهم (في العراق نهايةَ الأربعينيّات مثلاً) من أجل دفعهم إلى الهجرة إلى «أرض الميعاد» أو لتسويغ اعتداءاتها اللاحقة على العرب.[٢]

الطريف أنّ حجّةَ هؤلاء المثقفين للمطالبة بوقف صواريخ القسّام هي أنها... «عبثيّة» و«استعراضيّة»،[٣] خلافًا للصواريخ الإسرائيليّة والأميركيّة، التي لم تحظَ بمثل اهتمامهم وهجائهم. وقد يخال المرءُ أنّ أولئك المثقفين يطالبون المقاومةَ الفلسطينيّةَ بامتلاك أسلحة **أنجعَ** وأقلَّ عبثيّةً واستعراضيّةً. وفي هذه الحال فإنّ على الراشد وأضرابِه أن يختاروا حلاً من اثنيْن: إمّا أن يَدْعوا الأنظمةَ التي يؤيّدونها ويعملون في منابرها (ولاسيّما السعوديّة والكويت) إلى تزويد المقاومة الفلسطينيّة (وهي سُنّية، أيْ لا تدْخل، والحمدُ لله، ضمن الهلال الشيعيّ الكريه) بأسلحةٍ تفْتك بالمعتدين الإسرائيليين؛ وإما أن يطالبوا المقاومةَ بترسيخ تحالفها مع إيران وسوريا وسائر محور الشرّ كيْ تحصلَ منها على شهاب ١٠ وفجر ٢٠ وبدر ٣٠ وزلزال ٤٠.. وربما المهدي إنفينيتي. فالاستسلامُ ليس حلاً مقبولاً أمام مَنْ يرفض الاحتلالَ، و«السلامُ» الذي صنعتْه سلطةُ أوسلو لم يأتِ بشيءٍ على ما سنَذْكر.

وفي هذا الصدد لا بدّ من التوقّف عند سببٍ آخر يقدّمه بعضُ المثقفين العرب لإدانة الضحيّة، وهي هنا حركةُ حماس (وقبلها حزبُ الله ـ لا الأنظمةُ الوهّابيّةُ مثلاً، ويا لَلغرابة): إنه عقيدتُها الدينيّة «المتطرّفة» و«إيمانُها بالغيْب.» ولكنْ ألم يحدثْ قبل أعوام أمرٌ شبيهٌ، وإنْ بدرجاتٍ أقلَّ هولاً، مع ياسر عرفات، المعتدل، اللاغيْبيّ، ملِكِ العقلانيّة وفنِّ الممكن، بحسب مثقفي الذريعة؟ أكانت إسرائيل ستُحْجم عن تدمير غزّة لو كانت تحت سلطة قوًى «غير غيبيّة» مثل «فتح» أو «فدا»... إلاّ إذا تحوّلتا إلى كتيبةٍ تَعْمل عند دحلان بأوامر دايتون؟

حركةُ حماس فصيلٌ إسلاميٌّ مقاوم، قد لا نطيق إيديولوجيّتَه الدينيّةَ ولا مواقفَه من المرأة أو الثقافةِ أو الفنّ. مَنْ يذكر، مثلاً، كيف مَنعتْ وزارةُ الثقافة الحمساويّة كتابَ **قولْ يا طير** بحجّة تضمُّنه عباراتٍ وكلماتٍ (مثل «بزّ») «تخْدش» الحياءَ، مع أنه من عيون التراث الشعبيّ الفلسطينيّ؟[٤] ومَنْ منّا يدافع عن غياب مظاهر أساسيّة من مظاهر الثقافة والفنّ في غزّةَ قبل العدوان الحاليّ، بل قبل سريان الحصار الفعليّ؟ علينا ألاّ نَسْكتَ عن أيّ مسٍّ بالحريّات، أيّاً كانت الذرائع، إنْ كنّا نؤْمن بأنّ النضالَ الوطنيّ يَهْدف أيضًا، وربّما في المقام الأول، إلى تحقيق حريّة الفرد الحقيقيّة (يجْدر التنويهُ إلى أنّ ذلك ليس من بين أسباب انتقاد الأنظمة «الإسلامويّة» العربيّة لحماس). ولكنّ حركة حماس انتُخبتْ ديمقراطيّاً عامَ ٢٠٠٦؛ بل لعلّها الحكومةُ العربيّةُ الوحيدةُ المنتخَبةُ ديمقراطيّاً في عالمنا العربيّ اليوم! وهذا يعني أنّ غالبيّة الشعب الفلسطينيّ في مناطق ٦٧، لا حماسَ وحدها، هي التي قرّرت المقاومة، وهي التي قرّرتْ معاقبةَ نهج اوسلو وسلطته وفسادِه. إنّ غالبيّةَ الشعب الفلسطينيّ في تلك المناطق، لا حركةَ حماس وحدها، هي التي قرّرتْ أنّ المفاوضات لم تؤدِّ إلى شيء، بل تضاعفت المستوطناتُ، وازداد تهويدُ القدس، ولم تتوقّف الاعتقالاتُ ولا الاغتيالاتُ، طوال فترات المفاوضات مع العدوّ. حماس، أيّاً ما

---

١ ـ تقول تانيا رينهارت إنه لا يمْكن أحدًا، وإنْ كان متعاونًا مع الاحتلال، أن يرضى بالتخلّي عن الأماكن المقدّسة. ويرى تشومسكي أنّ الأنظمة العربيّة ما كانت ستغضّ الطرفَ عن هذه المسألة الدينيّة الحسّاسة خوفًا من غضبة جماهيرها. راجع:

Znet Commentry, 2/10/2000; **Al-Ahram Weekly Online**, 2-8/11/2000.

٢ ـ أنظر: شرون قومش، «صِدامُ العرب اليهود بالصهيونيّة،» ترجمة سماح إدريس، مجلة الآداب ٧-٢٠٠٨/٩.

٣ ـ اقرأْ مثلاً عبد الرحمن الراشد، **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٨/١٢/٣٠.

٤ ـ تراجعت الوزارةُ عن قرارها تحت الضغط الشعبيّ، بل نَفَتْ أن تكون قد اتّخذته أصلاً!

أبو مازن يقمع المتظاهرين في الضفّة رغم أنّ (أمْ **لأنْ**؟) اندلاعَ انتفاضةٍ جديدةٍ هناك سيكون أبرز دعم لغزّة.

كان بغضّنا للإخوان المسلمين، حركةٌ معاديةٌ لإسرائيل، وهي تُقصف وتُذبح **لأنّها** كذلك. ولو ارتضتِ الإسلامَ المعتدلَ (إقرأْ: الموالي لأميركا) أو اليسارَ الليبراليّ (إقرأْ: يسارَ الديكور)، لكانت اليومَ في محور الخيْر، إلى جانب كرزاي وعبدالله ١ وعبدالله ٢ والطالباني.

عن الوحدة الوطنيّة الفلسطينيّة

الوحدة الوطنيّة الفلسطينيّة؟ طبعًا! ولكنْ أيّة وحدة؟

الواضح أنّ غزوَ غزّة تمّ بمعرفة سلطة عبّاس (أو تواطُئها، واللهُ أعلم). والواضح أنّ أبا مازن يَعتقل الآن المئات من عناصر حماس وحركة الجهاد الإسلاميّ، ولم يُعلنْ وقفَ المفاوضات مع الجزّار الإسرائيليّ. والأسوأ أنّه اليوم يَقمع المتظاهرين في بيرزيت وبيت لحم ورام الله والخليل ونابلس، رغم أنّ (أمْ **لأنْ**؟) اندلاعَ انتفاضةٍ جديدةٍ في الضفّة سيكون أبرزَ دعمٍ لأهل غزّة. وفي هذا الصدد يكتب د. عبد الستّار قاسم منتقدًا سلطةَ عبّاس، أو مَنْ أسماهم «أعوانَ دايتون» ما يلي:

«أشدُّ ما تقشعرّ له الأبدانُ أنّ أكبرَ مظاهرةٍ فلسطينيّةٍ كانت في الأرض المحتلّة عامَ ٤٨، في حين أنّ أصغرَ مظاهرةٍ كانت في نابلس، كبرى مدن الضفّة الغربيّة التي تحْكمها سلطةٌ فلسطينيّة! فلقد خرجتْ مظاهرةٌ سخنين تتحدّى الصهاينة؛ بينما أحاطت أجهزةُ الأمن الفلسطينيّة بمظاهرة نابلس... فهل إسرائيل أحرصُ على حريّة شعب فلسطين من سلطة رام الله؟!»[١]

أفكّر وأنا أقرأ خبرَ قمع عبّاس للمتظاهرين: لم يَقتلِ الثورةَ الفلسطينيّةَ والوحدةَ الوطنيّةَ الفلسطينيّةَ مثلُ هذه السلطةِ العرجاء. عرفات استجاب معظمَ مطالب إسرائيل، ولكنّه حوصر ومات (مسمومًا ربّما). وعبّاس فشل، رغم اجتماعاته المتكرّرة مع أولمرت، في إزالة أيٍّ من الحواجز الإسرائيليّة الـ ٦٤٠، أو تفكيكِ أيٍّ من المستوطنات. إدوارد سعيد كان على حقّ في ما كتبه عن سلطة أوسلو. سلطة أوسلو، القادمة من تونس، هي التي قتلت الانتفاضةَ الأولى (أحدَ أعظم الإنجازات الشعبيّة العالميّة، لا العربيّة فقط). وسلطةُ أوسلو هي أهمُّ ما أنجزتْه إسرائيلُ منذ تأسيسها، لأنّ العدوّ ضَمِنَ من خلالها تخلّي منظمة التحرير عن ٧٨٪ من فلسطين مقابلَ «مظاهر» دولةٍ على أقلّ من ٢٢٪ منها وتأجيلِ (إقرأْ: إلغاء) حقّ العودة لملايين الفلسطينيين في المَهاجر. ولقد حَوّلتْ أوسلو منظمةَ التحرير من حركة تحرّرٍ إلى سلطةٍ تَقْمع شعبَها لقاءَ وهْم السيادة والاستقلال. ليْت سلطةَ أوسلو (أكان الشهيد سمير قصير سيتساءل، وهو يرى تطويقَ التظاهرات في الضفّة، «عسكر على مين»؟)، وليْت حكومةَ حماس (أين هي هذه الحكومة؟)، تَحلاّن نفسيْهما وتُعلنان أنّ فلسطين محتلّةٌ من أقصاها إلى أقصاها. ليْت منظمةَ التحرير تعود إلى الوجود، ولكنْ بعد إصلاحها إصلاحًا جذريّاً، لا محاصصاتيّاً، فتعبّئ شعبَها وفق برنامجٍ جديدٍ على درب انتفاضةٍ ثالثة.

١ ـ مقال وُزّع على الإنترنت، ٢٠٠٩/١/٤. الجدير ذكرُه أنّه في ٢٠٠٩/١/٢٣، أيْ بعد كتابة هذا المقال، تمّ تفجيرُ سيّارة قاسم في نابلس.

ولكنْ هل سلطةُ أوسلو راغبةٌ في ذلك؟ يبدو أنّ ثمة تململاً داخل حركة فتح من سياسة السلطة. فها هو قدّورة فارس مثلا يصرّح بأنّه طوال ١٨ عامًا كان جزءًا من العمليّة السلميّة مع إسرائيل «ولكنْ ماذا كسبنا؟ المزيدَ من المستوطنات، والمزيدَ من أعمال الحفر تحت المسجد الأقصى، والمزيدَ من السجناء الفلسطينيين؟!... إنّ إسرائيل تريد إلحاقَ المهانة والذلّ بالشعب الفلسطينيّ.»[١] نبيل شعث نفسُه تحدّث قبل أيّام، على قناة الجزيرة، بنبرةٍ مناقضةٍ لنبرته السابقة حين كان مايزال أحدَ زعماء التفاوض العبثيّ. أما عبّاس زكي في لبنان، فلم نعد نعْرفُ ما يميّز خطابَه من خطاب أسامة حمدان، ممثّلِ حماس، رغم أننا قبل عام، أثناء معارك نهر البارد، لم نكن نميّز خطابَه من خطاب... فؤاد السنيورة. الأمرُ الجيّدُ في هذا المجال (ورُبَّ ضارّةٍ نافعة)، إذنْ، هو أنّ جزءًا من «فتح» يتململ؛ فلقد وضعت الحربُ على غزّة حركةَ فتح «على المحكّ... فإمّا أن تشتبكَ مع العدوّ أو تنتهي!»[٢]

الوحدة الوطنيّة الفلسطينيّة؟ عال! ولكنّ الكلمة المفتاح هنا هي «الوطنيّة» لا «الوحدة.» فليست كلُّ وحدة، بعُجَرِها وبُجَرِها، مرغوبًا فيها، خلافًا لما يعِظ رجالُ أديانِنا أيّامَ الجمعة والأحد، وإنما الوحدة المطلوبة هي تلك الموجَّهةُ إلى العدوّ الإسرائيليّ ـ الأميركيّ ومشاريع الشرق الأوسط الجديد: إنها الوحدةُ المبنيّةُ على أساس التخلّي عن وهْم «الدولة» وبريقِ «السلطة،» والإعدادِ لبرنامج يزاوج بين مختلف أشكال المقاومة. فإذا كان الكفاحُ المسلّح متعذّرًا في هذه المرحلة، فعلى منظّمة التحرير أن تضع برنامجًا للمقاومة الشعبيّة: انتفاضة داخليّة، عصيان مدنيّ شامل، العمل في صفوف الجاليات العربيّة وأنصار المقاومة في العالم على مقاطعة إسرائيل وسحبِ الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها. أما المساعي الديبلوماسيّة، فإنْ كان لا بدّ منها، فلكيْ تعزِّز المقاومةَ، لا لتكون بديلاً منها. وللحديث في هذا الموضوع صلة.

مصر: الشعب والنّظام

مَنْ يراقبْ تظاهراتِ الشعب المصريّ يحسّ بأنْ لا شعبَ في العالم يَشْعر هذه الأيّامَ بمثل الذلّ والإهانة اللذيْن يشعر بهما شعبُ مصر. لم أشهدْ حرقةً في العيون، ولا غصّةً في الحناجر، كحرقة المصريين وغصّتِهم في هذه اللحظات. إنهم يحسّون بأنهم مشاركون في حصار أطفال غزّة، ويحاولون ـ بدمعهم وصراخهم ـ أن يقولوا إنّ مبارك ليس منهم، وإنهم مستاؤون منه، وإنهم عاجزون عن فتح معبر رفح، وإنّ محاولات الشوفينيين المصريين (من أمثال الوزير أحمد أبي الغيط) لن تدفعَهم إلى اعتبار تظاهراتنا أمام السفارات المصريّة في بيروت ودمشق والرباط... عملاً ضدّ مصر وشعب مصر.

آلافُ المصريين اليوم يَشْتبهون في ما بات يَشْتبه به ملايينُ الناس: أنّ رئيسَ الاستخبارات المصريّة السيّد عمر سليمان ضَلّل حركةَ حماس حين «طمأنها،» قبيْل الضربة الجويّة الإسرائيليّة التي أوْدت بحياة ١٣٠ شرطيّاً فلسطينيّاً، أنّ إسرائيل لن تعتدي. آلافُ المصريين اليوم لن يُقْنعَهم عبد الرحمن الراشد حين يزعم أنّ «حماس لا تريد أن تتحمّل مسؤوليّة الكارثة» التي حلّت على غزّة «فوَجَدتْ أنّ الهجومَ على مصر خيرُ سياسةٍ دفاعيّة،» وذلك «في إطار معركةٍ مستمرّةٍ منذ أشهر من قِبل حلف سوريّة وإيران ضدّ مصر!»[٣] آلافُ المصريين اليوم لا يصدّقون ما كتبه الزميل جورج ناصيف من أنّ مصر، رغم رفضها فتحَ رفح، «تبقى مصرَ»، وأنّ «جهادَها التاريخيّ في نصرة فلسطين محفورٌ في الذاكرة»[٤]؛ فهم يعْلمون أنّ إحدى مصائب الفلسطينيين الكبرى بدأتْ في كامب دايڤيد وفي انسحاب مصر الرسميّة من التزاماتها العربيّة الطبيعيّة تجاه لبنان وفلسطين والسودان والعراق.

في خضمّ التواطؤ الرسميّ المصريّ تَصْدح أصواتُ مثقفي مصر الشرفاء. تقرأ بيانَ «اللجنة المصريّة لمناهضة الاستعمار والصهيونيّة» فيلْفتكَ ـ إلى جانب المطالبة بوقف كلّ أشكال التطبيع، ووقفِ تصدير الغاز والبترول إلى إسرائيل، وطردِ السفيريْن الصهيونييْن من القاهرة وعمّان، وسحبِ السفيريْن المصريّ والأردنيّ من الكيان الصهيونيّ ـ تسفيهُ اللجنة لحجّة نظام مبارك بعدم فتح معبر رفح، ألا وهي التزامُه بعودة المراقبين الدوليين وسلطةِ عبّاس إلى ذلك المعبر. وتتساءل: إنْ كان هذا «الالتزامُ» أقوى من التزامه العربيّ والإنسانيّ، أفيكون أقوى من التزامه بالأمن الوطنيّ المصريّ نفسِه على أساس أنّ غزّة ركنٌ أساسيٌّ في هذا الأمن؟ ثم تتذكّر أنّ الأردن وسوريا استقبلا ملايينَ العراقيين في السنوات الأخيرة، وأنّ باكستان شَرّعتْ حدودَها أمام أكثر من مليونيْ أفغانيّ، وأنّ السودان استوعب أكثرَ من أربعة ملايين أريتريّ وأثيوبيّ وأوغنديّ.[٥] ثم تنظر إلى موقف تركيا ـ تركيا غيرِ العربيّة، بل تركيا الطامحةِ إلى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبيّ ـ وتتساءل من جديد: أيُعقل أن تشنّ مصرُ العربيّةُ الرسميّةُ هجومًا على حماس وتغلقَ المعبرَ العربيَّ الوحيدَ أمام الفلسطينيين، في حين تتخطّى تركيا ارتباطاتِها بإسرائيل ليعلنَ رئيسُ وزرائها انحيازَه إلى أهل غزّة واعتبارَه ما يجري ضدّها بقعةً سوداءَ في تاريخ اليهود والبشريّة؟ أيُعقل أن يَطردَ رئيسُ فنزويلا السفيرَ

---

١ ـ في برنامج «الحدث»، محطّة أل. بي. سي، ٢٠٠٩/١/٣.

٢ ـ زكريّا محمد، **منتديات الجزيرة توك**، ٢٠٠٩/١/٩.

٣ ـ جريدة **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٨/١٢/٢٩.

٤ ـ جريدة **النهار**، ٢٠٠٩/١/٤.

٥ ـ عبد الباري عطوان، صحيفة **القدس العربيّ**، ٢٠٠٩/١/٧.

أيُعقل أن يَطْرد شافيز السفيرَ الإسرائيليّ من بلاده، في حين يحتفظ نظامُ مصر بسفير إسرائيل في قلب القاهرة؟

الإسرائيليّ من بلاده، في حين يحتفظ نظامُ مصر بسفير إسرائيل في قلب القاهرة ويَعتقل مئاتِ المتظاهرين المطالبين بطرده؟ حقّاً، لقد صَدَقَ غسّان كنفاني حين كتب في **عائد إلى حيفا**: «إننا حين نقفُ مع الإنسان، فذلك شيءٌ لا علاقةَ له بالدم واللحم وتذاكرِ الهويّة وجوازاتِ السفر»!

غير أنّ اللجنة المذكورة ليست وحدها في موقفها ذاك. فهناك مروحةٌ واسعةٌ من المثقّفين الذين يشرّفون مصرَ الآن، ويزيلون وصمةَ العار التي أَلْحَقَها بها نظامُها. وها قد صدر بيانٌ في ٢٠٠٨/١٢/٢٩ وقّعتْه خيرةُ مثقّفي مصر وإعلاميّيها وناشطيها وفنّانيها، ومن بينهم بهاء طاهر وصُنْع الله إبراهيم ومحسنة توفيق وطارق البِشْري وحمدي قنديل وفهمي هويْدي ورضوى عاشور وفتحيّة العسّال وأحمد بهاء الدين شعبان وأحمد الخميسي وسيّد بحراوي وأشرف بيّومي وجمال فهمي ومحمد السعيد إدريس وأمين إسكندر وأبو العُلا ماضي، وفيه يعلنون الأهدافَ نفسَها التي رأيناها في بيان اللجنة أعلاه، فضلاً عن «تأييدهم القويّ والصلب للمقاومة الفلسطينيّة الباسلة.» الموقّعون، وغالبيّتُهم الساحقةُ من اليسار القوميّ («الخشبيّ» بلغة يسارِ الحريرِ والديكور اليوم)، لم يغلّبوا نزعاتِهم الإيديولوجيّةَ على مصالح الأمّة وفلسطين، فلم يُحْجِموا عن دعم حماس رغم خلاف أكثرهم مع توجّهاتها الدينيّة.

وإلى جانب البيانيْن جَهَرَ صحافيّون مصريّون لامعون بمعارضتهم لموقف مصر عبر افتتاحيّات صحفهم. فأعرب عبدالله السنّاوي في جريدة **العربي** عن عدم اقتناعه بأنّ النظام المصريّ غيرُ متورّط في «توفير غطاءٍ عربيّ للعدوان» منذ أن أَطلقتْ وزيرةُ الخارجيّة الإسرائيليّة ليڤني، قبل ثلاثة أيّامٍ من بدء العدوان على غزّة، ومن فوق منصّة قصر الرئاسة المصريّة بالذات، تهديداتِها ضدّ حماس. وذهب عبد الحليم قنديل إلى تأكيد «اشتراك» النظام المصريّ في الحرب، متّهمًا مبارك بأنه «يذلّ مصرَ ويُهينها ويدوسُها بنعال الأمن المركزيّ،» وواصفًا أبا الغيط ـ وهو إلى جوار ليڤني حين هَدّدتْ حماس ـ بـ «الأرنب المبلول»! ولا يملك المرء إلاّ أن يزهو بشجاعة هذا الصحافيّ الكبير، الذي سبق لرجال النظام أن خطفوه، وعرّوْه من ملابسه (على ما سمعتُ) إمعانًا في إهانته كما توهّموا، ورموْا به في الصحراء، عقابًا له على مجاهرته بمعارضة مبارك ومعارضة عزمِه توريثَ ابنه الحكْمَ!

والحقّ أنّ أمام مثقفي مصر ومناضليها مهمّةً صعبةً لا تقتصر على مواجهة النظام وأجهزته البوليسيّة، بل تمتدّ إلى مواجهة عددٍ لا يستهان به من مثقّفي مصر الآخرين. فلقد تجنّد إلى جانب النظام المذكور مثقفون وكتّابٌ متسعودون ومتخلجنون ومطبّعون ويساريّون/قوميّون سابقون، أشدُّهم تزويرًا للحقائق: المطبِّعُ الأكبر علي سالم. وإلاّ فماذا تقول عن زعمه أنّ سببَ هجوم حماس على

النظام المصريّ هو أنّ قادتَها «يَعتبرون مصرَ أرضًا فلسطينيّةً يجب تحريرُها من الفلسطينيين»؟![1] والمؤسف أن يدافع كاتبٌ يساريٌّ سابقٌ بمستوى صلاح عيسى عن أبي الغيط (في برنامج «البيت بيتك» على الفضائيّة المصريّة) إلى حدٍّ يقارب التماهي مع جليسه محمد بسيوني، السفيرِ المصريّ السابقِ في... تل أبيب.[2] ولكنْ حين تصبح «الحداثةُ» و«بناءُ الدولة» هدفًا مقدَّسًا في ذاته، يفوق هدفَ التحرير ومقاومةِ الاحتلال، بدلاً من أن يتوازى معه (ولا نقول يتخطّاه)، فماذا سنتوقّع إلاّ نُسَخًا مصريّةً معدَّلةً ومنقّحةً أحيانًا من إلياس عطاالله (اللبنانيّ) وفخري كريم (العراقيّ)؟ أمّا عادل إمام، الذي كان قد دان وجودَ السفارة الإسرائيليّة في قلب القاهرة، وذلك في فيلمه الشهير «السفارة في العمارة،» فقد استنكر التظاهراتِ والإضراباتِ لأنها «تُضرّ باقتصاد بلادنا،» وانتقد شعارات «بالروح بالدم نفديكِ يا فلسطين.»[3] وكلُّ ذلك كان سيبدو أمورًا قابلةً للنقاش لو قَدّم السيّد إمام بديلاً لفلسطينيّي غزّة غيرَ الاستسلام، ولو لم يَعطفْ كلامَه ذاك على لوْم القيادات الفلسطينيّة لأنها لم تأخذْ «تحذيرَ» القيادات المصريّة من الهجمات الإسرائيليّة على محمل الجدّ، ولو أنّه ـ على الأقلّ ـ طالب بفتح معبر رفح أو... بإغلاقِ السفارة في العمارة!

التظاهرات العربيّة اليوم

وما دمنا قد ذكرنا انتقادَ عادل إمام للتظاهرات، فلنتجرّأْ على الاعتراف، ولكنْ من منطلق تأييدها والمشاركة فيها على الدوام، بأنّ معظمَها يعْوزها الإبداعُ. الهتافاتُ نفسُها. الشعاراتُ نفسُها. اليافطاتُ نفسُها. لكننا، مع ذلك، نشاركُ فيها. أحيانًا على مضض، وأحيانًا بحماس. على مضض؟ لأننا سئمنا ترددَ القديم منذ عشرات السنين. وبحماس؟ حسنًا، لأننا نحنّ إلى القديم! ذلكم تناقضٌ لا بدّ أن يَشْعر به كلُّ مَنْ تخطّى الأربعين مثلي وشارك في التظاهرات منذ عام ١٩٧٣ (تظاهرتي الأولى حصلتْ أمام مستشفى البربير، وكنتُ في الحادية عشرة من عمري، وكان شعارُها الأبرز: «سحقًا سحقًا بالصُّبّاطْ للّي فكّوا الارتباطْ!». أكان منتظر الزيْدي بيننا، أو في مظاهرةٍ شبيهةٍ في بغداد؟).

التظاهرة ليست مجرّدَ فشّة خلق أو تنفيسٍ عن مشاعرَ محتقنة. إنها، قبل كلّ شيء، كسرٌ لجدار الخوف الذي فرضه النظامُ الرسميُّ العربيُّ علينا، إلاّ حين يكون هو مَنْ نظّمها (ومع ذلك، فإنّ بالإمكان، في هذه الحالة نفسها، «تسريبَ» بعض الرسائل المعارضة، بفضل الاحتشاد وفورةِ العواطف). والتظاهرة هي التعبيرُ الجماعيُّ الأوسعُ عن آراء الناس حين تغيب الانتخاباتُ النزيهةُ وتغدو البرلماناتُ العربيّةُ نسخةً عن السلطات الحاكمة. والأهمّ أنّ التظاهرة فرصةٌ متجدّدةٌ للتضامن الشعبيّ وراء أهدافٍ محدّدة.

التظاهرة في الوطن العربيّ والعالم الإسلامي، اليومَ، عنوانُها فلسطين والمقاومةُ الفلسطينيّة. لكنّ ذلك ليس إلا العنوانَ الظاهر؛ فخلفَه عناوينُ مبعثرةٌ أخرى: شتمُ الرئيس، شتمُ البوليس، شتمُ الفساد، شتمُ التخاذل، شتمُ الأنظمة القُطْريّة التي تبيع «القضيّةَ» كي تبقى على الكرسيّ. أفكّر في ذلك وأنا أسير وأشتم النظامَ الفلانيّ والرئيسَ العلاّنيّ. أتذكّر مقالَ أنسي الحاجّ: «الحرّية هي فعْلُ النفس المتأمّلة، لا تنفيسُ احتقانِ الشارع. الصراخ تغطيةٌ لا تصريحٌ، والصارخون أقلُّ توجّعًا من الجالسين وحدهم في عذابهم، وأقلُّ صدقًا، وأقلُّ جدوى.»[4] أهذا ما يظنّ شاعرُنا أننا، معشرَ المتظاهرين، نَفْعله: نصْرخ، وننفّس عن احتقاننا؟ أيظنّنا أقلّ توجّعًا من صاحب «النفس المتأمّلة» (ولا أتحدّث، فقط، عمّن أُغمي عليه ودخل المستشفى جرّاءَ تنشّق الغاز المسيِّل للدموع كما حدث مع رفيقي د. هشام البستاني قبل أيّام في عمّان، ولا عمّن جُرح أو كُسرتْ ضلوعُه، أو سُجِنَ وأُهينَ، وما بَدّلَ تبديلاً)؟ أيريد مِن كلّ هذه الملايين في العالم أن تجلسَ في بيوتها وتمارسَ «فعلَ النفس المتأمّلة» إزاء مصير الفلسطينيين ليكون فعلُها أكثرَ «جدوى»؟ أكنّا سنكون أسعدَ وأقوى في صيف ٢٠٠٦، مثلاً، لو بقي العالمُ في بيته يمارس «فعلَ النفس المتأمّلة»؟ ألا يعتقد أنّ التظاهرات في العالم تُرْسِل، على أقلّ تقدير، رسائلَ متنوّعةَ الدلالات إلى أنظمتها، وإلى إسرائيل، وإلى الشعب الفلسطينيّ؟ ألم تؤثّر التظاهراتُ في العالم في سقوط نظام الأپارتهايد في جنوب أفريقيا، والاستعمار الفرنسيّ في الجزائر مثلاً، إلى جانب أساليبَ أخرى كالعمل المسلّح؟ كيف غاب كلُّ ذلك عن بال شاعرٍ كبيرٍ مثل الحاجّ يشْعر بأدقّ اختلاجاتِ الروح والجسد؟ كيف يذمّ المظاهرات، وحين يجامل المتظاهرين فبشكلٍ أبويّ فوقيّ من قبيل: «من المؤكّد أنّ بين الصارخين صادقين لا يَعْرفون غيرَ هذه اللغة وسيلةً للتعبير»؟ مَنْ يُبلغ أنسي الحاجّ أنّ مِنْ بين الصارخين مَن يعْرف لغاتٍ كثيرةً، بما فيها لغةُ الشعر؟ ومَنْ ينْبِئه بأنّ الانتصارَ للعدالة قد لا يحتاج إلى أيّة «لغةٍ» بالمفهوم النخبويّ المتعارَفِ عليه؟

ومع ذلك، فإنّ أنسي قد يكون على جانبٍ من الصواب لو اقتصرت التظاهراتُ على الهتاف والشتم مثلاً (ألاحظتم كم مرةً وردتْ كلمة «شَتْم» في مطلع المقطع السابق؟). إنّ أهميّة التظاهرات، من حيث فائدتها العمليّة، هي في كونها جزءًا من

---

١ ـ صحيفة **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٨/١٢/٣١.

٢ ـ راجع: جبريل محمد، موقع **كنعان**، ٢٠٠٩/١/٣.

٣ ـ جريدة **المصريّ اليوم**، ٢٠٠٨/١٢/٣٠.

٤ ـ **الأخبار**، ٢٠٠٩/١/٢.

هل تعطي منظّمات الـ NGOs السلاح لنساء السودان لـ «تمكينهنّ» ضدّ إسرائيل وأميركا؟!

حراكٍ شعبيّ أوسع يُسْهم في «تقرير سياسات» البلاد العربيّة.[1] ففي التظاهرات قد يتمّ توزيعُ أدبيّات مقاطعة الشركات الداعمة لإسرائيل، أو نسجُ الصداقات الشخصيّة التي قد تؤدّي لاحقًا إلى نشاطاتٍ سياسيّةٍ مشتركة (وتنسيباتٍ حزبيّة)، أو التنبيهُ إلى العلاقة الوثيقة بين العدوانيّة الإسرائيليّة ـ الأميركيّة والقمع الرسميّ العربيّ، أو عشرات القضايا الأخرى. ومن أسفٍ أنّ كثيرًا من ناشطينا لا يستغلّون هذه المناسباتِ شبهَ النادرة لنشر التوعية في ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والتعليم.

ولكنْ لو اقتصرْنا على الناحية السياسيّة بالمعنى الضيّق نفسه، وعلى فلسطين تحديدًا، فإنّ تظاهراتنا، كما ذكرتُ سابقًا، يَنْقصها الإبداعُ. وقد خَرَقَ هذا الحكمَ العامَّ في بيروت مؤخّرًا تظاهرتان. الأولى تظاهرةُ الأكفان التي حملتْ شعارًا واحدًا: «كلّنا غزّة،» وأعادت إلى بيروت، وبزخمٍ وصخبٍ لائقيْن بتاريخها، طابعَها الفلسطينيَّ العربيَّ العريقَ من خلال صوت محمود درويش الهادر وأناشيدِ الثورة الفلسطينيّة قبل مرحلة بيروت ١٩٨٢ وبُعيْدها (راجع أدناه). والثانية العرضُ البصريّ ـ السمعيّ الذي أقامته حركةُ الشعب أمام السفارة المصريّة. لكنّ العرض البصريّ فشل، للأسف، بسبب الأضواء الكاشفة المسلّطة فوق المبنى المجاور للسفارة؛ وكان ينبغي على المنظّمين أن يقيموا «بروفا» قبل العرض الفعليّ.

نساء الخرطوم

من أقسى (وأروع) المشاهد التي رأيتُها على التلفزيون مشهدُ نساء السودان يتظاهرْنَ أمام السفارة المصريّة، ثم السفارة الأميركيّة. كنّ يبكين على أطفال غزّة كما لو كانوا أطفالَهنّ. قدّمن حليهنّ تبرّعًا للمقاومة الفلسطينيّة. لكنهنّ، وهنا الروعة، كنّ يطالبن أيضًا بتنحّي الرؤساء العرب عن كراسيهم، وبإعطائهنّ سلاحَهم ليحاربن به بدلاً منهم.

أتأمّلهنّ دامعَ العينيْن. أقول في نفسي إنّ هاته النسوة لسن في حاجةٍ إلى منظّمات الـ أن. جي. أوزْ ليتعلّمن «تمكينَ» المرأة: ففيهنّ من السخط والألم والقهر والدمع والغضبِ على أنظمتهنّ وأشباهِ «رجالها» ما يكفي من قوّةٍ ليقرّرن حملَ السلاحَ نصرةً لفلسطين وفضحًا للرجولة الرسميّة العربيّة.

أشكّ، أشكّ فعلاً، في أن توافقَ منظّماتُ «الأنجزة» على تمويل المتظاهرات السودانيّات من أجل التدرّب على السلاح، مثلاً، لقتال إسرائيل والولايات المتحدة. ذلك أنّ «التمكين» يقتصر في عرف تلك المنظّمات، كما يبدو، على محاربة النظام البطريركيّ العربيّ... لا محاربة أسيادِه الأميركيين وحلفائهم الإسرائيليين!

١ ـ ماجد كيّالي، صحيفة **الحياة**، ٢٠٠٩/١/٤.

بيروت الفلسطينيّة

أمشي مع المتظاهرين في بيروت باتجاه السفارة المصريّة. الأعلام الفلسطينيّة والكوفيّات الفلسطينيّة تحفّ بنا من كلّ جانب: في الحمرا، وفردان، وكورنيش المزرعة. هنا كان مكتبُ منظّمة التحرير: شفيق الحوت لم يعد فيه، لكنّ ثقلَه الأخلاقيّ والقوميّ يَنْشر ظلالَه عليه إلى اليوم، رغم أوسلو. مقابلَه، إلى اليسار، كان مكتبُ مجلة **الهدف** في السابق. أرى غسّان كنفاني يخْرج إلى الشرفة يُحيّينا ويَرْشقنا بالبرتقال والبرقوق. تتقدّم مسيرةُ الأكفان. اليسار في طليعة المنظّمين: حركةُ الشعب، اتحادُ الشباب الديمقراطيّ، قطاعُ الطلاّب في الحزب الشيوعيّ، يساريّون مستقلّون، إلى جانب ناشطي الحزب القوميّ. نصل إلى مشارف الطريق الجديدة. أقلتُ الطريقَ الجديدة؟!

تَصْدح أناشيدُ ما قبل الخروج الثمانينيّ: «طالِعْلكْ يا عدوّي طالعْ من كلّ بيت وحارة وشارع.» «فدائيّة، فدائيّة، ثورة ثورة شعبيّة.» «كلاشينكوف خلّي رصاصَك بالعالي.» «طَلّ سلاحي من جراحي يا ثورتنا طَلّ سلاحي.» تلتها، وامتزجتْ بها، أغاني ما بعد الخروج، وعلى رأسها: «إشهدْ يا عالمْ علينا وعلى بيروت، إشهدْ للحرب الشعبيّة.» إلى اليسار تقع البنايةُ التي كنتُ أسكن فيها مراهقًا: بناية إسكندراني رقم ٣. الشهيد أبو جهاد كان يَسْكن تحتنا. في البناية نفسها، كان يَسْكن أنيس النقّاش، الذي صافحتُه قبل قليل، وها هو يسير غيرَ بعيدٍ عنّي. بيروت تعود فلسطينيّة، أيْ: بيروت تعود بيروت!

يقترب منّي صالح عرقجي ليُخْبرَني بأنهم كانوا في تظاهرةٍ صباحيّةٍ أمام مسجد الإمام عليّ في قلب الطريق الجديدة. صالح يتحدّث مفتخرًا بقوميّته وسُنّيّته. السُّنّة لن يكونوا إلاّ مع فلسطين، يقول. فجأةً، أتذكّر أنني سُنّيّ. غير أنني لا أفتخر بذلك؛ فقد طلّقتُ مذهبيّتي منذ أن قرأتُ سهيل وغسّان ورئيف خوري، وتبعتُ الحكيم جورج. لكنني لم أستطعْ أن أكْبحَ نشوةً دفينةً: ها إنّ تَحَكُّمَ الانعزال والمال السعوديّ ببعض سُنّةِ بيروت قد تقهقر... ولو لساعاتٍ أو أيّام.

شكرًا فلسطين!

الدِّينُ والتظاهرات: شيخٌ... وشيخ

نقلتْ صحيفةُ **الحياة** السبتَ الماضي عن رئيس المجلس الأعلى للقضاء في السعوديّة الشيخ صالح اللحيدان قولَه، خلال محاضرةٍ ألقاها الجمعة في الرياض، إنّ التظاهرات «استنكارٌ غوغائيّ، إذ إنّ علماءَ النفس وَصفوا جمهورَ المظاهرات بمن لا عقلَ له.» وأضاف: «حتى إذا لم تَشْهدِ المظاهراتُ أعمالاً تخريبيّة، فهي تصدّ الناسَ عن ذكْرِ الله.»

هذا وقد اعتبر البعضُ فتوى اللحيدان بمثابة ردٍّ رسميّ سعوديّ على الشيخ عائض القرني، الذي قيل إنّ السلطات السعوديّة اعتقلتْه بسبب إصداره فتوى يومَ الأحد بضرب المصالح الإسرائيليّة في كلّ مكان نصرةً للشعب الفلسطينيّ، مضيفًا: «يجب أن يكونوا [الإسرائيليون] أهدافًا وتسيلَ دماؤهم، كما تسيلُ دماءُ إخواننا الفلسطينيين.»[1]

فتأمّلوا!

سوريا

يعتقد سياسيّو ١٤ آذار (أمثال فارس سعيْد) أنهم يُحْرجون خصومَهم حين يسألونهم: لماذا تطالبون مصرَ بفتح معبر رفح ولا تطالبون سوريا بفتح جبهة الجولان؟

الحقّ أنّ هذا الكلامَ يُحْرج أنصارَ ٨ آذار فعلاً. إذ كيف بإمكان أيٍّ كان أن يبرِّرَ ألاّ تطْلقَ السلطاتُ السوريّةُ طوال ٣٥ سنة قذيفةً على إسرائيل من الجولان، بصرف النظر عن دعمها الكبير لحزب الله وبعض فصائل المقاومة الفلسطينيّة؟ وكيف يُمْكن تبريرُ المفاوضات السوريّة غير المباشرة... ومع رئيس وزراء إسرائيليّ منتهي الصلاحيّة؟

لكنْ كيف يردّ ١٤ آذار على أناسٍ مثلنا طالبوا سوريا في السابق، ويطالبونها اليومَ، بفتح جبهتها فعلاً ووقفِ المفاوضات؟ إنّ معسكر ٨ آذار يفتقر حقّاً إلى المبدئيّة والصدقيّة إنِ اقتصرتْ مناشداتُه على النظام المصريّ، وتجاهلت النظامَ السوريّ. بل إنّ ٨ آذار في موقفه هذا يعطي خصومَه اللبنانيين فرصةَ التفلّت من إدانة النظام المصريّ، حليفِهم وحليفِ حليفهم الأكبر: الجزّار الأميركيّ.

بين لبنان ٢٠٠٦ وفلسطين اليوم

في صيف ٢٠٠٦ غادرتْ مئاتُ العائلات الجنوبَ والضاحيةَ، فوَجدتْ بيوتًا وأحضانًا دافئةً في كثيرٍ من أرجاء لبنان، ولاسيّما في بيوت و«مناطق» أنصار ميشال عون وسليمان فرنجيّة، وفي سوريا. وكان ذلك عاملاً أساسيّاً في صمود المقاومة اللبنانيّة، إذ سَمح لها بالتفرّغ للقتال وهي متيقّنةٌ من أنّ شعبَها في أمان.

أما اليوم، فأين يَذْهب أطفالُ غزّة ومدنيّوها؟ مصر مغلقةٌ في وجوههم. الضفّة الغربيّة مغلقة. فلسطين ٤٨ مغلقة. قد يتمكّن مقاتلو المقاومة من الصمود أسابيعَ، لكنْ ماذا يفعلون بالمدنيين مع نقص الطعام والدواء والوقود؟

على المدى البعيد ستعمّق إسرائيلُ كراهيةَ العرب لها، وللسلام معها. لكنْ كيف الصمودُ الآن وشعبُ المقاتلين يموت؟ ومن جديدٍ أفكّر: غبيٌّ مَنْ يحمّل حركةَ حماس

---

١ ـ موقع **سوبرنت** ٠٧٧٧٠٥٠٠.

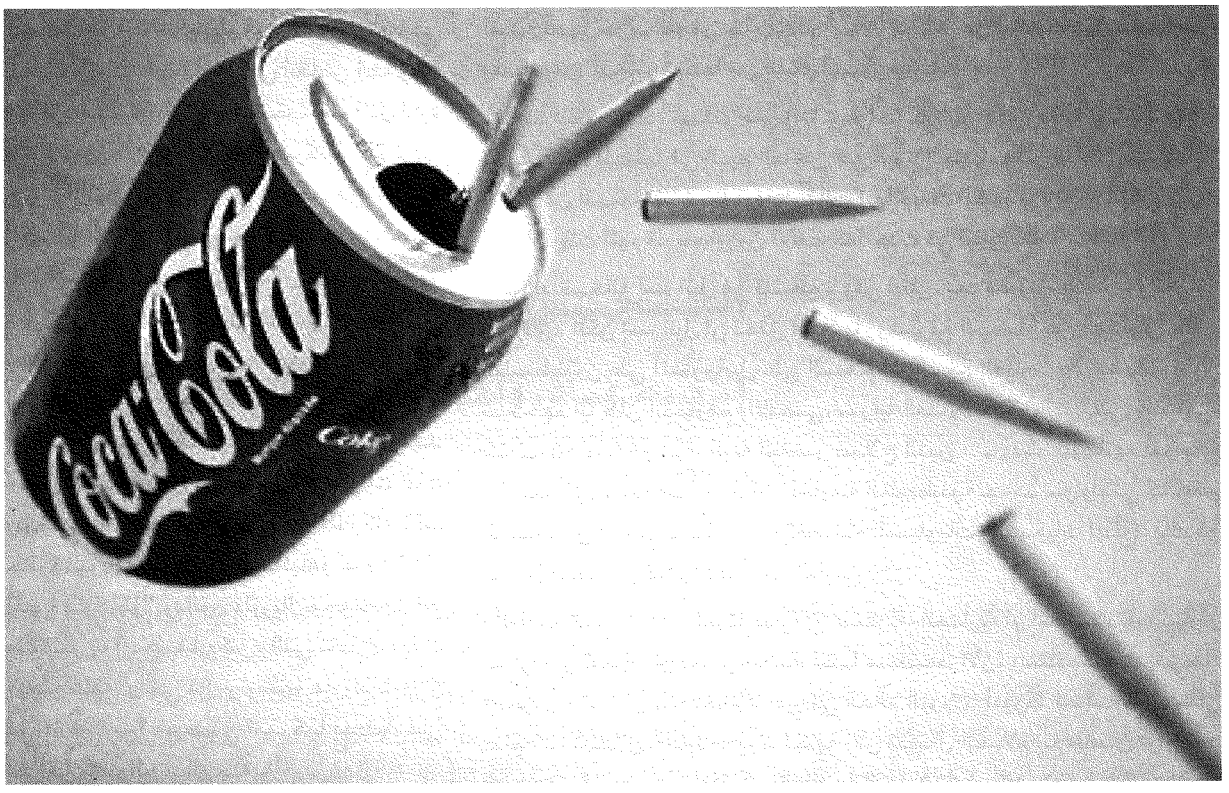

هل يريدون مقاومةً غير مسلّحة؟ إذنْ، فليقاطعوا الشركاتِ الداعمةَ لإسرائيل!

مسؤوليّةَ عدم تأمين ما يَلْزم للمدنيين؛ ذلك لأنه يتجاهل الحصارَ المضروبَ على القطاع منذ ما قبل انتخابها، وهو ما منعها فعليّاً من تأمين مقوّمات الصمود المعيشيّ لفترة طويلة. ولكنْ، مع تزايد الشهداء، أقول: ليْت هدنةً ما تحصل الآن، من دون تنازلاتٍ فلسطينيّةٍ جذريّة، ولو ليومين، من أجل إسعاف الجرحى ودفنِ الشهداء. أما العودة إلى «الهدنة» الكاذبة التي سادت شهورًا قبل العدوان الأخير، فهي قبولٌ بما يسمّيه آفي شلايْم «اللاإنماء المتعمَّد.»[1] إنْ لم تكن قبولاً بالقتل البطيء. علي أبو نعمة على حقّ حين يكتب:

«في ظلّ هدنةٍ على الطراز الإسرائيليّ يحقّ للفلسطينيين أن يبقوا صامتين، في الوقت الذي تجوّعهم فيه إسرائيلُ وتقتلهم وتَسْتعمر أرضَهم بعنف. فإسرائيل لم تكتفِ بحظر الطعام والدواء [خلال شهور الهدنة المزعومة]... بل هي مصمّمةٌ على تجويع العقول: فبسبب الحصار، ليس ثمة حبرٌ، ولا ورقٌ، ولا صمغٌ، من أجل طباعة الكتب لأطفال المدارس.»[2]

المقاطعة

استمعتُ في اليوم الحادي عشر للحرب إلى برنامج «بكلّ جرأة» (أل. بي. سي، ٢٠٠٩/١/٦). أسامة حمدان، ممثّلُ حماس في لبنان، هادئ، رزينٌ، وبخاصةٍ حين يواجه يساريّاً سابقًا كهشام ملْحم، أو مدرّعةً من الكلمات «الرشّاشة» تُدْعى عُقاب صقر. صقر يتحدّث عن ضرورة القيام بمقاومةٍ غير مسلّحة، ويضْرب مثالَ غاندي. الله أكبر! هل مثقفُ الحريري الآن يؤيّد المقاطعةَ مثلاً، التي كانت إحدى أبرز وسائل غاندي للتحرّر من الاحتلال البريطانيّ؟ أيدعو صقر، مثلاً، إلى مقاطعة البضائع الداعمة لإسرائيل التي غصّت وتغصّ بإعلاناتها شاشَتا المستقبل والـ أل.بي.سي؟ إذنْ، فليدعُ معنا إلى مقاطعة الشركات التالية إلى حين تخلّيها عن دعم كيان العدوّ اقتصاديّاً وسياحيّاً ورياضيّاً. وسأركّز الآن على بعض الشركات الموجودة في لبنان، على أن أُفردَ قريبًا مقالاً طويلاً لهذا الموضوع:

١ ـ بيرغر كينغ، التي افتتحتْ فرعًا في مستوطنة معالي أدوميم، خلافًا للقانون الدوليّ. ٢ ـ ماكدونالدز، التي تساعد إسرائيلَ من خلال التبرّعات التي تقدّمها إليها مكاتبُها المحليّةُ هناك والشركةُ الأمُّ في شيكاغو (إذ هي شريكٌ لـ «الاتحاد اليهوديّ/الصندوق اليهوديّ الموحّد»)، وافتتحتْ منذ سنوات فرعًا في المستوطنة الألمانيّة في القدس في بيت الفلسطينيّة ماري الدادا التي كانت قد طُردتْ منه عامَ ١٩٤٨. ٣ ـ كوكاكولا، التي اشترت «مياه نيفيوت» الإسرائيليّة (٤٠٪ من سوق المياه المعبّأة في إسرائيل)، و«مخامرَ الجولان» في الجولان المحتلّ، وستور ألاينس

---

١ ـ "Deliberate de-development"; see Avi Shlaim, **The Guardian**, Jan 7, 2009.

٢ ـ www.electronicintifada.net, 27/12/2008.

الحاسوبيّة الإسرائيليّة، وبَنَتْ مصنعًا في مستوطنة كريات غات (على أنقاض الفالوجة وعراق المنشيّة)، وترْعى منتخبَ إسرائيل لكرة السلّة ومهرجانَ آراد للجاز، وشركتُها الأمّ ترعى فرعَ «الاتحاد اليهوديّ الموحّد في أتلانتا الكبرى» المشارك في توطين اليهود في فلسطين.

٤ ـ إيستيه لودر، التي اشترت معظمَ أسهم شركة جيروزالم كابيتال ستوديوز، وأكثرَ من نصف شركة دلتا ٣ الإسرائيليتيْن. ٥ ـ نستله، التي اشترت ٥٠،١٪ من شركة أوسم الإسرائيليّة للأغذية، وتدير مصنعًا في سديروت (النجد سابقًا)، ولها مشروعاتٌ كبرى في كريات غات وناخشوليم (الطنطورة سابقًا). ولذلك كلّه تلقّت جائزةَ اليوبيل الذهبيّ من ناتنانياهو عامَ ١٩٩٨، أسوةً بكوكاكولا ودانون ولوريال وجونسون آند جونسون. ٦ ـ ستاربكس، التي تشارك ديليك الإسرائيليّة، والتي قال رئيسُها هارولد شولتز في ٢٠٠٢/٤/٤ «بوصفي أميركيّاً يهوديّاً، فإنّ التزامي بإسرائيل عالٍ جدّاً.»[١]

ولا بدّ من أعود إلى هذا الموضوع بالتفصيل كما وعدتُ، لكنّ المهمّ أن نؤكّد هنا أنّ المعلومات موثّقة في ما يخصّ دعمَ هذه الشركات (إضافةً إلى شركاتٍ أخرى مثل جنرال إلكتريك، وهاسْبرو، ومايكروسوفت، وساره لي، وفيليب موريس، وكاترپيلر، وأنتل،...) للكيان الصهيونيّ، وهو دعمٌ يدرّ عليه بلايينَ الدولارات ويُسْهم في تخفيف الأعباء الاقتصاديّة عنه ويدفعه إلى التركيز على المجهود الحربيّ ضدّ فلسطين ولبنان بشكلٍ خاصّ.

خاتمة موقّتة

الصحافيّ والمحلّل الفرنسيّ العسكريّ ريشار لابڤيبر يقول إنّ لدى حركة حماس وبقيّة الفصائل حوالى خمسة عشر ألف مقاتل في غزّة حاليّاً، إضافةً إلى وحدةٍ خاصةٍ تقدَّر بحوالى ثلاثة آلاف مقاتل، «وهذه الوحدة مدرَّبة على يد عماد مغنيّة، وتَستخدم نفسَ أساليب القتال التي استخدمها حزبُ الله في حرب عام ٢٠٠٦، فضلاً عن امتلاكها لأسلحةٍ جيّدة وكميّاتٍ من الذخائر تُمكّنها من القتال لشهورٍ طويلة.»[٢]

مَشاهدُ القتل تزداد. تسألني نايْ (١٠ سنوات) كلَّ ليلة: «كم واحدًا صاروا، بابا؟» لم أعُدْ أعُدّ، قلتُ لها في اليوم العاشر. في اليوم الحادي عشر سألتني من جديد. حاولتُ أن أُفهمَها أننا لسنا أرقامًا. قالت إنها فهمتْ. لكنها في اليوم التالي كرّرت السؤالَ. قلتُ إنهم قد يتجاوزون الألفَ، كما حدث في لبنان عام ٢٠٠٦.[٣]

سيزداد ضحايا إسرائيل في فلسطين، وفي لبنان، بعد سوريا، ومصر، والعراق، والأردن... لكنّ إسرائيل لن تحقّقَ أهدافَها، وسيُرفعُ الحصارُ عن غزّة، ولن ينقلبَ الفلسطينيّون على المقاومة بل على السلام المزيَّف مع القتلة، ولن يسلِّم المقاتلون سلاحَهم أيّاً كان انتماؤهم (الأقصى، سرايا القدس، كتائب أبي علي مصطفى، كتائب المقاومة الوطنيّة، ألوية الناصر صلاح الدين... ـ وذكرُ تنوّعاتهم أمرٌ بالغُ الأهميّة كي لا يتوهّمنّ أحدٌ أنّ المقاومة الفلسطينيّة جسدٌ مونوليثيٌّ كالنظام الديكتاتوريّ العربيّ يسْهل جرُّه وإخضاعُه للمساومات والتسويات المذلّة). ذلك هو الدرسُ الأبسطُ، والأكثرُ بدهيّةً، في التاريخ.

والمقاومة تتّخذ أشكالاً كثيرة: مدنيّةً أو عسكريّة، أنصاريّةً أو استشهاديّة، دينيّةً أو يساريّةً أو قوميّة، هوجاءَ أو منظّمة، لكنها ستصمد الآن، وستنتصر في زمنٍ ما، وسيزول الاحتلالُ (كم احتلالاً بقي في العالم اليوم؟). أميركا احتلّت أفغانستان عامَ ٢٠٠١ خلال مدةٍ قصيرة، لكنها الآن تتوسّل السلامَ مع طالبان. واحتلّت العراقَ في أيّام قصيرة عام ٢٠٠٣، لكنها اليوم لا تَعْرف كيف تخرج بأقلّ عددٍ من قتلاها. وإسرائيل طردت الشعبَ الفلسطينيّ من أرضه قبل ستّين عامًا، وطردتْ فصائلَه من بيروت قبل ستّة وعشرين عامًا، فنَبَتَتْ في وجهها حركاتُ مقاومةٍ كثيرة، وانتفاضتان، وحكومةٌ منتخبةٌ معاديةٌ لها في قلب فلسطين. أسوأ سيناريوهات هذه الحرب على غزّة، بعد ازدياد عدد الضحايا، هو أن تحتلّها إسرائيلُ وتسلّمها إلى سلطة عبّاس و/أو عصابات الدحلان. ولكنّ السيناريو الجديد لن يصمدَ طويلاً، وستعود المقاومةُ أكثرَ شراسةً.

أما نحن، عربَ الخارج، فعلينا تطويرُ مقاوماتنا لأنظمتنا المستسلمة أو العميلة أو الكاذبة أو النذلة (تنطبق جميعُ الصفات معًا على عددٍ منها). وعلينا تحديثُ أشكال تضامننا مع فلسطين، كي نشكّلَ ما أسماه كلوڤيس مقصود «مرجعيّةً عربيّةً موثوقًا بها»[٤] تكون بديلاً من أنظمتنا ومؤسّساتنا العربيّة المهترئة: بديلاً يليق بشعبنا وتضحياته في كلّ مكان.

بيروت

سماح إدريس

كاتب من لبنان. وقد نشرتْ نسخةً من هذه المقالة في جريدة **الأخبار**.

١ ـ من أجل معلومات بالغة التفصيل عن أبرز الشركات الداعمة لإسرائيل، وكيفيّة هذا الدعم، راجعْ وثائق «حملة مقاطعة داعمي إسرائيل/لبنان» ومقالات ناشطيها على موقع مجلة الآداب: www.adabmag.com

٢ ـ جريدة **الدستور**، ٢٠٠٩/١/٨.

٣ ـ كُتبت هذه المقالةُ قبل نهاية الحرب، التي بلغ عددُ ضحاياها الفلسطينيين أكثر من ١٣٥٠ شهيدًا.

٤ ـ **النهار**، ٢٠٠٩/١/١١.

غزّة
تأملات وعبر

التحرّر في زمن الفوسفور: الاضطهاد، والمقاومة، وأولويّة الإنسان

□ عمر البرغوثي

عايدة امرأة فلسطينيّة تتوق إلى أن تصبح اسمًا على مُسمّى، وأمٌّ لستّة أطفال. كلّ ليلة خلال العدوان، قبلَ النوم، كانت تحضنهم بكلّ ما تبقّى لديها من حبّ، وتودّعهم كما لو كانت تلك هي ليلتهم الأخيرة معًا. وهي لاجئة تقطن في بيت لاهيا في قطاع غزّة المحتلّ والمجوَّع والمعذَّب، حيث الحرمانُ من أساسيّات الحياة والتشبّث بها رغم كلّ شيء، وحيث الموتُ يكتسب أشكالاً مريعة: بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ، فوسفوريّةً وانشطاريّة، محرَّمةً دوليّاً أو تجرَّب «في الميدان» لأول مرّة. ومع ذلك، فإنّ عايدة كانت في كلّ صباح تَعُدّ نفسَها وأولادَها من المحظوظين الذين لم يفارقوا الحياة (أيّ حياة؟!)، ولم يصبْهم أذًى يجعلهم يتمنّوْن لو فارقوها، كما حدث مع الآلاف غيرهم. لم تغادرْ بيتَها، لا من باب المقاومة السلبيّة فحسب، بل لأنّ قفصَ غزّة المحْكمَ لا مكانَ آمنًا فيه أيضًا، بحسب تصريح مسؤولي وكالة الغوث.

منذ يومين تلقّيتُ خبرَ استشهاد أحد أبناء عايدة، وهو طفلٌ صغيرٌ خرج ليُحْضر طعامًا يسدّ به جوعَ أمه وأخواته بعد أيّام من الحبس في المنزل، فقتلوه دونما اعتبارٍ لعمره وحجمِه. بكيتُ بصمت، ولكنْ بحرقة، لأول مرة منذ بدء العدوان الإسرائيليّ على غزّة. لأيّ هدفٍ ثُكلتْ عايدة؟

غزّة اليوم، كما كانت بيروتُ أيّامًا، رمزُ المقاومة وعنوانُ الجريمة. تجسيدٌ للظلم بأبشع صوره، وللإنسانيّة بأبسط صورها أيضًا. هي الصمودُ والفجيعة. بدايةُ النهاية لفكرة إسرائيل ككيانٍ استعماريّ، ونهايةُ النهاية لفكرة سلطةٍ «وطنيّة» تحت الاحتلال وبإذنه. وغزّة هي اختبارُ الإنسانيّة في زمن الفوسفور الأبيض، كما كان جنوبُ لبنان في زمن القنابل العنقوديّة: اختبارٌ رسبتْ فيه قوًى عديدة: من أباطرة روما الجديدة، إلى أرانبِ بروكسل العتيقة، ومن قاهرةِ المعزّ المذلولة بعار التبعيّة والتواطؤ، إلى رام الله التي تشْهد ولادةَ حالةٍ مريضةٍ جُلّ طموحِها أن تصبح نظامًا بوليسيّاً ينافس جيرانَه في كسب رضى روما وبروكسل... وتل أبيب.

لماذا ذُبحتْ غزّة؟ أكان بإمكاننا تفادي ذبحِها؟ أيحتاج النازيّون الجدد حجّةً أو عذرًا للذبح وهم الذين يَشْحذون سكاكينَهم كلّ يوم ترقّبًا لأيّ فرصةٍ تتاح من نفسها، أو يستفزّونها لكي «تتاحَ» فيذبحوا ويذبحوا استكمالاً لمسيرتهم الدمويّة والإحلاليّة منذ مئة عام؟ ولكنْ، إنْ كنّا نعرف كلّ ذلك عنهم ـ بطشَهم، غدرَهم، انعدامَ أخلاقهم، نقاطَ قوتهم المطلقة المنفلتة من عقالها، حصانتَهم غيرَ المسبوقة ـ فهل استمررنا بعنادٍ، وبقوة العادة، في تحدّي نصالهم برقابنا العارية، بشجاعةٍ بطوليّة، وبعقيدةٍ راسخةٍ تصرّ على تحقيق الفكرة... ولو بالتضحية بالإنسان أحياناً؟ هل فكّرنا بأفضل وسيلةٍ لمقاومة سكاكينهم؟ ولكنْ ما المقصودُ بـ «أفضل» هنا؟ أفضلُ لمن، بالضبط؟ لمن تُطلق الصواريخ؟ لمن تُحفر الأنفاق؟ لمن يُبذل الغالي؟ لمن تُكتب الأشعار؟ ولماذا؟

لا تعريفَ لـ «أفضل» سوى أنه أكثرُ ما يَخْدم الإنسانَ في النهاية.

❖ ❖ ❖

لا، لم يعد مبكّرًا طرحُ الأسئلة الصعبة. بل كان تأجيلُها رفاهيةً، وأصبح الآن هروبًا من وضوح الرؤيا والأهداف والتحالفات الضروريّة إلى ضبابيّة ردود الفعل وسلوك طريق أسلافنا وإنْ لم توصلهم إلى أيّ مكان، بل قادتْهم في معظم الأحيان إلى التهلكة أو اليأس أو النسيان. فلئن كان الكفاحُ المسلّحُ الفلسطينيّ على مدى عقود هو الرافعةَ الحقيقيّةَ لقضيّة فلسطين ولاعتراف العالم بحقوقنا، فإنّ هذا الكفاح ـ منذ خروج منظّمة التحرير من بيروت عام ١٩٨٢، وبالذات منذ تشكيل «السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة» في أوسلو باتفاقٍ مع إسرائيل و«رعايةٍ» أميركيّة ـ فَقَدَ احتمالَ التطوّر الكمّيّ والنوعيّ لبدء صيرورة النصر على عدوّنا الصهيونيّ، بل فَقَدَ احتمالَ تحقيق إنجازاتٍ تُذْكر على صعيد استرجاع حقوقنا غير القابلة للتصرّف،

وأهمُّها حقُّ تقرير المصير. لقد أصبح كفاحُنا المسلّح في الحقبة الأخيرة أداةً للممانعة والصمود، في أفضلِ تقدير.

فمنذ سنة ١٩٨٢ ونحن في تراجعٍ يكاد يكون خطّياً على الصعيد السياسيّ والدبلوماسيّ، باستثناء الطفرة القصيرة في الانتفاضة الأولى. ولذا، لا يمْكن عاقلاً إلاّ أن يستنتجَ أنّ أشكالَ كفاحنا واستراتيجيّتنا النضاليّة باتت في حاجةٍ ماسّةٍ إلى المراجعة. لن أكرّرَ في هذا الخصوص كلَّ طرحي الذي نُشر على صفحات الآداب، ولكنْ لا يمْكن إلاّ أن أستعيدَ جوهرَ موقفي السابق، الذي أصبح في رأيي أكثرَ رسوخًا من قبل، رغم السِّمة البطوليّة للمقاومة في غزّة مؤخّرًا: وهو أنّ الكفاح المسلّح في الحالة الفلسطينيّة المحدّدة، وضمن السياق المحلّيّ والإقليميّ والعالميّ الحاليّ، لا أفقَ حقيقيّاً له في إنجاز أهداف نضالنا الوطنيّ. وللتذكير، فأنا أختلف جذريّاً مع «البرغماتيين» والليبراليين الجدد الذين ينادون بـ «حلّ سلميّ» ينتقص من حقوقنا، وعلى رأسها حقُّ العودة إلى الديار والتعويض؛ بل إنّني من أنصار الدولة الديمقراطيّة العلمانيّة التي تزيل كيانَ إسرائيل من الوجود من حيث هي دولةٌ عنصريّةٌ إحلاليّة.

لقد أسقطتْ سلسلةُ الجرائم والمذابح المفتوحة، التي سُمّيتْ بـ «الحرب الإسرائيليّة على غزّة،» أقنعةً عدّة، أكثرَ بما لا يقاس من ذي قبل. فهي الحربُ الأولى التي تُشنّ على شعب فلسطين، و«قيادتُه» قابعةٌ في الجهة الأخرى من السور، تشاهد «المعركةَ» بترقّبٍ وتحفّزٍ من ثقوب السور، وتهلّل لكلّ ضربةٍ ينزلها حليفُها/عدوُّها بعدوّها/أخيها، وتُعِدّ العُدّةَ لصعود ظهر دبّابة الأول حين تَسْحق عظامَ الثاني، ولتدخلَ غزّةَ كما دخلتْها في المرّة الأولى.

ولكنها ربما هذه أكثرُ مرّة يساهم فيها، وبهذه العلنيّة، معظمُ أنظمة القهر والتبعيّة العربيّة في حصار الفلسطينيين، حتى لم يعد الموتُ أسوأَ الخيارات، وانتشرت الأمراضُ المزمنةُ، وتفاقمَ سوءُ التغذية، وانعدمتْ فرصُ النموّ والكرامة، وعاد أطفالُنا ينسون، من جديد، شكلَ الفاكهة أو طعمَ الدفء في الشتاء. وهذا كلُّه لم يكن وليدَ رغبة الأنظمة العربيّة في مصادرة قرار الفلسطينيين الوطنيّ، وتصفيةِ حساباتٍ إقليميّةٍ مع قادتهم وسلاحهم المقاوم، كما في تلّ الزعتر وعمّان؛ ولا تعبيرًا عن التجاهل واللامبالاة، كما في بيروت وجنين وغيرهما؛ وإنما كان الدورُ الرسميّ لمعظم الأنظمة العربيّة (غير الشرعيّة وغير المنتخبة) عبارةً عن تواطؤٍ كاملٍ، وقحٍ، فجٍّ، يُنهي مرحلةَ الغموض التي كانت قد بدأتْ بالانقشاع منذ تموز ٢٠٠٦. ففي تمّوز (يوليو) أضاف النظامُ السعوديّ وأتباعُه اللبنانيّون والمصريّون والأردنيّون، بل بعضُ الفلسطينيين أيضًا، وغيرُهم، وبإيعازٍ أمريكيّ بالطبع، سلاحًا جديدًا شارك ببسالةٍ ومثابرةٍ نادرتيْن أسلحةَ الجوّ والبحر والبرّ الإسرائيليّة التي تحطّمتْ على أسوار بنت جبيل ووادي الحجيْر ومارون الراس: إنه سلاحُ التحريض المذهبيّ الحاقد، والدعاية الإعلاميّة الباعثة على اليأس والإحباط من كلّ فعلٍ مقاوم. ولكنْ في زمن غزّة، حصل انهيارٌ أفظع، إذ رأينا معسكرَ روما الجديدة، من المحيط إلى الخليج مرورًا بـ ... رام الله (كم يَقْهرني ألاّ يَردَ اسمُ مدينتي الجميلة سوى في سياق عبيد روما!)، يقف وقفةَ قزمٍ واحدٍ لنصرة أسياده، وضدّ شعوبه الغاضبة المتطلّعة إلى قيادةٍ ثوريّةٍ بحقّ، والتي حوّلها قمعُ الأنظمة وإرهابها إلى مفعولٍ به منصوبٍ فوق صليب الحلم الضائع.

وبعد حصار غزّة الكامل لعامٍ ونصف العام، وقبلها لسنين بشكلٍ جزئيّ، وبمشاركةٍ مصريّةٍ ـ فلسطينيّةٍ ـ رجعيّةٍ عربيّة، يَعْرض عربُ أمريكا علينا مئاتِ الملايين من الدولارات لـ «إعادة البناء» و«تضميدِ الجراح النازفة في غزّةَ هاشم،» متجاوزين مَثَل «مَنْ يقتل القتيلَ ويمشي في جنازته،» ليضربوا، ضربةَ رجلٍ واحدٍ طبعًا، مثلاً جديدًا: إنهم كَمَنْ باع ابنتَه لثريٍّ يغتصبها، ثم عَرض عليها مُسكِّنًا لآلامها ومحارمَ لتجفيف دموعها، وانتقد الغاصبَ لقساوة قلبه! والمثلُ الثاني أشدُّ إيغالاً، لا في فقدان البوصلة القوميّة فحسب، بل في فقدان أيّ سمةٍ تمتّ إلى الإنسانيّة بصلةٍ أيضًا.

وغزّة هي الحالة الأوضح، في رأيي، التي نَشْهد فيها انتقالَ الأمم المتّحدة من موقع المتفرّج الممنوع من الكلام والإحساس منذ نشوء عالم القطب الواحد، كما تجسّد في تمّوز ٢٠٠٦، إلى موقع الشريكِ الخجولِ في «الحرب على الإرهاب،» العربيّ ـ الإسلاميّ الملامح بالضرورة منذ هجمات سبتمبر ٢٠٠١ الإجراميّة. فالجيش الإسرائيليّ قَصَفَ مدرسةً في بيت لاهيا لوكالة الغوث التابعة للأمم المتحدة، بينما كان الأمينُ العامّ للمنظّمة الدوليّة في زيارةٍ رسميّةٍ إلى رئيس الوزراء الإسرائيليّ إيهود أولمرت لمناقشة «الأوضاع» في غزّة! ولم يكن هذا الصلفُ الإسرائيليّ والإجرامُ أمام شاشات التلفزة ليحصلا لولا الشعورُ الإسرائيليّ بالمنعة من النقد، وهو شعورٌ زاد قوةً في ظلّ تراكم حالات السكوت الأمميّ عن مجازر إسرائيليّة سابقة ارتُكبتْ ضدّ مواقع أخرى للأمم المتحدة، من قانا ١٩٩٦ إلى جباليا ٢٠٠٩.

وهي المرةُ الأهمّ، ربما، منذ الحرب العالميّة الثانية، التي يصبح فيها النظامُ الأوروبيّ الرسميّ شريكًا متحمّسًا في الرقص على دماء شعبٍ يحاصَر ثم يُذبح في القفص، حيث لا مفرّ. صحيحٌ أنّ الاتحاد الأوروبيّ هو الشريكُ الأكبرُ لإسرائيل تجاريّاً وثقافيّاً وأكاديميّاً، وأنّه وقّع اتفاقيّةَ شراكةٍ معها رغم احتلالها ونظامها العنصريّ. وصحيحٌ أنّ بلدان الاتحاد المذكور هي التي خلقتْ إسرائيلَ أصلاً، وهي التي تجاهلت النكبةَ والتطهيرَ العرقيّ الهائلَ الذي صاحبها. وصحيحٌ أنها أبرزُ مَن ساعد إسرائيل على تملّك أسلحة الدمار الشامل والعدوان على مصر عام ١٩٥٦، وأبرزُ مَن مَدّها كلّ عام بمليارات من الهبات. وصحيح أنها دَمجتْ إسرائيلَ في المنظومة الأوروبيّة فعليّاً، وإنْ لم يكن رسميّاً، في المجالين العلميّ والرياضيّ وغيرهما. كلُّ ذلك صحيح. ولكنْ في زمن غزّة، بلغ

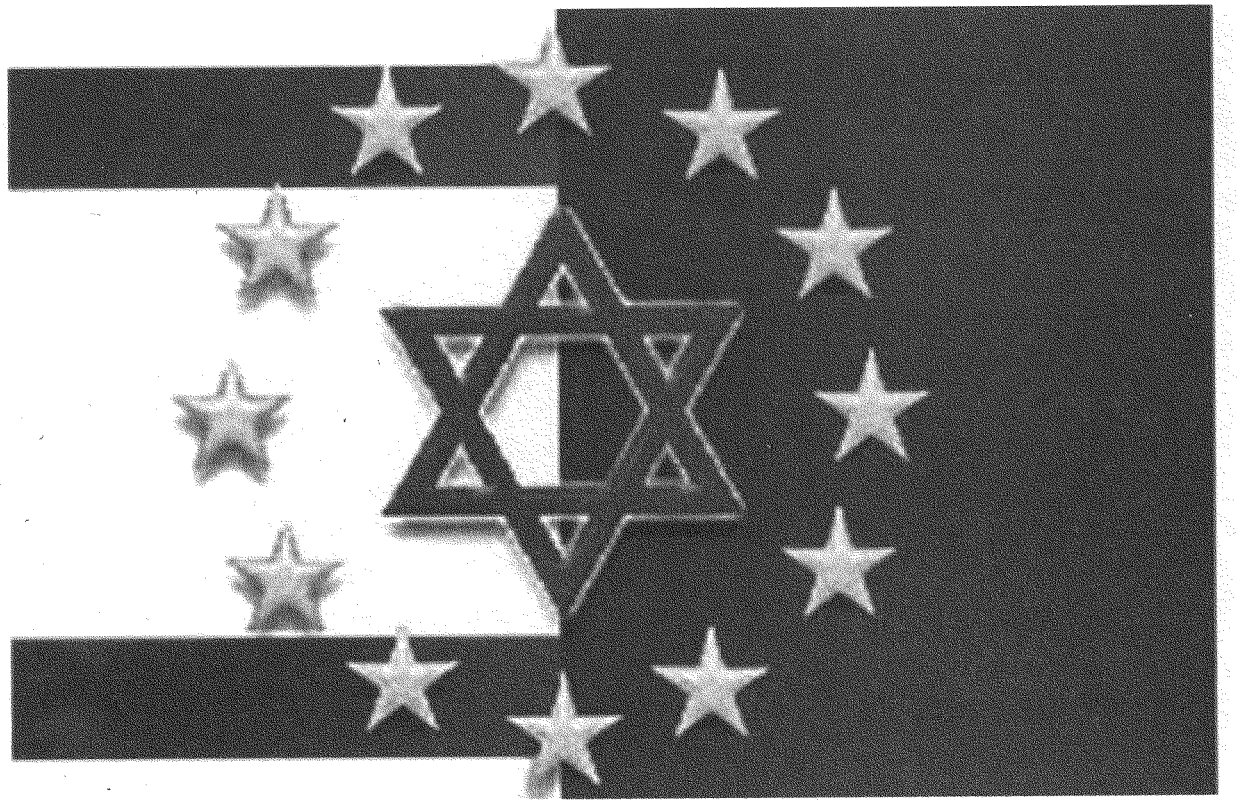

قرَّر الاتحاد الأوروبيّ مكافأةَ إسرائيل على حصار غزّة، فوافق على رفع مستوى الشراكة معها.

الاتحادُ الأوروبيّ الحضيضَ في تواطئه وخيانتِه لكلّ مبادئ حقوق الإنسان التي تَشَدَّقَ بها، وللقانون الدوليّ الذي طالما تغنّى به. فقد تجاهل الاتحادُ التقاريرَ الواردةَ من منظّمات حقوق الإنسان العالميّة والأوروبيّة عن مأساويّة الوضع في غزّة بسبب الحصار، وكلُّها أجمعَ على أنّ هذا الحصار هو عقابٌ جماعيٌّ يُحْكَم على مئات المرضى بالموت الفوريّ، وعلى عشرات الآلاف، وربما مئات الآلاف، بالموت البطيء جرّاء الأمراض المزمنة. بل قرّر الاتحادُ **مكافأةَ** إسرائيل على حصارها لغزّة ـ وهو حصارٌ أسماه مبعوثُ الأمم المتّحدة لحقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة، البروفيسور ريتشارد فولك، «مقدِّمةً لإبادةٍ جماعيّةٍ» و«محرقةً قيد التنفيذ» ـ في ٢٠٠٨/١٢/٩، أيْ قبل العدوان على غزّة بأيّام، وذلك بالموافقة على رفع مستوى الشراكة معها لتصبح الشريكَ الخارجيَّ الأكثرَ اندماجًا في السوق الأوروبيّة. ولم يكن القرارُ الأوروبيُّ مصادفةً أو سهوًا؛ فقد حجَّ أهمُّ قادة أوروبا إلى القدس المحتلّة فور توقّف الحرب، مهنّئين أولمرت، على مأدبة عشاء، بـ «النصر على الإرهاب.»

لا، لم أُهملْ دورَ الولايات المتحدة، تحديدًا لأنني لا أهمل دورَ إسرائيل. فالأولى لم تعد، ببساطة، السيّدَ الموجِّهَ الذي يَستخدم إسرائيلَ أداةً لخدمة مشروعه الإمبرياليّ، كما يدّعي نوام تشومسكي منذ عقود ويرفض بعنادٍ دوغمائيٍّ تبديلَ موقفه رغم المعطيات الجديدة التي تَدْحض نظريّتَه بشكلٍ حاسم. بل أمست الولاياتُ المتحدة وإسرائيل متشابكتيْن بشكلٍ عضويّ في ما يتعلّق بالسياسة تجاه «الشرق الأوسط.» من المؤكّد أنّ سياسات الحكومة الأميركيّة تقوم في الأساس على خدمة مصالح النخب الماليّة والنفطيّة والاقتصاديّة والعسكريّة الأميركيّة، وتميل منذ انهيار الاتحاد السوفييتيّ إلى الهيمنة على العالم بشكلٍ عسكريّ واقتصاديّ مجنون؛ ولكنّ إسرائيل هي جزءٌ فاعلٌ ومؤثّرٌ في صياغة تلك السياسات. فهي تملك، بلا أدنى جدل، كلَّ خيوط الكونغرس الأميركيّ، ويتحكّم اللوبي الصهيونيُّ بدرجةٍ كبيرةٍ في إنجاح معظم المرشّحين/ات إلى الكونغرس أو إفشالهم/نّ، الأمرُ الذي يعطيه ما يقارب الاحتكارَ الشاملَ لقرارات الكونغرس المتعلّقة بإسرائيل والقضيّة الفلسطينيّة، بل المتعلّقة بالوطن العربيّ والإسلاميّ بشكلٍ أعمّ. وخلال حكم المحافظين الجدد، وهم صهاينةٌ في المقام الأول وغلاةُ اليمين الأميركيّ الإمبرياليّ في المقام الثاني، بدأ نفوذُ إسرائيل في البيت الأبيض بالصعود التدريجيّ حتى وصل بعد اعتداءات سبتمبر ٢٠٠١، ولأوّل مرةٍ، إلى مستوى يضاهي نفوذَها المتسلّط في الكونغرس. ولعلّ المكالمة الهاتفيّة التي جَرَتْ منذ أكثر من أسبوع بين أولمرت والرئيس الأميركيّ المنصرف، جورج بوش، أن تدقّ المسمارَ الأخيرَ في نعش نظرية «السيّد والتابع» التي روّجها تشومسكي منذ عقود: فقد كشف الإعلامُ عن غضب أولمرت من أنباء وردتْه عن نيّة وزيرة الخارجيّة الأميركيّة، كوندوليسّا رايس، التصويتَ في مجلس الأمن مع قرار «وقف إطلاق النار» الذي ساهمتْ بنفسها في صياغته، فطلب من أعوان بوش

مقاطعةَ اجتماعٍ مهمٍّ له و«استدعاءه» على الفور للتحدّث معه على الهاتف. وامتثل بوش، فقطع خطابَه، وهرول إلى الهاتف، ليتلقّى أمرًا لا لبس فيه من أولمرت بعدم التصويت إلى جانب القرار. وهذا ما حدث، حتى قبل أن يقرأ بوش نصّ مشروع القرار!

أعطت هذه المعادلةُ الجديدة، والبالغةُ الأهميّة، إسرائيلَ فرصةً ذهبيّةً لاستغلال حظوتها في واشنطن من أجل التأثير، بشكلٍ غير مسبوق، في القرار الأوروبيّ المتعلّق بالصراع العربيّ ـ الصهيونيّ، وبالموقف من العرب والمسلمين عمومًا. فأصبحت النخبُ الحاكمة في معظم دول أوروبا ـ التي لم تعد تخفي «مسيحيّتها» الشوفينيّةَ رغم ادّعائها «العلمانيّة» و«التنوير،» وباتت ترتعد خوفًا من زحف ملايين المهاجرين العرب والمسلمين «الغرباء» على أراضيها ـ تتطلّع إلى إسرائيل كنموذجٍ ناجحٍ يُحتذى في مكافحة الإرهاب وترويضِ العربِ والمسلمين ليُلْزموا مكانَهم بوصفهم محضَ منتجين للموادّ الخام والعمل الرخيص ومحضَ مستهلكين مطيعين للمنتَج الغربيّ بأشكاله كافّةً.

❖ ❖ ❖

في ظلّ هذه الصورة القاتمة لنشوء تحالفٍ عالميّ منقطع النظير ـ إذ يَشْمل، للمرة الأولى، القيادةَ الرسميّةَ لمنظمة التحرير الفلسطينيّة ـ في تاريخ الصراع العربيّ ـ الصهيونيّ، تلعب إسرائيلُ فيه دورًا محوريًّا وفاعلاً ، وبأدواتٍ عدّة (كاللوبي والإعلام والابتزاز بكيْل تهمة «معاداة الساميّة» في حقّ مَنْ يجرؤ على تحدّيها)، لم يعد ممكنًا ولا أخلاقيًّا البحثُ الجدّيُّ في أساليب المقاومة واستراتيجيّتها في منطقتنا من دون الأخذ في عين الاعتبار حصانةَ إسرائيل السياسيّةَ والدبلوماسيّةَ غيرَ المسبوقة، وما يعنيه ذلك من إمكانيّاتٍ واقعيّةٍ لإقدامها على القيام بمذابح كانت تُعتبر في الماضي، إلى حدٍّ ما، خطّاً أحمر لجيشها، لا لوازع أخلاقيّ، معاذَ الله، بل خوفًا من فقدان الرأي العامّ العالميّ وما قد ينجم عنه من عقوباتٍ لا تقْدر عليها. إنّ جرائم إسرائيل في غزّة هي أكثرُ ما أعاد إلى الأذهان شبح «دير ياسين»؛ ففي صبرا وشاتيلا نفسيهما لم يقم الجنودُ الإسرائيليون بارتكاب المجزرة بأيديهم، بل لجؤوا إلى عملائهم من القوى الفاشيّة اللبنانيّة للقيام بالعمل القذر.

هناك استثناءاتٌ، بالطبع، كالحرب على لبنان عامَ ١٩٨٢، حين قتلتْ إسرائيل ما يقارب العشرين ألف مدنيّ لبنانيّ وفلسطينيّ في أشهرٍ قليلة؛ ولكنْ، بشكلٍ عامّ، لم تكن إسرائيل قبل سنة ٢٠٠١ تقْدم على ارتكاب مجازر واضحةِ المعالم ومكشوفةٍ كما حدث في لبنان في ٢٠٠٦ وغزّة في ٢٠٠٨/٢٠٠٩. إنّ الفرق بين قانا ١٩٩٦ وقانا ٢٠٠٦، مثلاً، يَبْرز بشكل جليّ في تحوّل خطاب البروباغاندا الإسرائيليّ من محاولات تبرير «الخطإ» في الأولى وادّعاء الحرص على حياة المدنيين وقداسة مواقع الأمم المتحدة آنذاك، إلى لامبالاةٍ غيرِ مسبوقة في الثانية. وازداد الموقف الأخير وقاحةً في كلّ مجازر غزة. أما بعد ١١ سبتمبر، فإسرائيل تتّخذ من الجرائم الأميركيّة ضدّ الإنسانيّة في العراق، وفي أفغانستان وإنْ بدرجة أقلّ، ومن التدمير المنهج للمجتمع والاقتصاد والبنية التحتيّة العلميّة والأكاديميّة والثقافيّة هناك، مثلاً أعلى تقلّده وتحتمي به، بل تستنسخ قاموسَه الفاجر في عنصريّته وإجرامه وضربِه القانونَ الدوليَّ عرضَ الحائط، كلّما شعرتْ أنها قادرةٌ على أن تفعلَ ذلك وتفلتَ من العقاب.

❖ ❖ ❖

ولكنْ ما العمل؟ الاستسلامُ لمشيئة طغاة العالم الجدد؟ تسليمُ مواردنا وأقدارنا على طبقٍ من فضّة إلى روما الجديدة وصغارها، وقبولُ دور العبيد بالابتسامة الذليلة عينها التي تظْهر على وجوه غالبيّة «حكّام» العرب؟ أنلغي مقاومتنا لأنّ ثمنها الإنسانيّ في عصر الفوسفور والقنابل العنقوديّة والانشطاريّة الهائلة التدمير لم يعد يُحتمل؟ أنركّز على تطوّرنا الثقافيّ والمهنيّ والعلميّ والديمقراطيّ لمواجهة الطاغوت بعقولنا، لا بسلاحنا؟

أرفض هذه الثنائيّة البغيضة؛ فهي إمّا ساذجة أو مغرضة. من قال إنّ المقاومة تُختزل في شكلٍ واحدٍ أو أشكالٍ ضيّقةٍ بعينها؟ فشعبُ فلسطين، تحديدًا، قاوم الاستعمارَ الاستيطانيّ الصهيونيّ منذ مئة عام بأساليب يَغْلب عليها الطابعُ الشعبيّ ـ المدنيّ، وذلك من خلال الإضراب والمقاطعة والمظاهرات والعرائض والإعلام والفنّ والأدب والتنظيم والتعبئة النقابيّة الاحتجاجيّة وغيرها. أما المقاومة المسلّحة فإنها، رغم محوريّتها في التاريخ الفلسطينيّ المعاصر، وبغضّ النظر عن شعبيّتها الواسعة لعقودٍ طويلة، لم تكن يومًا إلا مِنْ صنع آلافٍ من الفدائيين الذين يتمتّعون بروح فداءٍ عالية وإيثاريّة مطلقة في معظم الأحيان. أما الملايين من أبناء شعبنا فلم تساهمْ في المقاومة المسلّحة إلا في ما ندر، وبشكلٍ ثانويّ، كما في كلّ الثورات في العالم. ولم يكن ذلك عيبًا أو نقيصة؛ فالجماهير تحمي المقاومة المسلّحة وتمدّها بما تحتاجه، ولكنها لا تنخرط بمعظمها في هذا الشكل المقاوم، الرائد، النخبويّ بالضرورة، بل تسهم من جهتها، وبشكلٍ مكمّلٍ، بمقاومتها الأهليّة ذاتِ الطابع الشعبيّ، لا المسلّح.

هذا ما كان سائدًا في العصر الذهبيّ للمقاومة، رغم شوائبه العديدة وتجاوزاته المشينة، حتى ١٩٨٢. أما في الفترة الأخيرة، وبالذات بعد اتفاقيّة أوسلو وتشكيل قوى أمنٍ فلسطينيّة كبيرة تضطلع بحماية أمن إسرائيل (نظريًّا لتثبت مقدرتَها على استلام زمام الأمن في الدولة «المستقلّة» القادمة)، فقد باتت المقاومة المسلّحة، في عددٍ من وجوهها وأشكالها، إمّا ادّعاءً فارغًا وتجاوزاتٍ تعبّر عن لامسؤوليةٍ فظيعةٍ من سلطةٍ تسعى إلى قبول الفتات من الاحتلال، أو مراهنةً محكومةً بالفشل، ولو بنوايا ثوريةٍ بحقّ، بسبب العزلة التامة التي تفرضها إسرائيلُ ولعدم وجود أفق حقيقيّ للتطوّر يتيح للمقاومة المسلّحة أن تصبح مؤثّرة. وفي موازاة ذلك، وتحديدًا بعد الفشل الذريع لجميع فصائل المقاومة في التصدّي لاجتياح ٢٠٠٢ نفسه،

أوسلو استطاعت تدجينَ قادة الشعب الفلسطينيّ ومثقّفي السلطة وقطاع مهمّ من المؤسسات المموّلة أجنبياً.

باستثناء البطولة الفذّة للمقاومة في مخيّم جنين، أصبحت الغالبيّةُ الساحقةُ من الجماهير الفلسطينيّة في المناطق المحتلّة عام ١٩٦٧ متفرّجة بل غيرَ مبالية بهذا الشكل من أشكال المقاومة. والفلسطينيون من حملة الجنسيّة الإسرائيليّة منفيٌّ دورُهم هم أيضًا، باتفاقٍ إسرائيليّ مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينيّة. وكذلك الوضع بالنسبة إلى الغالبيّة الفلسطينيّة في الشتات وبلدان اللجوء.

وأسوأ ما يميّز مرحلتنا الحاليّة هو انقلابُ المفاهيم الوطنيّة رأسًا على عقب، وشبهُ الانهيار الذي لحق بثقافة المقاومة لدى قطاعاتٍ واسعةٍ من الشعب الفلسطينيّ، بشكل ربما يعدّ الأخطر منذ تأسيس منظمة التحرير وانطلاقة الثورة المعاصرة. فباتت الخيانةُ وجهة نظر؛ والاستجداءُ فيما يسمى زورًا بـ «المفاوضات» نهجَ حياة؛ والمقاومةُ ـ بأشكالها ـ كثقافةٍ ونهج ضروريين للتحرر عبثًا أو نقمةً؛ وحمايةُ المستعمرات واجبًا وطنيّاً من أجل بناء الدولة المستقلة؛ والتنازلُ عن حقّ عودة اللاجئين إلى ديارهم ذكاءً وحنكةً؛ وإقصاءُ فلسطينيي ٤٨ من تعريف الشعب الفلسطينيّ عدمَ تدخّلٍ في شؤون الدول الصديقة، ... إلخ. وفي رأيي أنّ أوسلو كانت هي فعلاً قمةَ العبقريّة الصهيونيّة التي استطاعت من خلالها تدجينَ قادة الشعب الفلسطينيّ، ومثقفي السلطة التابعين لها، وقطاعٍ مهمٍّ من المؤسّسات المموّلة أجنبيّاً ـ وبالذات تلك المنخرطة في «صناعة السلام،» وهي الأكثر رواجًا ـ بحيث باتوا يروْن خلاصَهم ومصالحَهم «الوطنيّة» من منظار الحاجة إلى إقناع «الجانب الآخر» بأننا بشر، وبأننا مسالمون و«حلوين» ننبذ الإرهابَ ونمزّق مواثيقنا ونقمع مقاومينا ونساعد في اغتيالهم أيضًا، وبأننا حضاريّون إلى حدّ استضافتنا مغنّياتٍ إسرائيليّات يغنين «هل غَأَى الحبُّ سُكاغَى،» ونستهلك البضاعةَ الإسرائيليّةَ أكثرَ من منافساتها وإنْ علِمْنا علمَ اليقين أنها في غالبها مسرطنة أو ضارّة، ونغضّ الطرفَ عن مصادرة أراضينا وتدمير منازلنا واقتلاع زيتوننا وهدم مؤسساتنا، بل نرقص الدبكة الشعبيّة بأعلامٍ فلسطينيّة كُتب عليها بالعبريّة «صُنع في إسرائيل»... وكلّ ذلك يهون من أجل عيون «سلام الشجعان.» إنها، بالفعل، أسمى أنواع «الشجاعة»: أن ينسلخ العبدُ عن جلده فيتخيّلَ عبوديّتَه وذلّه حريّةً وإباءً!

❖ ❖ ❖

ولكنّ حزب الله رسم نموذجًا للمقاومة غيّر كلَّ المفاهيم العربيّة عنها. فلم يسبقْ في تاريخنا العربيّ المعاصر أنْ نشأتْ مقاومةٌ ذاتُ شعبيّةٍ هائلة، استطاعت أن تبني شبكةَ خدماتٍ اجتماعيّة وصحّيّة وتعليميّة قلّ نظيرُها، وأن تطوّر في الوقت نفسه قدراتٍ كفاحيّةً غايةً في التعقيد والعصريّة والكفاءة والمهنيّة، مع احترام عميقٍ لقيمة الإنسان وحياته وكرامته (رغم كلّ نقدي لتعاملهم مع المرأة، ونقدي لمرحلةٍ طويلةٍ من مشوارهم مع المختلفين معهم في الفكر). ففصائلُ منظّمة التحرير في عزّها، هي نفسُها، لم تتمتّعْ يومًا بهذ الصفات مجتمعةً (رغم علمانيتها وتقدميّتها مقارنةً بحزب الله)، وبالذات من ناحية القدرة القتاليّة القادرة على ردع رابع أعتى جيشٍ

في العالم؛ وترافق ذلك مع تحمّل حزب الله المسؤوليّة الحقيقيّة تجاه المواطنين وحياتهم الكريمة.

في مراحل تحرير جنوب لبنان منذ سنة ٢٠٠٠، وانتهاءً بانتصار المقاومة الحاسم في كسر العدوان الإسرائيليّ في سنة ٢٠٠٦ (لا معنويّاً فقط، بل عسكريّاً واستخباراتيّاً، وفي مجال الاتصال وأجهزة السيطرة والتحكّم والمبادرة وغيرها أيضًا، وبشكلٍ لا يدع مجالاً للشك)، بزغ نموذجٌ غيرُ مألوف في كتب المقاومة العربيّة للاستعمار، وبات يشكل إلهامًا لقوى المقاومة في فلسطين والعراق وغيرها. ولكنّ العين بصيرة واليد قصيرة. فمن أين لنا، في فلسطين، «سوريا»؟ ومن أين لنا القدراتُ العجيبةُ على التدريب والتسلّح وإعدادِ أرض المعركة بعيدًا عن أنظار العدوّ وعملائه؟ وطبعًا، من أين لنا قيادةٌ كقيادة حزب الله العبقريّة، من دون مبالغة، في التكتيك والتعبئة والحرب النفسيّة وتحويل قوة العدوّ ضعفًا، والحريصة على شعبها ومقدّراته ومستقبله (ولو اختلف بعضُنا، وبقوة، مع توجهها الإيديولوجيّ والاجتماعيّ الإقصائيّ بالمفهوم النسبيّ، وغير المقتنع تمامًا بحريّة التعبير وحريّة الاعتقاد ومساواة المرأة بالرجل وغيرها من الحريّات الأساسيّة)؟

لقد لعب الشهيد عماد مغنيّة ورفاقُه، كما كشفت جريدةُ **الأخبار** مؤخّرًا، دورًا أساسيّاً في نقل بعض خبرة المقاومة اللبنانيّة إلى غزّة وفصائل المقاومة هناك. وقد أثبتت المقاومةُ الفلسطينيّةُ مقدرةً بطوليّةً مشرّفةً على صدّ تقدّم الجيش الإسرائيليّ البرّيّ في غير محورٍ في قطاع غزّة المحاصر، الذي يفتقر إلى معظم أساسيّات العيش. كما استمرّت في إطلاق صواريخها المحليّة الصنع لتصل إلى مواقع استراتيجيّة لدى العدوّ: من مطارات، إلى قواعد صواريخ غير تقليديّة، إلى مناطق صناعات تكنولوجيّة وعسكريّة متطوّرة، كبلدة كريات غات. وقلّصت المقاومة من خسائرها في أرواح المقاتلين وعتادهم البسيط، مقابلَ آلة الحرب الإسرائيليّة الكاسحة. وهذا بحدّ ذاته فاجأ مخطّطي الحرب لدى العدو، وحَرَمَ القيادةَ السياسيّة الإسرائيليّة والأميركيّة، وأتباعَهما من العروبة التي فقدتْ عروبتَها، من النصر السياسيّ الذي كانوا قد حلموا به وخطّطوا له قبل أفول عهد بوش وأولمرت معًا.

ولكنْ ما الثمنُ الإنسانيّ الذي دفعناه في غزّة؟ ألا يدْخل في حسابات تقويم الربح والخسارة على إثر العدوان؟ مرةً ثانية نسأل: لمن نقاوم ولماذا؟ ألا نقاوم ليعيش أطفالُنا، إنْ لم نكن نحن، عيشةً حرّةً كريمةً من دون احتلالٍ ولا اضطهادٍ ولا قمعٍ سياسيّ أو اجتماعيّ أو فكريّ؟ عندما يُذبح ما يقارب ٥٠٠ طفل، ومئاتٌ غيرُهم، خلال ثلاثة أسابيع، وعندما يُحكم على جيلٍ كاملٍ من أطفالنا وكبارنا في غزّة بالمعاناة النفسيّة والجسديّة لعقودٍ قادمة بسبب الحصار الممتدّ لسنين وبسبب العدوان ونتائجهما، فإنه لا بدّ من التساؤل مرةً ثانية: هل كان بالإمكان تفادي كلّ ذلك أو تقليصُه؟ ولكنْ، ألم يمت الناسُ في غزة موتًا بطيئًا بسبب الحصار وسوء التغذية وتلوّث البيئة والتربة والحرمان من المرافق الصحيّة والتعليميّة المعقولة وتفشّي الفقر والبطالة وانعدام فرص التنمية بأشكالها؟ إذا نجحت المقاومة في انتزاع فكّ الحصار عن القطاع نكون قد حقّقنا إنجازًا تاريخيّاً سيساعد في تقليص الكلفة الإنسانيّة على المدى البعيد. ولكنْ يبقى السؤال: ما أفقُ المقاومة في قطاعٍ محاصرٍ من قبل العدوّ من ثلاث جهات، ومربوطٍ بالعالم الخارجيّ فقط من خلال أنفاقٍ تؤدّي إلى أراضي بلد شقيقٍ/نظام معادٍ لا يملك قرارَه المستقلّ؟ بكل إبداع حزب الله، وبكلّ تفاني رجال المقاومة الفلسطينيّة بفصائلها كافّةً، لا يمكن تجاوزُ هذه الجغرافيا الرهيبة، التي تزداد ضيقًا مع انخراط الوحش الأكبر ودول الأطلسيّ بشكل مباشر في حماية «أمن إسرائيل» من أنفاق حماس. فمن أين لنا بـ «سوريا» كرئة تتنفّس بها مقاومتُنا؟

ثم لا بدّ من المقارنة في قدرة الردع بين المقاومة اللبنانيّة، بصواريخها التي تصل حقّاً إلى «ما بعد بعد حيفا،» وبقدراتها العسكريّة المذهلة التي رفعتْ رؤوسنا جميعًا وباتت تؤرّق كلّ مخطّطٍ ومحلّلٍ عسكريّ وسياسيّ إسرائيليّ... وبين الصواريخ الفلسطينيّة البدائيّة نسبيّاً، ذاتِ التأثير النفسيّ أكثر من أيّ شيء، لقلة قدرتها التدميريّة. ولم تُبْدِ المقاومة الفلسطينيّة، للأسف، القدر نفسه من المسؤوليّة العالية والمشرّفة التي اتّسم بها حزبُ الله دومًا تجاه المواطنين ومصالحهم وحياتهم. كما أنّ المقاومة التي لا تميّز بين مدنيين وعسكريين في المعسكر الآخر تثير أسئلة أخلاقيّة وقانونيّة لا يمكننا التهاونُ بها. ولا يهمّ هنا إنْ كانت إسرائيل غيرَ ملتزمة بالقوانين الدوليّة أو الأخلاق؛ فالدولة الصهيونيّة لم تكن يومًا معيارَ الأخلاق لنا ولمقاومتنا! كما أننا الطرف الأضعف الذي يحتاج إلى تأييد الرأي العامّ العالميّ وإلى أن يستند على مبادئ حقوق الإنسان والقانون الدوليّ، رغم إجحافها بحقوقنا وسيطرة الأقوياء على ترجمتها وتطبيقها. فلا خيار لنا إلاّ البناء عليها لحشد تأييدٍ عالميّ لحقوقنا يلتفّ حول عدالة قضيّتنا.

❖ ❖ ❖

هنا نأتي إلى أبرز نصرٍ تحقّق لنا خلال هذه الأسابيع الدامية، الباهظة الثمن الإنسانيّ، وهو بدايةُ التحوّل الدراماتيكيّ لقطاعاتٍ واسعةٍ في الرأي العامّ الأوروبيّ لصالح شعارات «مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها» [أنظر العرض الوجيز لأهمّ تلك الإنجازات في «الملحق،» في نهاية هذا العدد من الآداب]. فللمرّة الأولى، بدأتْ تبرز إرهاصاتٌ قويّةٌ لحركةٍ عالميّةٍ مناهضةٍ لإسرائيل كدولة محتلّةٍ، عنصريّةٍ، مجرمةٍ، مارقةٍ، وخارجةٍ عن القانون، أيْ كما كانت جنوبُ أفريقيا في زمن الأپارتهايد.

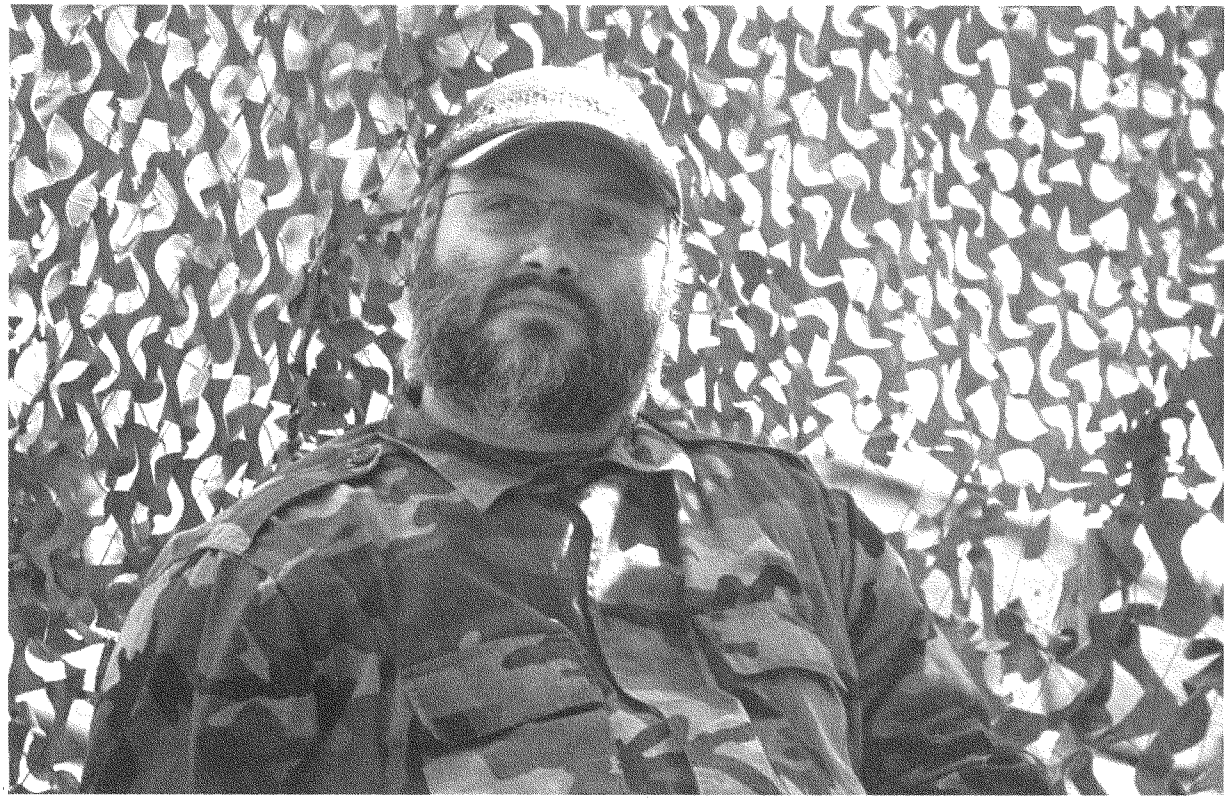

لعب الشهيد عماد مغنيّة ورفاقه دورًا أساسيًا في نقل بعض خبرة المقاومة اللبنانيّة إلى غزّة وفصائل المقاومة هناك.

إنّ من شأن تطوير مقاومة فلسطينيّة شعبيّة تتبنّى مقاطعةَ إسرائيل بشتّى الوسائل، وتستلهم تاريخَنا الغنيّ الحافل بأشكال الكفاح المدنيّ، كما تستلهم تجربة النضال في جنوب أفريقيا، أن يحشد تأييدًا عالميًا فاعلاً ومؤثّرًا وقادرًا على عزل إسرائيل كبدايةٍ لفرض التقهقر عليها. لن ننجح في إقناع الإسرائيليين بشيء؛ فلا مستعمرَ في التاريخ استغنى عن مزاياه الاستعماريّة بالإقناع. وبفرض ميزانِ قوًى جديدٍ على إسرائيل، فإننا سنجبرها على التراجع ونبدأ في تحصيل حقوقنا المكفولة بالقوانين الدوليّة ومبادئ حقوق الإنسان، رغم كلّ مآخذنا على تلك القوانين والمبادئ. ولكنّ علينا أن نجرّ إسرائيل من ميدان المعركة التي تهيمن فيه بقدراتها العسكريّة الهائلة وترتكب فيه الفظائعَ ضدّ أهلنا ومدننا ومخيّماتنا بغطاءٍ سياسيّ – دبلوماسيّ عالميّ وعربيّ و«فلسطيني،» كما أسلفتُ، إلى ميدان معركةٍ جديد، نحن فيه الأقوى بما لا يقاس، لا أخلاقيًا فحسب، بل فعليًا وسياسيًا أيضًا.

لن تستطيع المقاومةُ، في أحسن أحوالها، كما تجسّدَ في غزّة بصورة مشرّفة، أن تفرض الهزيمة على إسرائيل، بل تستطيع فقط الصمودَ في وجهها ومنعها من تركيعنا. وهذا يُعَدّ بطولةً في حدّ ذاته، ولكنه لم يعد كافيًا لتحقيق النصر أو ردع إسرائيل عن إبادة عددٍ هائلٍ من شعبنا، كما يحدث الآن تحت أنظار العالم، ومنذ أكثر من عامٍ ونصف العام في قطاع غزّة. لقد آن الأوانُ لمقاومةٍ يشارك فيها معظمُ شعبنا، لا عبر مشاهدة قناة الجزيرة (مع تقديرنا العالي لدورها الفذّ)، بل بالعمل المقاوم الفعّال المدعوم عالميًا والذي يصون حياةَ الإنسان وكرامتَه لدحر إسرائيل وتحصيل حقّنا في تقرير المصير على أرضنا، وهو ما لا يتحقق سوى بعودة لاجئينا إلى ديارهم وإنهاء الاستعمار الصهيونيّ لأرضنا. وبالنظر إلى تجاربنا الناجحة في الكفاح الشعبيّ، فإني أجزم أننا نستطيع أن ننتصر، ولو في زمن الفوسفور.

فلسطين

عمر البرغوثي

محلّل سياسيّ، وأحد مؤسّسي «الحملة الفلسطينيّة لمقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها» www.BDSmovement.net

غزّة
تأملات وعبر

دعوة الأونسكو إلى طرد إسرائيل والمشاركة في مقاطعتها ثقافيّاً وأكاديميّاً

□ راحيلا مزراحي
ترجمة: سماح إدريس

ليست حربًا بل إبادة

ها قد تحوّل قطاعُ غزّة إلى أكبر معسكر اعتقالٍ في العالم. والوضع يزداد تفاقمًا بالنسبة إلى ١,٥ مليون فلسطينيّ يسكنون هناك، إذ يتمّ تعويقُ (أو منعُ) وصول الماء والدواء والوقود. هذا وقد استفحل سوءُ تغذية الأطفال، وبعضُهم يموت من ضعف العناية الصحيّة، وتعطّلتْ مصادرُ الماء ووسائلُ التصريف. وغدت الأنفاقُ المؤدّية إلى مصر، والمحفورةُ يدويّاً، المتنفَّسَ الوحيدَ لأهالي القطاع.

وما دمنا نتحدّث عن إبادة قطاع غزّة، لا الحرب عليه، فإنّ علينا أن نتذكّر أنّ نصفَ سكّانه لاجئون جرّاء إحدى أكبر جرائم القرن العشرين. وهذه الجريمة لم تكن، هي الأخرى، حربًا، على ما تَزْعم البروپاغندا الصهيونيّة، بل تطهيرٌ عرقيٌّ مدبَّرٌ جرى في فلسطين عام ١٩٤٨، برعاية الانتداب البريطانيّ: فقد هُدمتْ أكثرُ من ٥٠٠ بلدة و١٣ مدينة، وهُجِّر أكثرُ من ٨٠٠ ألف فلسطينيّ، وارتُكبتْ عشراتُ المجازر الشبيهة بمجازر غزّة اليوم إلى حدٍّ بعيد. وذلك يفسِّر لماذا غزّة من أكثر المناطق السكّانيّة كثافةً في العالم. وتحاول إسرائيلُ والولاياتُ المتّحدة والعالمُ الغربيّ بأَسْره أن يَدْفنوا جريمةَ ١٩٤٨، هي وفلسطينَ وشعبَها. وما الانتفاضة اليوم في غزّة إلاّ رفضٌ لدفن هذه الجريمة ولدفن فلسطين.

والحقّ أنّ جريمة ١٩٤٨ الهائلة ليست من الماضي، بل حقيقةٌ مستمرّةٌ منذ ٦٠ عامًا: إذ تستمرّ إلى اليوم سرقةُ ما تبقّى من الأراضي والمياه الفلسطينيّة، وهدمُ مئاتٍ من البيوت الإضافيّة، وتحويلُ القطاع والمدن الفلسطينيّة المحتلّة عام ٦٧ إلى معسكراتِ اعتقال محاطةٍ بجدار إسمنتيّ بعلوّ ثمانية أمتار وبسياجاتٍ مكهربة. كما يستمرّ جعلُ القطاع منطقةً عامرةً بالفقر والجوع واليأس، ويستمرّ سجنُ ثلاثة أجيالٍ من الفلسطينيّين (يتجاوز الأسرى الفلسطينيّون اليوم ١٢,٠٠٠ أسير). وفي موازاة ذلك تجري عمليّةُ استيطانٍ كولونياليّةٌ واسعة: فقد نجحتْ إسرائيل، بمساعدة روسيا والولايات المتّحدة، في تصدير مليون مهاجر إلى فلسطين، أكثرُهم أوروبيّون، أثناء الفترة الممتدّة بين عاميْ ١٩٩٢ و٢٠٠٠. وقد جَرَتْ سرقةُ الأراضي واستعمارُها استنادًا إلى خطابٍ كاذبٍ عن السلام تمّ نشرُه في العالم على يد منظّمات «سلامٍ» إسرائيليّةٍ كاذبةٍ تَستخدم اتفاقيّات أوسلو مطيّةً من أجل إكمالِ محوِ فلسطين.

على المجتمع الدوليّ أن يَكْسر الصمتَ الذي التزمه حيال الجريمة التي اقترفتْها إسرائيلُ عام ١٩٤٨، وأن يبدأ باستخدام كلمة «أپارتهايد» لوصف إسرائيل، وأن يفكّر جدّيّاً في فرض عقوباتٍ عليها متّخذًا ممّا حصل مع جنوب أفريقيا السابقة نموذجًا.

دعوة عاجلة إلى الأونسكو لطرد إسرائيل من عضويّتها فيها

تأسّست الأونسكو، أي المنظّمة التربويّة والعلميّة والثقافيّة التابعة للأمم المتّحدة، عامَ ١٩٤٥ من أجل الإسهام في السِّلم والأمن، وذلك عبر ترويج التعاون الدوليّ في ميادين التربية والعلم والثقافة، بهدف الإعلاء من احترام قيم العدالة وحقوق الإنسان والحرّيّات الأساسيّة المنصوص عليها في وثيقة الأمم المتّحدة. ولذلك، فإنه حين تُستهدف المدارسُ التي تَحْمل علَمَ الأمم المتّحدة، ويُستهدف الأطفالُ، ويُجوَّع شعبٌ بأكمله إلى تخوم الموت، فإنّه لا يكفي أن تحتجّ الأونروا واليونيسف والأونسكو، بل عليها جميعِها أن تُبادرَ إلى تحمُّل مسؤوليّتها عمليّاً. إنّ تاريخ إسرائيل معبَّدٌ بالتدمير والتخريب الوحشيَّيْن المنهجيَّيْن لحضارة الفلسطينيّين وثقافتهم؛ فقبلَ التطهير العرقيّ عاميْ ١٩٤٧ و١٩٤٨، وأثناءه، وبعده في الخمسينيّات، أدّى هدمُ أكثر من ٥٠٠ بلدة و١٣ مدينة إلى تدميرٍ هائلٍ للبنية الثقافيّة الفلسطينيّة بأكملها: من حِرَفٍ وكُتُبٍ ومخطوطاتٍ قديمةٍ وعمارة، بما في ذلك بعضُ الكنائس ومئاتُ المساجد والمقابر. واستمرّت إسرائيل عام ١٩٦٧ في أعمال تدميرها الثقافيّ/الحضاريّ، فأبادت ١٤٠ بلدةً وقريةً إضافيّةً في الجولان السوريّ، وقرًى إضافيّةً في المناطق الفلسطينيّة التي احتلّتها تلك السنة، وقامت بتحريجها محوّلةً إيّاها إلى ما يشْبه «الحدائقَ الوطنيّة»،

اسم عمليّة غزّة «الرصاص المصبوب» مأخوذٌ من بيتِ شعرٍ في أغنيةٍ صهيونيّةٍ للأطفال في عيد «حانوكاه،» وسيُنشده الأطفالُ الإسرائيليون من اليوم فصاعدًا احتفاءً بإبادة غزّة!

وذلك من أجل طمس القرى الفلسطينيّة المنكوبة. كما هَدمتْ إسرائيل عامَ ١٩٦٧ حيّاً كاملاً في القدس القديمة، هو «الحيّ المغربيّ،» وخَرقتِ القانونَ الدوليّ خرقًا وحشيّاً حين أَجْرَت عمليّاتِ تنقيبٍ أركيولوجيّةً ضخمةً في المناطق التي احتلّتها آنذاك. ونتيجةً لذلك طالب أكاديميّون من جنسيّاتٍ مختلفةٍ بطرد إسرائيل من الأونسكو. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ قرّرت الأونسكو إنهاءَ مساعداتها لإسرائيل، واستبعادَها من نشاطات الأونسكو وفِرقها الإقليميّة.

ولكنْ بعد مدّةٍ قصيرة أعادت الأونسكو إلى إسرائيل عضويّتَها الكاملة فيها. غير أنّ إسرائيل واصلتْ عنفَها الثقافيّ، فعمدتْ إلى سرقة المكتبات الفلسطينيّة وأرشيف الأفلام الفلسطينيّة في بيروت أثناء اجتياحها للبنان عامَ ١٩٨٢، وعمدتْ إلى تخريب مركز السكاكيني الثقافيّ في رام الله أثناء غزوها عامَ ٢٠٠٢، وإلى تخريب الآثار الفلسطينيّة إبّان عمليّات الحفر. ومؤخّرًا قامت إسرائيل بأعمال حفرٍ تحت المسجد الأقصى، معرِّضةً أُسُسَه للخطر الشديد.

وأثناء المجازر الإباديّة الأخيرة التي تعرّض لها قطاعُ غزّة، أبادت إسرائيل الجامعةَ الوحيدةَ هناك، وقصفتْ مدارسَ الأمم المتّحدة (وهي من بين ٦٤ مدرسةً كان قد لجأ إليها أطفالٌ ومدنيّون واستهدفها الإسرائيليّون)، وأبادت ٢٧ مسجدًا في بضعة أيّام. والحال أنّ «إبادة المساجد» ليست مصادفةً وإنّما استمرارًا للتدمير المنهجيّ الذي كان قد طاول مئاتِ المساجد أثناء التطهير العرقيّ عام ٤٨، وهي أيضًا جزءٌ من الإيديولوجيا الصهيونيّة التي تستهدف الثقافةَ العربيّة والإسلاميّة، بما في ذلك أوجهُ الثقافة والحضارة لدى العرب اليهود، وكلُّ ذلك باسم «العلمانيّة» و«التقدّم.»

على الأونسكو، الملتزمةِ «بترويج التعاون الدوليّ عبر التربية والعلوم والثقافة بهدف الإعلاء من شأن الاحترام العالميّ للعدالة وحقوق الإنسان والحرّيّات الأساسيّة،» أن تبادر إلى وقف عنف إسرائيل المنهجيّ ضدّ البشريّة وضدّ ثقافتها، وأن تَطْرد إسرائيلَ من عضويّتها.

الدعوة إلى المشاركة في مقاطعة إسرائيل ثقافيّاً وأكاديميّاً

إنّ أيّ شكلٍ من أشكال المقاطعة هو الحدُّ الأدنى الذي يُمْكن أن يقوم به إنسانٌ محترمٌ في مواجهة الجرائم المتواصلة ضدّ البشريّة، وهي جرائمُ ترتكبها إسرائيلُ بدعمٍ غير محدودٍ من الولايات المتّحدة وأوروبا والعالم الغربيّ بأكمله ـ وكلُّها تَستخدم إسرائيلَ قاعدةً عسكريّةً لقمع العالم العربيّ، في الوقت الذي تَنْهب فيه مواردَه الطبيعيّةَ بمساعدة أنظمةٍ/دمًى عربيّةٍ نيو ـ كولونياليّة.

وتحظى المقاطعةُ الثقافيّة والأكاديميّة بأهمّيّةٍ خاصّة. فالجامعات الإسرائيليّة هي أحدُ أهمّ منابع الفكر العنصريّ الصهيونيّ: وهو فكرٌ أشكينازيّ ـ يهوديّ أبيض، وأوروبيّ

التمركز، وكولونياليّ. والحقّ أنّ كلّ الجامعات الإسرائيليّة تتضمّن أقسامًا مكرّسةً للأبحاث الاستشراقيّة عن الشرق الأوسط بوصفها أدواتٍ للسيطرة الكولونياليّة. وثمّة أقسامٌ أخرى تتجاهل الثقافاتِ واللغاتِ غيرَ الغربيّة، والعربيّةَ والإسلاميّةَ، وتتجاهل الأدبَ والموسيقى والتاريخَ والفلسفةَ في هذه الثقافات، وذلك انعكاسٌ لنظرة تلك الأقسام إلى العرب والمسلمين بوصفهم غيرَ متحضّرين وغيرَ مثقّفين. وثمّة أقسامٌ أخرى تطوّر الأسلحةَ: ففي جامعة تل أبيب مثلاً قسمٌ كاملٌ لـ «الدراسات الأمنيّة،» وفيه يتمّ تطويرُ سلاحٍ بهدف الإبادة «الذكيّة» (المحَوْسَبَة) للبشر. وإنّ الجامعات الإسرائيليّة مكرّسةٌ، بأشكالٍ عديدةٍ مختلفة، للسيطرة العسكريّة والسياسيّة على فلسطين والشرق الأوسط. وسببٌ آخر لمقاطعة إسرائيل أكاديميّاً تتمثّل، كما ذكرنا، في أنّها قَصفتْ منذ أسابيع الجامعةَ الوحيدةَ التي يستطيع الساكنُ في غزّة أن يصلَ إليها بسبب الحصار. إنّ مقاطعة الجامعات الإسرائيليّة واجبٌ، إذنْ، على كلّ أكاديميّ شريف.

ثم إنّ الثقافة الإسرائيليّة مكرّسةٌ، هي الأخرى، تكريسًا كاملاً لخدمة النظام الأشكينازيّ الأوروبيّ التمركز الصهيونيّ الكولونياليّ. وثمّة مؤلّفون صهاينة، مثل عاموس عوز وا.ب. يهوشوا ودايفيد غروسمان، يُعتبرون، خطأً، جزءًا ممّا يُسمّى «حركة السلام،» في حين أنّ نصوصَهم ـ وبالأخصّ نصوصهم الخلفيّة المضمرة (subtexts) ـ مليئةٌ بالرسائل الكولونيّالية والعنصريّة. وقد دَعموا بشكلٍ جهيرٍ الإبادةَ في لبنان عام ٢٠٠٦، ويَدْعمون الآن، صامتين، الإبادةَ في غزّة. وما دمنا بصدد الحديث عن الأدب فلنذكّرْ بأنّ إسرائيل اغتالت، بالإضافة إلى المدنيين أطفالاً ونساءً وشيوخًا، أحدَ أبرز الكتّاب الفلسطينيين، ألاَ وهو غسّان كنفاني. كما أنّ الموسيقى الشعبيّة الإسرائيليّة هي الأخرى متجذّرة بعمق في الجيش الإسرائيليّ: ذلك أنّ معظم الموسيقيّين الإسرائيليّين البارزين بدأوا طريقَهم الموسيقيَّ في فرقةٍ موسيقيّةٍ عسكريّة وكانوا يؤدّون أغانيَ عسكريّةً فاشيّة. هذا وقد دأبت الفنونُ الجميلةُ الإسرائيليّة والرقصُ الإسرائيليُّ على سرقة التراث الفلسطينيّ، ثم راحت تَعْرضه في كافّة أرجاء العالم بوصفه «تراثًا يهوديًا قديمًا.» زدْ على ذلك مصادرةَ الطعام الفلسطينيّ العربيّ (كالفلافل) والملابس (كالكوفيّة) وذلك من أجل تصوير كولونياليّة الإسرائيليّين الأوروبيّة وكأنّها استمرارٌ لحركةٍ يهوديّةٍ أصلانيّةٍ قديمةٍ تمتلك ـ هي وحدها ـ أرضَ فلسطين، متجاهلةً الشعب الفلسطينيّ الذي يَمْلِك ذلك الإرثَ.

وفي هذه الأيّام يتجنّد وكلاءُ إسرائيل الثقافيّون في تطبيع جرائم إسرائيل المستمرّة وتطبيع نظامها الأپارتهايديّ المتواصل، وذلك بتصوير الصراع الإسرائيليّ ـ الفلسطينيّ وكأنّه متساوي الكفّتيْن، ضِمْنَ إطار خطابٍ أجوفَ عن السلام، من دون مراعاةٍ للتاريخ، وبهدف تطبيع جريمة ١٩٤٨ في المقام الأوّل ـ ألا وهي محوُ فلسطين على يد دولة «إسرائيل» العنصريّة اليهوديّة. وفي العالم تقدَّم أسمى آياتِ الاحترام إلى العاملين الإسرائيليين في حقل الثقافة بوصفهم «سعاةَ سلام» بدلاً من أن يُنْبَذوا بوصفهم مشاركين نشطين في القمع الصهيونيّ لشعب فلسطين الأصليّ.

هل تَنْجح المقاطعةُ الثقافيّةُ والأكاديميّة لإسرائيل؟ جوابي: ذلك يتوقّف على ما نقصده بـ «تنجح.» فإذا كانت المقاطعة من السَّعَةِ بحيث تؤثّر في حياة الإسرائيليّين اليوميّة، فستنجح عمليّاً. إلاّ أنّ المقاطعة حاليّاً ليست واسعةً بما يكفي. وها هو مغنّي البيتلز المنافق پول ماكارتني قد زار إسرائيلَ مؤخّرًا، وستزورها المغنّيةُ الأفريقيّةُ سيزاريا ايڤورا وكأنّ أفريقيا لا تخضع للقمع الكولونياليّ نفسه (!)، وهناك فنّانون آخرون كثيرون غير هذه وذاك. كما أنّ الفنّانين والموسيقيّين وأمناءَ المتاحف والمكتبات الإسرائيليّين يُدْعَوْن إلى كافّة أرجاء العالم.

ولكنّ ما يتخطّى السؤالَ المباشرَ عن نجاح المقاطعة إنّما هو اتّخاذُ موقفٍ أخلاقيٍّ من الصهيونيّة وجرائمها، والعملُ على تغيير الخطاب العامّ. فالجرائمُ الصهيونيّةُ أفظعُ بكثيرٍ من جرائم نظام الأپارتهايد في جنوب أفريقيا لأنّ الأخير لم يدمِّر ذلك العددَ الهائلَ من القرى والمدن ولم يَطْردْ ٨٠٠ ألف جنوبأفريقيّ. فلماذا العالمُ الغربيّ، ولا سيّما مثقّفوه، صامتون؟

فإلى اليوم ليس هناك اعترافٌ دوليٌّ بأنّ التطهير العرقيّ الفلسطينيّ عام ١٩٤٨ جريمةٌ ضدّ الإنسانيّة. بل ساعد الغربُ منذ ذلك العام على طمس هذه الجريمة. ولو تمّ الاعترافُ بذلك فعلاً فسيكون اعترافًا فارغًا ما لم يبادرْ إلى تحمُّل مسؤوليّة تعويض الضحايا من خسائرهم. والحال أنّه قد بات «موضةً» أن يكتبَ أكاديميّون إسرائيليّون عن النكبة (التطهير العرقيّ عام ٤٨)، فينالوا درجةً جامعيّةً وألقابَ الشرف والاستحقاق والأخلاق لـ «كشفهم» الحقائقَ والمواقفَ، مع أنّ هذه سبق أن كَتَبَ عنها الفلسطينيّون والعربُ طوال أعوامٍ لكنّ أحدًا [في الغرب] لم يكن يريد الاستماعَ إليهم. فما الذي يساعد إسرائيلَ على أن تتمتّع بصفة «الدولة التقدّميّة» في حين أنّها أكثرُ أنظمة العالم ظلمًا وقهرًا؟ إنّ قلّة قليلة من الإسرائيليّين (من بينهم الباحثُ الأكاديميّ إيلان بابيه مثلاً) على استعدادٍ للمطالبة بوضع حدٍّ لمعاناة الضحايا الفلسطينيين وتعويضِ الشعب الفلسطينيّ. بل إنّ بعضَ الأكاديميّين الإسرائيليّين يصادرون الصوتَ الفلسطينيّ ويسرقونه، كما فعلتْ غانيت أنكوري حين كتبتْ عن الفنّ الفلسطينيّ بهدف الفائدة الأكاديميّة الشخصيّة. هؤلاء أيضًا تنبغي مقاطعتهم!

الصهيونيّة عنصريّةٌ فعلاً. وهي إيديولوجيّةٌ يهوديّةٌ، أشكينازيّة، بيضاء، كولونياليّة، أوروبيّةُ التمركز؛ وهذا يعني أنّ على فلسطين، بحسب الصهيونيّة، أن تكون يهوديّةً وأوروبيّةَ التمركز وغيرَ عربيّة. كُلّ مواطنٍ إسرائيليّ يَخْضع لعمليّة غسل الدماغ هذه منذ أن يُبصِر النور: في البيت، والمدرسة، والجامعة، والإعلام العِبْريّ، وفي النصوص. لكنّ ما يَجْعل تلك العمليّةَ فعّالةً جدّاً إنّما هو ما يحدث أساسًا في النصوص الخلفيّة المضْمَرَة (subtexts). بل إنّ اسمَ الإبادة الجماعيّة في غزّة اليوم، ألاَ وهو Oferet Yetzuka (أو الرصاص المصبوب)، مأخوذٌ من بيت شِعر يكرّرُ مرّتين في أغنيةٍ صهيونيّةٍ للأطفال في عيد «حانُوكاه،» وسيُنشده الأطفالُ الإسرائيليّون من اليوم فصاعدًا احتفاءً بإبادة غزّة. والحقّ أنّ قراءةَ العِبْريّة فقط، والاستماعَ إلى العِبْريّة فقط،

معظم الأوروبيين يفكّرون بطريقة صهيونيّة، وإلا فكيف نفسّر منح رابين وبيريز جائزتيْ نوبل للسلام؟!

وتجاهُلَ العربيّة تجاهلاً تامّاً مع أنّ «إسرائيل» في قلب الشرق، كلُّ ذلك يجعل عمليّة غسل الدماغ أسهل. كما أنّ توصّلَ الإسرائيليّين المحدودَ إلى القراءة بالإنكليزيّة لا يغيِّر في الأمر كثيرًا لأنّ معظمَ الصحافة المكتوبة بالإنكليزيّة يتبنّى المفاهيمَ الصهيونيّةَ تبنّيًا كاملاً. وهذا ما يحتِّم ممارسةَ الصهاينة لأشكالٍ مختلفة من التطهير العرقيّ، ويكون السؤالُ الأوحدُ عمّا إذا كان التطهيرُ العرقيّ ألطفَ (مع الصهاينة اليساريين) أو أبشعَ (مع الصهاينة اليمينيين)! إنّ الصهيونيّة ترفض أيّ حقٍّ للفلسطينيين على أرضهم، وترفض حقّهم في العيش في وطنهم، بل تَرْفض الحقوقَ المدنيّة والإنسانيّة الأساسيّة. و«حقّ» الصهيونيّة في فلسطين أسمى من كلّ الاعتبارات الإنسانيّة والأخلاقيّة، وهو ما يعيدنا إلى المفاهيم الصهيونيّة الأساسيّة التي تَعتبر الحضارةَ العربيّةَ والإسلاميّة أدنى مرتبةً، الأمرُ الذي يعني أنّ الفلسطينيين «ليسوا بشرًا تمامًا.» وعليه، فإنّ تحويلَ قطاع غزّة والمدن الفلسطينيّة إلى معسكرات اعتقالٍ أمرٌ مقبولٌ، تمامًا تقريبًا، في إسرائيل، وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى إبادة غزّة حاليّاً. إنّ الثقافة الصهيونيّة الإسرائيليّة قاتلةٌ للفلسطينيين والإسرائيليين معًا؛ لذا وَجَبَتْ مقاطعتُها.

ولكنْ، لسوء الحظّ، يبدو أنّ معظمَ الأوروبيّين، بوصفهم جزءًا من الغرب، يفكّرون بطريقةٍ صهيونيّةٍ. وإلاّ فكيف نُفسِّر إعطاءَ الغرب جائزةَ نوبل للسلام إلى إسحق رابين - وهو أحدُ مهندسي التطهير العرقيّ العشرة في فلسطين عام ١٩٤٨، وأحدُ المطهّرين العرقيّين عامَ ٦٧، وأحدُ المسؤولين المباشرين عن بعض المجازر الكبرى: إحداها (وهي شبيهةٌ بما حصل في غزّة بالأمس القريب) طالت ١٥٠ مدنيّاً كانوا يلتجئون في مسجدٍ في اللّدّ؟ وكيف نفسِّر إعطاءَ الغرب جائزةَ نوبل للسلام إلى شيمون بيريز الذي جَلَب السلاحَ النوويّ إلى الشرق الأوسط؟ أمّا «جائزة نوبل البديلة» فأعطيتْ إلى مجرم حربٍ آخر من مجرمي حرب ١٩٤٨، وهو أوري أڤنيري، الذي بقي صهيونيّاً إلى اليوم ويَعتبر جريمةَ العام ١٩٤٨ مشروعةً. الأرجح أنّ ما يجعل الغربَ يَمْنح الجوائزَ إلى هؤلاء إنّما هو پروپاغاندا هائلةٌ جَرَتْ طوال أعوام وتستند إلى استخدامٍ صهيونيٍّ كلبيٍّ لليهوديّة (مع أنّ الصهيونيّة عقيدةٌ علمانيّة حتى العظم!) وللهولوكوست. وعلى هذا الخطاب أن يُغيِّر.

ثم إنّ هناك فوبيا إسلاميّةً لاعقلانيّةً ضدّ حركة حماس، التي تَرفض أن تَدْفنَ فلسطين، وتَرفض أن تَدَعَ شعبَها يواصل العيشَ بصورةٍ لاإنسانيّة. إنّ قادة حماس محترمون ومخْلصون لشعبهم، لكنّ إسرائيل لن تستمع إليهم لأنّهم يُفكّكون الأسسَ العنصريّةَ للصهيونيّة التي تزعم أنّ «العلمانيّة والتقدّم» يبرِّران إبادةَ الحضارة العربيّة والإسلاميّة.

استمعوا، إذن، إلى ما تقوله حماس. توقّفوا عن الاستماع إلى ما تقوله الصحفُ الغربيّةُ عن حماس؛ فلقد اقترحتْ حماس على إسرائيل حلولاً معقولةً جدّاً في السابق. وتوقّفوا عن الاستماع إلى الدعاية الصهيونيّة الإسرائيليّة!

فلسطين

راحيلا مزراحي

وَقّعتْ قبل عاميْن «النداءَ الفلسطينيّ من أجل مقاطعة إسرائيل.» حصلتْ على شهادةٍ أولى في الفنون الجميلة من أكاديميّة بتسالئيل في القدس، وتُنهي حاليّاً شهادةً ثانيةً في جامعة تل أبيب في «أنماط استملاك الفنّ التشكيليّ الإسرائيليّ للتراث الفلسطينيّ» (راجع الآداب، ٧ ـ ٩، ٢٠٠٨، ص ٤٠ ـ ٥٠). وهذا المقال،

أرضٌ محروقة

□ يسري الأمير

ليست غزّة التي تحترق هي «الأرضَ المحروقة،» بل الفكر الذي يسيطر على الأرض بفعل التصاقه ببُنى السلطة المنشغلة بأسئلة البقاء المجّانيّ.

ليست غزّة الأرضَ المحروقةَ. فبيوتُ صفيحها، التي اشتعلتْ مع الطائرات المهوِّمة في سماءٍ ضيّقة، ستُزْهر من جديد، وستنتقل الحكاياتُ الجديدةُ ممّن بقي حيّاً: من الأطفال المتروكين حول أمّهاتهنّ القتيلات، من رعب صوت الطائرات والصواريخ التي حُفرتْ في ذاكرة المولودين. والأبناء، الذين ضلّ الموتُ طريقَه إليهم، سيخْبرون أبناءهم في ما بعد عن صَدْرِ الأب الذي حاول أن يكون ملجأً من الصواريخ، وعن ترانيم الأمّ المهدهِدة لينامو متغلّبين على زعيق النفّاثات التي حقّقتِ الـ «إنجازات» العسكريّة المزعومة.

ليست غزّة مَنْ يحتاج إلينا: فغزّة تقاتل عن نفسها، وتعلّمنا أنّ حكايات المدن التي أَحرقتْ نفسَها وأبتِ الخضوعَ لم تكن أساطيرَ وهميّةً، وأنّ المشاهدَ السينمائيّة أقلُّ من الواقع، وأنّ الحياةَ تبادلُ أدوارٍ مع الموت.

لغزّةَ موتُها؛ ولنا، نحن الملايين المنتشرةَ من المحيط إلى الخليج، موتُنا الخاصّ. موتُ غزّة سيَجْلب الحياةَ؛ وموتُنا قَتَلَ غزّةَ، وجنينَ، والقدسَ، وعكّا، وحيفا، ويافا، وبغدادَ، وبيروتَ، والخرطومَ، والصومالَ، وقبلها تونس، وطرابلس الغرب، وصنعاء، وعمّان. موتُ غزّة يطهِّر؛ وموتُنا مُعْدٍ متقيِّح.

موتُ غزّة أطفالٌ أشلاء، وشهداء أحياء يتْلون الشهادةَ آخرَ قولٍ قبل الانكفاء، وحكاياتُ بطولةٍ مليئةٌ بالرعب والخوف، وشعورٌ عارمٌ بالوحدة القاتلة وانسدادِ الأفق حول المدد الآتي. أما موتُنا فترفٌ ورفاهيةٌ مصطنعة، وتمسّكٌ بقيمٍ لا نفقهها، وانبطاحٌ لامتناهٍ، وتفاؤليّةٌ عجيبةٌ تشْبه النبتةَ البلاستيكيّةَ في أرضٍ خصبة.

موتُ غزّة واحدٌ، قتلٌ جماعيٌّ من الإنسان الأبيض لفقراء الأرض الأكثر إزعاجًا برفضهم الموتَ، قتلٌ مكلفٌ يرفع من قيمة الإنسان: لكلّ طفلٍ صاروخٌ ثمنُه عشراتُ آلاف الدولارات، لكلّ امرأةٍ تكتيكٌ تكنولوجيٌّ كلّف الملايينَ، لكلّ مقاتلٍ تحرُّكٌ كتيبة. أما موتُنا فمتعدّدُ الوجوه، يجْمعه إبقاؤنا أحياء لتناول وجبةٍ دسمةٍ عند الماكدونالدز، نُتْبعه بكوبِ قهوةٍ لا يشْبه قهوتَنا، وحبّذا لو كان من الستاربكس، حيث نجلس كما نتخيّل الإنسانَ الأبيضَ يجلس، ندخّن خلسةً، ونتناقش في عناوين موتنا كأسباب الحياة والفعل: الحكّام، التخلّف، الذرائعيّة، الانتصار المكنون.

الحكّام

«واسحبْ ظلالكَ عن بلاطِ الحاكمِ العربيّ/حتّى لا يعلّقَها وساما» (محمود درويش)

كم مرّةً سنجرِّب الـ «حكّامَ» العرب؟ كم مرّةً سننظر إليهم على أنّهم الأملُ والمرتجى؟ وإلامَ نبقى نجْمع الدلائلَ والبراهينَ على أنّهم شركاءُ في المجزرة؟ ومن أين أتت كلمةُ «حكّام» في الأساس؟ مَنْ يحْكم منهم؟ ومَن يحْكمون؟

حاكمُ مصر لم يَفتحْ معبرَ رفح، فقامت القيامةُ ضدّه. لكنه كان قد أغلق المعبَر منذ سنتيْن وارتضى أن «يتعاونَ» مع الإسرائيليين، فلماذا صَمَتْنا وقتَها؟ الرجل، على ما ذكرت الصحفُ، أحضر الشركاتِ الهندسيّةَ الأميركيّة لتبحثَ عن أنفاق الحياة التي حفرها أبناءُ غزّة. من الصعب أن تُقْنع طفلاً بأنّ غزّة محاصرةٌ من دولة واحدة وهي (أيْ غزّة) على حدود دولتين. لكنْ هل يقْدر حاكمُ مصر على أن يتّخذ قرارَ فتح المعبر؟ أفاجأنا بشيء؟ أكان عاقلٌ يتصوّر أنّ حسني مبارك سيوقظ التمرّدَ في أبي الهول، وسيَخْبط على الطاولة بيده الغليظة ويقول: «لا أقْبل القتلَ في غزّة! لا أقبل الجوعَ! سأفتح أرضي ملاذًا لمن يريد الهربَ بأطفاله خوفًا عليهم!»؟ ماذا انتظرنا، حقيقةً، منه؟ أسيكون أكثرَ رأفةً بالغزّاويين منه بشعبه الذي حوّله إلى واحدٍ من أفقر شعوب العالم، يشْحذ رغيفَ الخبز في الأرض التي علّمتِ العالمَ

هل «التخلّف» أن يثور أهل غزّة على قتلهم بالمفرّق بسبب الحصار ويؤثروا المقاومة؟!

الزراعةَ، ويستعطي نقطةَ الماء وهو بجانب النيل، فيما مشاريعُ المياه تذهب إلى ملاعب الغولف التي تفرّخ في بلاد الظامئين؟

أين الحكّامُ العرب؟ سؤالٌ طرحتْه الأمّهاتُ الثكالى، سؤالُ العاجزين المحاصرين، فردّدناه نحن الذين نعتبر أنفسَنا خارج الحصار. أين الحكّام العرب؟ غريبٌ السؤالُ! أفهمُه من امرأةٍ لم تَعُدْ لديها حيلةٌ لحماية ابنها المرعوب من هدير الطائرات، لكنّه قمّةُ العبث عندما نطرحه نحن. لقد شمّر أثرياؤهم عن ساعد الجدّ، وانهمكوا في أعمالٍ خيريّة. والملكُ السعوديّ ـ الذي قَدّم، بشحطةِ قلم، مليارات الدولارات تعويضًا من تفجيرات الحادي عشر من أيلول ـ قاد حملةَ تبرّعاتٍ لأهل غزّة في المملكة، دون أن ينسى أن يُفلت علينا «علماءَه» على الشاشات يَعِظوننا بتفوّق الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس... وبأشواط. لكنّ العلماء أنفسَهم كانوا قد داروا في السابق على الراغبين في الجهاد، بيتًا بيتًا، فأقنعوهم بأولويّة الجهاد بالنفس، ثمّ أرسلوهم أكوامًا إلى.. أفغانستان؛ فلربّما الطريقُ أقصرُ إلى هناك مع رحلات السي. آيْ. إيْ.

وكانت فكرةُ الحملة الشعبيّة لامتصاص هول المناظر مبتكرةً وإبداعيّةً إلى درجة أن تبنّاها أميرُ البحرين (الذي ضاقت به الإمارةُ فنَصَّبَ نفسَه ملكًا، في حين بقيتْ زوجتُه أميرة)، فقاد حملةً مثلَها في بلاده. وبالحسّ نفسِه قاد شيوخُ الإمارات الميمونون حملاتٍ في زواريب «مولاتهم» التي يفْخرون بها.

أين الحكّام العرب؟ إنهم متطوّعون الآن في الهلال الأحمر لضيق ذات اليد: فلا نفطٌ عندهم، ولا أموالٌ، ولا جيوشٌ وأسلحةٌ بمئات مليارات الدولارات تهترئ في الصحراء لقلّة الاستعمال. الحكّامُ العرب لا يملكون إلاّ الحسَّ الـ «إنسانيَّ» المرهفَ الذي دَفَعَ بالملك الهاشميّ إلى التبرّع بدمه الملكيّ، أبًا عن جَدّ، لغزّة. فكفى عويلاً وبحثًا عنهم! تلك هي أطولُ لعبة اختباءٍ في تاريخ الشعوب. لكنّ الغريب هو بديهيّةُ السؤال: فاستعمالُ «أل» التعريف قبل النطق بـ «حكّام» يدلّ على البديهيّة في منطق الناس. الحاكم حاكم، لا نعْرف لماذا وكيف، يَعْمل حاكمًا، ويموت حاكمًا، وينْجب حكّامًا، أبناؤه هم الوحيدون المهيّؤون ليكونوا حكّامًا، وأما الناس ـ رجالاً ونساءً ـ فعقيمون وعقيمات لا ينفعون. ليس سهلاً أن تكون الحاكمَ والقائدَ والملهمَ والمفدّى والحكيمَ والرياضيَّ الأولَ وراعيَ العلوم والمواطنَ الأول وزوجَ السيّدة الأولى... وبعد كلّ هذه المهامّ لا غضاضةَ إنْ لم يسمعِ الحاكمُ استغاثاتٍ وأنينًا.

الحكّامُ موتُنا الأول، ليس في وجودهم على العروش وفي القصور، بل في قبولنا هذا الوجودَ والاستكانةِ إليه. وبعد كلّ مصيبةٍ نفاجَأ بموقفهم، فيزداد الفكرُ تبلّدًا. لم يستفدْ كثيرون من رؤية ديكتاتور بغدادَ الرهيب يسقط ولا يدافع عن حكمه، يُقتل ابناهُ ثمّ يرتضي أن يمسكَ به في جحْرٍ جرذٍ دون مقاومة، فيُعلَّق على المشنقة بيد الغزاة وهو ما زال يحْلم بدوْرٍ في خدمتهم كي يعود حاكمًا من جديد. لم نقدّرْ مدى هشاشتهم، ومدى حصدهم ما زرعوه من بديهيّاتِ وجودهم في وعي الناس.

أين الحكّامُ العرب؟ إنهم يمارسون البكاءَ أمام كوندوليسّا رايس، ويكشّرون عن أنيابهم أمام المتظاهرين في الطرق، ونحن ما زلنا نتوهّمهم حكّامًا.

أيّتها السيّدة التي تحتضن طفلَها القتيلَ وتسأل «أين هُمْ؟» إنّهم يبحثون عنكِ ليُرْشدوا الطائراتِ إلى كوخِكِ التنكيّ، الذي يقضّ بصموده أسسَ قصورهم.

التخلّف

«هذه أياتُنا فاقرأ/باسم الفدائيّ الذي خَلَقا/من جزمةٍ أُفُقا» (محمود درويش)

«التخلّف» ظاهرتُنا الجديدة، ووصفُتنا للخلاص من همّ الموقف والفعل. نحن نعاني التخلّفَ، ونحن غيرُ قادرين على القيام بشيء إزاء التقدّم المذهل الذي نراه عند الرجل الأبيض، وعلينا أن ننتهي من «تخلّفنا» بتقليده. فإذا ما نلنا شرفَ التقليد، ومَدَحَتْنا صحيفةٌ بلديّةٌ مغمورةٌ في بلاد الرجل الأبيض، طاش صوابُنا فرحًا وسرورًا، وحَمَلْنا المقالَ شهادةً نعتزّ بها أكثرَ من اعتزازنا بشهادة الدكتوراه الفخريّة التي نلناها إثر تبرّعٍ سخيٍّ قدّمناه إلى جامعةٍ ثريّة، أو اشتريناها من فقيرٍ مصريٍّ رَمَتْ به الأقدارُ في طريقنا فأنجزَ بحثَنا.

عندما تنهمك في قراءة تعليقات القرّاء العرب على مقالات الصحف والمواقع الإلكترونيّة، تذهلك شدّةُ الحساسيّة التي نبديها من فكرة التخلّف. فثمة مقالاتٌ وتعليقاتٌ كثيرة تصف تصرّفاتٍ معيّنةً بـ «التخلّف،» ولذلك لم تجد غضاضةً في وصم رمي الحذاء على رأس الرئيس الأميركيّ بالتخلّف، بل كالت المديحَ لديمقراطيّة المحتلّ التي سمحتْ للصحافيّ العراقيّ برمي مداسه، وانتقدتْ مَنْ أثلجَ الحذاءُ صدرَه.

لكننا بالطبع لم نعدْ إلى مفهوم التخلّف، ولم نَشْرحْ معناه. صار عكسَ التخلّف كياسةُ في التعاطي، ورطانةٌ بكلماتٍ أجنبيّة، وفنجانُ قهوة عند ستاربكس. ولم يَربط هؤلاء المحلّلون التخلّفَ بالأميّة المتعمَّدة لتأبيد سيطرة الحاكم، ولا باهتراء مراكز التعليم التي تُنتج حاملي شهاداتٍ عاطلين عن العمل، ولا بانهيار البنى الاقتصاديّة المدروس، ولا بنمط الإنتاج الريعيّ والاستهلاكيّ. ليست خسارةُ مئات المليارات من الدولارات في البورصات المتضخّمة دليلاً على التخلّف، وليس تخلّفًا انعدامُ فرص العمل والمشاريع الصغيرة للطبقة الوسطى، ولا الفسادُ المستشري بين مكاتبنا الوزارية لتسيير أمور تحالف التجّار والضبّاط وأمراء السلطة! كلّ ذلك ليس تخلّفًا، ولا يقتضي التوقّف عنده! أمّا أن يثورَ أهلُ غزّة على قتلهم بالمفرّق بسبب الحصار، ويؤْثروا المقاومةَ والموتَ الجماعيَّ على ترك رقابهم في أيدي الجلاّدين، فهو رمزٌ لتخلّفنا. أمّا أن نقارعَ الرجلَ الغربيّ، ونخطفَ جنودَه لنحرِّرَ أسرانا، فمغامرةٌ متخلّفة. أمّا أن ندعو إلى تكاملٍ عربيّ، فلغةٌ خشبيّة متخلّفة. أمّا أن نقول إنّ حاكمَ مصر شريكٌ في حصار الغزّاويين، فافتئاتٌ وتجنٍّ وتخلّفٌ فكريّ بالطبع. كما أنّ المقاومين «متخلّفون» لأنّهم لم يبكوا أمام الكاميرات، ولم يَقبّلوا ممثّلةَ الرجل الأبيض السمراء، ولم يَقْبلوا ما قُدّم لهم من فتات الحياة بل طالبوا بحقّهم الكامل فيها. وإنْ رَفَضْنا أن نبقى لاجئين وفقراء وضعفاء بحاجة إلى عطف الرجل الأبيض، وإنْ لم نحبَّ الحياةَ على الطريقة الأميركيّة أو الأوروبيّة، وإنْ قاومْنا بلحمنا وبأجساد أطفالنا، فسنكون متخلّفين نستحقّ أن تَرْجمَنا صحفُ المحبّة البتروليّة ومشتقّاتها بشتّى النعوت.

الخوف من أن تُرمى بالتخلّف، جرّاءَ فكرةٍ رَسَمْناها عن الرجل الأبيض المتطوّر، يتغلغل في رؤوسنا. فإنْ حَمِيَتْ رؤوسُنا لمرأى تقطيع أجساد أطفالنا في غزّة عالجناها بالمزيد من القهوة، وبالتفرنج المضحك، وبالهدوء المصطنع، وحمدنا الله لأنّنا لسنا خشبيّين متخلّفين.

الذرائعيّة

«هم يَسْرقون الآن جلدَك/فاحذرْ ملامحَهمْ وغمْدَك/كم كنتَ وحدكَ يا ابنَ أمّي/يا ابنَ أكثر من أبٍ/كم كنتَ وحدكَ!» (محمود درويش)

الذرائعيّة وصفةٌ بعضنا لرؤية العالم وفهمه وتحليله، وقد بَزَّنا المرحوم ديكارت في الميكانيكيّة الفكريّة التي نرى بها العالم. والذرائعيّة تجعلنا مواطنين سعداء، ومحلّلين مفوّهين أمام شاشات التلفزيون وفي عواميد الصحف. هكذا يقول بعضُنا إنّ إسرائيل هاجمتْ غزّة لأنّ حماس افترَتْ عليها بالصواريخ. غريبةٌ هوايةُ حماس: كلّما وجد اثنان من أعضائها وقتَ فراغ وشعرا بالملل، أَطلقا صاروخًا على البلدات والمستعمَرات الـ «إسرائيليّة»، فضاق صدرُ إسرائيل بتهديد شعبها الآمن، وضاق وعيُ حماس بقوّة إسرائيل، فكان لا بدّ من أن تندلع النارُ بينهما! كذا تقرأ وتسمع. أما بالنسبة إلى مئات المدنيين الذين ذُبحوا، فالأمرُ بسيطٌ وواضح: لمّا كان المقاومون الفلسطينيون يُطْلقون النارَ من بين البيوت، فقد جاء الردّ الإسرائيلي على البيوت!

لم يُجْهِد الإسرائيليون، كما جهد الكثيرُ من الكتّاب العرب، في تبرير هجوم دولتهم على قطاع من أفقر المناطق في العالم، وأكثرها كثافةً سكّانيّة. كذلك لم يُسْرفوا في تقديم تبريراتٍ للقتل من قبيل استخدام تعابير: «الصواريخ العبثيّة،» و«كلفة المقاومة،» و«العجز عن مواجهة القوّة الإسرائيليّة،» و«موازين القوة.» بالطبع هذه الذرائعيّة لا تقدّم ذريعةً مقْنعةً لسبب إطلاق الصواريخ المقاومة، ولا لتصنيعها في الأساس. ولم يَرْبط الإسرائيليون بين إمكان تصنيع الصواريخ وتقلّص العمليّات الاستشهاديّة، بعد أن صار بالإمكان استخدامُ مقذوفاتٍ تحمل الانفجارَ عوضًا عن استخدام الإنسان كصاروخ. وفي عام ٢٠٠٦ صُلبت المقاومةُ اللبنانيّةُ بالذرائعيّة عينها، وتساءل البعض: أمنْ أجل حفنةٍ من المعتقلين اللبنانيين في السجون الإسرائيليّة يُخطف جنديّان وتقع الحربُ؟ لم يسألْ أحدٌ من هؤلاء الذرائعيين يومها عن سبب خوض **إسرائيل** الحربَ من أجل جنديَيْن، ولا عن مقتل ١٦٠ إسرائيليّاً، جلُّهم من الجنود، لتحرير جنديَيْن، ربّما لأنّنا نؤْمن في قرارة نفوسنا بأننا ـ نحن «المتخلّفين» ـ لا نعطي قيمةً لأسْرانا، الأحياءِ والأموات؛ بل إنّنا بالنسبة إلى

أيّهما أقسى وقعًا عليكِ أيتها الأمّ الغزّاويّة: الصواريخُ التي قتلت ابنَكِ الشهيد، أم القولُ إنّه يخدم مشروعًا نوويًا إيرانيًا؟!

الذرائعيين، مدّعي المنطق، نعيش على دماء قتلانا، هوايتُنا أن يُقتل أطفالُنا وتُدمَّر بيوتُنا، ولا سؤالَ عمّن يقتل أطفالَنا أو يدمِّر البيوت.

بهذه الذريعة تُحمَّل حركةُ حماس مسؤوليّةَ الهَوَس الإسرائيليّ بالألعاب الإلكترونيّة الحقيقيّة فوق رؤوسنا. وبهذه الحجّة تُحمَّل فصائلُ المقاومة مسؤوليّةَ انعدام الضمير العالميّ إزاء مشاهدِ قتلنا في الطرقات، وإهانة أجساد موتانا التي لم تستطعْ أن تقارعَ الـ ف ١٦ وصواريخَها. وبهذا تمتقع الوجوهُ وهي ترى المجزرةَ ضدّ شعبٍ يَصْنع صواريخَه من مواسير المياه، فيما تتكدّس أسلحةٌ اشتريناها بمئات مليارات الدولارات.

نلوم الفلسطينيَّ لتمرّده على القوة الصلفة وهو لا يَمْلك ما يحمي أهلَه، ولا نذْكر سببَ وجود الطائرات بجانب الإبل في حظائرنا. نلوم المقاتلَ الذي يُقتل أهلُه، ونحارب تهريبَ الأسلحة إليه، ثمّ يتشدّق بعضُ الكتّاب ومحرّري نشرات التلفزيون بتعداد موازين القوى. يا لَموازين القوى! ماذا لو انهمك النبيُّ محمّد في دراسة موازين القوى؟ أكان سيقارعُ أعظمَ إمبراطوريتيْن يومها ببضع قبائل؟

والذرائعيّة نفسُها تجعل من حماس ذراعًا إيرانيّة. ربّما، مَن يعرف؟ لكنْ، كيف تصل إيرانُ إلى غزّة، وكيف تَقْفز فوق النفوذ المصريّ، لو كان هذا النفوذُ يؤدّي واجباته؟ لا جواب! يقف رجلُ الدين المهيبُ في لبنان، ويحمِّل إسرائيلَ وإيرانَ مسؤوليّةَ المذبحة في غزّة، ويَطْلب المغفرةَ من مصر والسعوديّة. غير المفهوم هنا يصير بديهيّاً يكرّره الناسُ في الطرق بعدما أترعتْهم به التلفزيوناتُ والجرائد. أما كيف، ولماذا، فهذان سؤالان من رجْس الشيطان. ويكتب مثقّفٌ عراقيّ شامتًا لأنّ الجيش الإسرائيليّ سيسحق حماس ـ هكذا! وكأنّنا ملزمون بأن ننسى ارتباطَ هذا الجيش بجذور العصابات الإرهابيّة التي يتحدّر منها. وثمة آخرون يلومون حزبَ الله لأنّه لم يُطْلق الصواريخ، ويتّهمونه بالعمالة والجبن؛ ولكنهم كانوا سيقيمون الدنيا عليه، وبالحجج والذرائع نفسها، لو أَطلقَ مفرقعةً واحدة. ويتشدّق آخر بأنّ حماس جرّت الويلاتِ على غزّة لأنّهم أُمِروا بذلك (من قِبل إيران)، وكأنّ حماس هطلتْ من السماء، أو كأنّ أعضاءها من المرّيخ لا من أبناء غزّة.

أيّهما أقسى وقعًا عليكِ أيّتها الأمُّ الغزّاويةُ التي تَدفن أبناءها: الصواريخُ التي قتلتْهم، أم القولُ إنّ ابنَكِ الشهيدَ يخْدم مشروعًا نوويّاً إيرانيّاً يَبعد آلافَ الكيلومترات، وإغفالُ أيّ ذكرٍ لاحتلالٍ وحصارٍ ومخيّماتٍ بؤسٍ مكتظّةٍ يريدونك أن تموتي فيها لاجئةً إلى الأبد حتّى لا تُكذّبي موازينَ القوى المقدّسة؟

الانتصار المكنون

«يا سيّد الكينونة المتحوّلة/يا سيّدَ الجمرة/يا سيّد الشعلة/ما أوسعَ الثورة/ما أضيقَ الرحلة/ما أكبَر الفكرة/ما أصغرَ الدولة!» (محمود درويش)

تتغيّر الصورة في شرقنا منذ فترة. فلم يعد مستقبلُنا هو ما يُكتب في دهاليز وزارات خارجيّة الرجل الأبيض، بل صارت أزقّةُ مارون الراس ومخيّماتُ الفقراء

في غزّة هي التي تخطّ بصمود رجالها ونسائها مسوَّداتِ المستقبل الآتي. تتغيّر الدنيا: فنرى الجيشَ الإسرائيليّ يتخلّى عن رحلات الكشّافة التأديبيّة لاحتلال المدن وتدمير الجيوش، وينعكف إلى قرى لبنان القريبة محاولاً إخضاعَها من دون نتيجة؛ ثم يستدير إلى الضفة وغزّة، أيْ ما كان يعتبره جزءًا من أرضه، ليقتلَ الناسَ من دون أن يستطيعَ كسرَ إرادة المواجهة لديهم. ولئن كنّا نقف مع المتسفسائلين بأنّ الزمن الإسرائيليّ بدأ الانحدارَ المحتومَ بنيوياً، إلا أنّ نبرةَ الانتصار المفرقِعة، التي يُظْهرها عددٌ كبيرٌ من الكتّاب والمعلّقين، لا توحي بالكثير من الطمأنينة.

صمودُنا أسطوريّ؟ صحيح. الجيش الإسرائيليّ فَقَدَ هالتَه؟ صحيح. التحامُ المقاومة بالناس وانبثاقُها منهم بعد تجارب جيوش الأنظمة الفاشلة؟ صحيح، وأكثر من صحيح. لكنّ الحديثَ عن انتصار، والتبشيرَ به، فقط لأنّنا استطعنا تقديمَ آلاف الشهداء من دون أن نتراجع؟ هنا لا بدّ من الوقوف قليلاً.

الادّعاء بالنصر المظفّر الآن فيه الكثيرُ من البداهة المسطّحة. وهذا لا يقلّل من قيمة صمود مقاتلينا وشعبنا، ولا من أهميّة الإنجازات العسكريّة التي تُبْطل الكثيرَ من عوامل تفوّق الجيش الإسرائيليّ وتَدْفع بقادته إلى طلب أهلينا في بيوتهم تعويضًا من إخفاقهم في النيل من مقاتلينا. لقد حطّمت المقاومةُ الفلسطينيّةُ واللبنانيّةُ أسطورةً زُرعتْ في أذهان آبائنا، وأورثوها إيّانا، وهي أنّ الوقوفَ في وجه القوة العسكريّة الإسرائيليّة غيرُ ممكن، وكأنّ أحدًا من الحكّام العرب منذ عقود حاول ذلك بصدقٍ وتصميمٍ ووعيٍ وحداثة. الإسرائيليون غنموا في حروبهم مع جيوشنا فكرةَ الرعب منهم، واستفادوا من فساد الأنظمة، وتردُّدِها بين إرادة المقاومة وإغراءِ المفاوضات. ثم بدأ العملُ الفلسطينيُّ المقاوم، فكانت بذرةُ الإرادة في كسر احتكار القوّة. وتلتْه المقاومةُ اللبنانيّةُ التي أظهرتْ لكلّ المراهنين على العجز أنّ القوّة تفْرض واقعَها، وأنّ الإسرائيليّ يمكن أن يتراجعَ عندما نُظهر الإرادةَ ونُعدّ العدّةَ ونستعدّ لدفع ثمن بناء مستقبلنا. أمّا الانتفاضة الفلسطينيّة الأولى، ثمّ الثانية التي وأدتْها الفوضى في العمل المسلّح وأزاحت عنها الكثيرَ من الفعل الشعبيّ المباشر، فقد نقلتا المعركةَ إلى أرضٍ حرامٍ بالنسبة إلى الإسرائيليين الذين باتوا مجْبرين على التنازل عن بعضِ ما كانوا يعتبرونه من المحرّمات.

وها غزّة الآن تكتب فصلاً جديدًا من فصول انهيار لامنطق القوّة العسكريّة القابع فوق رقاب الملايين من البشر. وهكذا نرى الجيشَ «الذي لا يُقهر» يَعتبر المجزرةَ بسلاح الطيران إنجازًا نوعيّاً، ويَعتبر تدميرَ البيوت فوق رؤوس أصحابها تطوّرًا في بنية العمل العسكريّ. وأما جنودُه فمذعورون على أبواب المدن والمخيّمات، لا يبارحون دبّاباتِهم، ويشكون من أنّ المُحاصَرين يحاولون بإصرارٍ أن يخطفوهم. ويتذكّر الجنودُ الإسرائيليون حكاياتِ آبائهم عن مئات الجنود العرب الرافعين أعلامًا بيضاءَ، والمستسلمين بمجرّد سماعهم صريرَ جنازير الدبّابات الإسرائيليّة. ويتساءل الجنودُ الإسرائيليون: أين ذلك العربيُّ، بلفاحه الأبيض المرفوع فوق اليدين المرفوعتين، في أرضٍ محاصرةٍ من كلّ الاتّجاهات؟ بل ربّما باتوا يشكّكون في روايات آبائهم.

إنّ ذلك كلّه ـ إحباطَ الفعل الإسرائيليّ، ومن خلفه الرجل الأبيض، عن التفرّد بصناعة مستقبلنا ـ لَهُوَ بداياتُ النصر. لكنّه ما زال في دائرة ردّ الفعل. فنحن ما زلنا نخطّط للدفاع عن أنفسنا، ولردع العدوان، ولمنعه من تحقيق أهدافه؛ وهذا تطوّرٌ هائلٌ في بنية وعينا. لكنّ الانتصار يتطلّب القيامَ بالفعل، والتخطيطَ للخطوات اللازمة، وتقديمَ برنامج عملٍ للناس كي تشاركَ في صنع مستقبلها.

لقد حرّرت المقاومةُ لبنانَ من الاحتلال الإسرائيليّ لمعظم أراضيها، لكنّها عجزتْ عن تقديم خطابٍ جامعٍ يَستثمر إنجازَ التحرير، وهذا ما مكّن الكثيرين من محاصرتها ومضايقتها. إنّما يبقى السؤال: ماذا بعد التحرير؟ ما البرنامج السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ؟ ما النظامُ الذي سيسود؟ كذلك الأمرُ في فلسطين: هناك تقوم المقاومةُ على عدّة فصائل، معظمُها الآن دينيّ، فما هو برنامجُها؟ وما هي خطّتُها؟ وكيف يشارك الناسُ فيها ويسعوْن إلى تنفيذها وتطويرها؟ لو قدّمنا تصوّرًا افتراضيّاً بأنّ حماس سيطرتْ على الضفّة وغزّة وفَرضت اعترافَ العالم بدولةٍ فلسطينيّة، فالسؤال هو عن اليوم التالي. النموذج الذي فرضتْه حماس على المستوى الاجتماعيّ في غزّة ليس مشجّعًا، فهل هذا هو ما سيسود؟ ماذا نفعل بالفلسطينيين غير المسلمين؟ وبغير الحمساويين؟ ما خطّة حماس الاجتماعيّة التربويّة الاقتصاديّة؟

أتبدو الأسئلة السابقة باهتةً تحت وقع المجزرة؟ ليس هذا هو المقصود؛ ففي هذه اللحظات بوركتْ قدمُ كلّ مقاتلٍ في أرض غزّة. لكنّ السؤال أقدمُ من هذين الأسبوعين، وأقدمُ من إنجاز حرب تمّوز ٢٠٠٦. السؤال عن ربط التحرير بالتحرّر، عن الحداثة المطلوبة لنفض تخلّف بنية المجتمع العربي بمؤسّساته الحكوميّة والقضائيّة والاقتصاديّة والتربويّة. الحداثة الأهمّ التي أظهرتْها قوةُ المقاومة حتّى الآن اقتصرتْ على الأداء العسكريّ (أو ما يخدمه ويدور في فلكه إعلاميّاً وتربويّاً وتعبويّاً وخدماتٍ اجتماعيّة)، وقد أرسى نظريّتَها حزبُ الله، ونقلها إلى المقاومة الفلسطينيّة: فمِنْ وسائلَ بدائيّةٍ وقلّةِ موارد السلاح، استطاع الفكرُ الحداثويّ العسكريّ أن يبتدعَ طرائقَ واستراتيجيّاتٍ إبداعيّة تقلّل من الهوّة التسليحيّة بين هذه القوى والتفوّق التسلّحيّ الإسرائيليّ. غير أنّ هذا الإبداع الحداثويّ لم ينتقلْ إلى بنى المقاومة الأخرى، على صعيد الخطاب السياسيّ والبرنامج الاجتماعيّ غيرِ الموجّه إلى تعزيز العسكرة والتعبئة. فأين برنامج حزب الله، أو حماس، أو الجهاد، المُعلن في أدبيّاته لا ممارساته غير مقاومة الاحتلال وتحرير الأرض؟

غيابُ هذه الرؤية يبقي هذه القوى في معرض ردّ الفعل. وهي تقوم بهذه المهمّة على أكمل وجه، مصحوبةً بتأييد طيفٍ كبيرٍ من شارعها المحلّي والشارع العربيّ، نتيجةً لسنواتٍ طويلةٍ من القهر والذلّ والعربدة الإسرائيليّة وغيابِ النظام العربيّ عن

يثورون لمذبحة غزّة اليوم، كما ثاروا لجنين وبيروت، ثم يعودون وأيديهم خالية الوفاض من هدفٍ جامعٍ محدّد.

دائرة الفعل (غير التنكيل بالشعوب). من هنا يصير الحديثُ البديهيُّ عند الكثير من الكتّاب والمعلّقين عن الانتصار المكنون ضربًا من الصورة القاتمة التي تُحْبط الناسَ في كلّ الوطن العربيّ عن الحراك خارج الحدود الزمنيّة للمجزرة. فحصارُ غزّة لم يبدأ اليوم، ومأساةُ فلسطين عمرُها أكثرُ من ستّين عامًا، وتواطؤ الأنظمة جزءٌ من بنيتها، والقهرُ والظلمُ وقمعُ الناس في الطرق كانت دأبَها وديدنَها ووسيلتَها للبقاء. وغيابُ الخطاب السياسيّ والبرنامج الجامع يبقي الفقراء والمقهورين تحت طائلة ردّ الفعل لا أكثر: يثورون لمذبحة غزّة اليوم، كما ثاروا لجنين وبيروت، وربّما غدًا سيثورون لمذبحةٍ جديدة، ومن ثمّ يعودون إلى قهرهم اليوميّ، ولسانُ حالهم يكفر بالرؤساء، وأيديهم خاليةُ الوفاض من هدفٍ جامعٍ محدّد.

هل يمكن تحريرُ الأرض، وهؤلاء القابضون على أعناقنا ما زالوا في عروشهم نائمين؟ هل يمكن جمعُ الناس في برنامج ذي نفسٍ طائفيّ محدّد؟ هل تمْكن دعوةُ الناس إلى تأسيس نظام قمعيّ جديد يستبدلون به نظامًا قمعيّاً متواطئًا مع الاحتلال؟ مادامت هذه الأسئلة بلا جواب ممّن يجترحون المعجزاتِ في مقاومتهم، فإنّنا ما زلنا بعيدين عن التبشير بالنصر. جلُّ ما عندنا أنّ معدنَ الناس الصحيح يَظْهر في مقاوماتٍ أسطوريّة، وفي حكاياتِ بطولةٍ تَفْخر الشعوبُ بروايتها.

ملاحظة ختاميّة

بلغ عددُ شهداء غزّة المعلن، حتّى وقت كتابة هذا المقال، أكثرَ من ١١٠٠ شهيد، من دون معرفة عدد جميع مَنْ بقي تحت الأنقاض. وفي هذا الوقت، أقرّ الكونغرس الأميركيّ إعطاءَ شحنات أسلحة لإسرائيل. ومازال الموقفُ الرسميّ الأوروبيّ على غيبوبته حيال المجزرة. وتحاول إسرائيلُ فرضَ قرار مجلس الأمن بالقوة. ويتابع الرجلُ الأبيض تقاريرَ عن معاملة... الفيلة في تايلاند، وفي وقت فراغه يسأل ببلاهة: «لماذا يكرهوننا؟». وغزّة ما زالت تقاتل، ولا تنتظر قممًا عربيّةً تنتظر بدوْرها أنباءَ سقوط غزّة.

إنّهم لا يعرفون أنّ غزة لا تَسْقط، وإنْ دَخَلَها المحتلّ. فمَنْ يقاتل بلحمه لا يسقط. الساقطُ الساقطُ هو مَنْ دأب على ترك مدننا وقرانا تقاتل وحدَها!

بيروت

يسري الأمير

كاتب لبناني ومندوب الآداب في بيروت.

ملاحظاتٌ يتأكّلها الغضبُ لحظةَ المجزرة

□ موفّق نيربيّة

أعاد العدوانُ الإسرائيليّ على غزّة جميعَ المقولات القديمة إلى الواجهة، ما صحّ منها وما لم يصحّ. ومرةً أخرى، تَرْجع هتافاتُ الانتصار لتغمرَ الأجواء، كما حدث في كلّ حربٍ سابقة، بما في ذلك هزيمةُ حزيران نفسُها. وينتظر المحلِّلون والكتّابُ هدوءَ العاصفة حتى يُدْلوا بأفكارهم، التي لن تكون أقلَّ سوداويّةً.

❖ ❖ ❖

تَرْجع مفاهيمُ «النهضة» و«الوطنيّة» و«التحرّر» و«الهويّة» و«التقدّم» إلى مؤخّرة العقل أو إلى مقدّمته، وكلُّها في أجواء غزّة وأزقّتها المزدحمة.

فهنالك محاولةٌ أولى للنهضة مُتّفقٌ عليها، فيها من العوامل الإكزوتيكيّة ما كان يمكن أن يكفيها أو يلغّمها: من غربة محمد علي، إلى استيراده للتعليم والنُّظُم والتقنيّات والأسلحة. وفيها بسماركيّةٌ لم تستطعْ فرضَ برنامجها ومقاومةَ العالم والعثمانيين في الوقت نفسه، لكنّ بقاياها وحدها كانت إرثًا حميدًا لمن جاء بعدها. وهناك محاولةٌ ثانيةٌ غيرُ مُتّفق عليها بحجم الأولى، ترتبط باسم عبد الناصر؛ ولعلّ من ميزاتها المختلفة: ارتباطَها بالهويّة العربيّة ـ القوميّة حكّامًا وشعوبًا، وعمقَها الاجتماعيّ، وتآلفَها مع العالم ربّما أكثرَ من تآلفها مع بنى الحكم العربيّة المعاصرة لها. والمحاولتان كلتاهما نجحتا في أشياء، وفشلتا في أشياء، وتداخلتا مع مشاريع أخرى، تعايشتْ معهما أو سبقتْهما أو لحقتْ بهما.

فبين المحاولتين كان الاستعمارُ، والتحديثُ من طريقه، حيث تقدَّمَ مشروعٌ ليبراليٌّ متوازٍ مع ظهور النزعة الوطنيّة (القُطْريّة) ـ التحرريّة. ولم يستطع هذا المشروع النجاح بالطبع ـ لضعف مقوّماته الأصيلة من جهة، ولغلبة الحركة الموازية القويّة من جهةٍ أخرى ـ بل اندفع خطوةً أخرى باتّجاهٍ قوميّ أشدّ طموحًا ومخيّلةً.

وحين أنهت هزيمةُ حزيران المحاولةَ الثانيةَ، التي قاومتْ قليلاً بمزيد من الجنوح إلى اليسار مع بيان ١١ مارس الناصريّ، ومع بيانات حرب التحرير الشعبيّة في سوريا والجزائر، تقدّمت الليبراليّةُ من جديد، بثوبٍ أو أثوابٍ جديدة... أو إنها لم تحظَ بليبراليّتها إلاّ في الفترة الأولى، وبتداخلٍ شديدٍ مع الديكتاتوريّة، أَفْسح لها طريقًا مفتوحًا ومُعبّدًا.

إذنْ، كانت هنالك محاولةٌ للنهضة الأخرى من طريق الاستبداد الأحدث... أو هي ليست كذلك، ولا يَحْزنون! لكنّ ما بقي من تلك الفترة ليس ما خلّفتْه في غير مكانٍ وحسب، بل تنهيدات الترحّم على الرئيس الراحل صدّام حسين أيضًا، وذلك في لحظات الشدّة واليأس والحاجة والعوز.

لعلّ مفهومَ «النهضة» بذاته، وكما هو سائد، قد أصبح مضادّاً لها بذاتها، وعقبةً في طريق انفتاح الفكر على الجديد المنتج. ولم يعد مجْديًا إلاّ البناءُ على المتوفّر بين الأيدي، من «وطنيّات» كانت تُتّهم بالقُطْريّة، ودولٍ مدنيّةٍ حديثةٍ لا تتعارض مع التأسيس على الروابط القوميّة والمصالح المتبادلة، حاليّاً أو في المستقبل.

في ذلك السياق الأخير، حدثتْ تحوّلاتٌ مهمّةٌ للوعي القوميّ ـ العربي، وبرز الإسلامُ السياسيّ رابطةً تغْريه بشدّ أوتاره وزيادة حدّة أصواته وتُعمِّق من «عصبيّته» الخلدونيّة. فقد استمدّ الإسلامُ السياسيّ قوتَه الدافعةَ من فشل المحاولة النهضويّة الثانية، وهزيمةِ حزيران، ومن أجواء احتوائه وتقديم التسهيلات له من حكوماتٍ ما بعد تلك المحاولة، ثم من وهج ثورة الخمينيّ في إيران. وتقدَّمَ إلى أمام، وربّما إلى المقدّمة في بعض الحقول.

وهكذا فإنّه ما كان من أهل الفكر القوميّ، في ضعفهم وحاجتهم، إلاّ الاندفاعُ وتجريبُ التحالف مع الحركة الإسلاميّة، لمواجهة تشتّت حالتهم الشعبيّة وتراجعها، ومواجهةِ «الخارج» الذي يشكّل خطرًا رئيسًا. فأصبحت البنى التي تَجْمع بين مفهومَي «القوميّ» و«الإسلاميّ» شائعةً ومتنوّعةً تنوُّعَ دوافع مَنْ يعمل في حقلها: من البطالة السياسيّة، إلى محاولة تبريد النزعة الإسلاميّة، إلى لجم صراعات

القول بأن العدّ التصاعديّ للخسائر الإسرائيليّة قد بدأ، وإنّ الخسائر الغزّاويّة الهائلة قربانٌ للحريّة وطريق للفردوس، موافقةٌ طوعيّة على عنصريّة الإسرائيليين وبعض الغرب.

الأديان والمذاهب، فإلى تدعيم الحكّام حيث يَلْزم الأمر، وإلى مواجهة إسرائيل والولايات المتحدة.. انتهاءً بتحرير فلسطين.

إذا كان صحيحًا أنّ الديانة بين الناس تشكّل أحدَ أهمّ اللواصق القوميّة الممكنة، فإنها ليست بديلاً لها (كلّها) في تأسيس الدولة المدنيّة الحديثة ووعيها الاجتماعيّ. وحين يستبدل القوميّون العروبةَ بالنزعة الدينيّة استبدالاً كاملاً، بعد مرحلةٍ سابقةٍ من الصراع معها بطريقة خاطئة، فإنهم يكونون قد تخلّوْا عن طموحاتهم، وتراجعوا إلى حيث يُرضيهم ويحفظُ كرامتَهم وآخرتَهم، من دون مسؤوليّةٍ اجتماعيّةٍ وشعبيّةٍ وتاريخيّة.

لقد ظهر حزبُ الله وحماس في الفترة المشار إليها، وظهرت المقاومةُ العراقيّة بعد ذلك بعقديْن. وهذه هي الظواهرُ الثلاث التي يمْكن احتسابُها بشكلٍ رئيسٍ على مواجهة شعوب المنطقة بالعنفِ ردّاً على العنف الخارجيّ، مع وجود عوامل داخليّة متفاوتة الحجم. لكنّ تلك الظواهر كلّها تنطبق عليها مقولةُ انسحاب العروبة إلى الدين، وانتقال القوميّة إلى حقل الإسلام السياسيّ وميدانِ نفوذه وسحرِه. وإذا كانت المذهبيّة دورًا محليّاً في العراق ولبنان، فهي ليست كذلك في فلسطين. ولا يعني ذلك أنّ التعارض السنّيّ ـ الشيعيّ، بمفهومه الإقليميّ والشامل، لا يلعب دورًا متفاوتًا، وإنْ في ما يخصّ حماس نفسَها. وتلك مفارقة تُضعف شعبيّةَ حماس، ولو بحدودٍ بسيطة، تَحدّ منها حرارةُ الصراع مع إسرائيل، وخروجُ عدوانيّتها عن كلّ المقاييس الإنسانيّة والسياسيّة، قبل النظر في مسّها لحقوق الشعب الفلسطيني.

❖ ❖ ❖

ومفهومُ المفارقة يأخذنا إلى نشأة حماس من بين الإخوان المسلمين، ثم إلى تشكيل كتائب القسّام بالتحديد. فلطالما كان نشاطُ «الإخوان» في غزّة قائمًا على المثلّث المعروف الذي يعطي لشموليّتهم شكلَها وطعمَها الخاصّيْن، وهو: الدعوةُ بين الناس (وإنْ أمكن على منابر الجوامع)، وتأسيسُ الجمعيّات والجماعات الخيريّة والإنسانيّة المتنوّعة، والعملُ السياسيّ. بل إنّ هذا المظهر الثالث للنشاط كان ضعيفًا قياسًا إلى غيره: فالقوم يؤْمنون ـ أو كانوا يؤْمنون ـ بأنّ إصلاحَ البشر خيرٌ وأبقى، وأنّ «التغييرَ» سوف يكون أسهلَ ما إنْ تمْلك الناسَ وتأسر قلوبَهم وتحرّك إرادتَهم.

لكنّ «حركة المقاومة الإسلاميّة» ظهرتْ مع الانتفاضة الأولى التي تمثّل غالبًا أهمَّ وأنجحَ ظواهر العمل السياسيّ العربيّ في النصف الثاني من القرن العشرين. وعملتْ حماس مع غيرها بفعّاليّةٍ ممتازةٍ وناجحة، جعلتْها تنتقل دراماتيكيّاً في الانتفاضة الثانية إلى مقدّمة المقاومة المسلّحة. واختصارًا للوقت والجهد فقد بادرتْ إلى القيام بعمليّات مختلفة تساعد على التجييش والتعبئة وتصعيدِ الصراع إلى المستوى الدينيّ، بل الوجوديّ.

غير أنّ ما قامت به حماس من احتكارٍ للسلطة بالعنف في غزّة، ثمّ من تطهيرٍ شموليّ للمؤسّسات القائمة التي كانت مكسبًا للفلسطينيين كلّهم، وحجبِها للآخر

بوسائل متعدّدة، ثم ميلِها إلى الظهور بمظهر «الفارس الوحيد» الذي لا يمشي شيءٌ ولا يتوقّفُ إلاّ إنْ تمّ التشاورُ معها: كلُّ ذلك باعثٌ على اليأس والإحباط ونسيان مسألة المستقبل. وتلك مسؤوليّةٌ لا ينبغي الاستهانةُ بها، وإنْ في ظلّ الإخلاص والبطولة والفداء.

لكننا لا ننسى أيضًا أنّ الحالة التي آلت إليها «فتح،» وقيادةُ منظّمة التحرير الفلسطينيّة، والسلطةُ الوطنيّةُ، هي المسؤولةُ بالأساس عمّا وصلتْ إليه الأحوال. وحين يَظْهر قادةٌ من تلك الهياكل ـ إنْ ظهروا ـ ويتكلّمون ببعض انتقادٍ لما يجري، فلا صدقيّةَ لكلامهم ما لم يبدؤوا بانتقاد أنفسهم وهجرانِ حالتهم البائسة. وحالتُهم تلك إنما هي نتيجةٌ للترهّل، ولسياسات الإعاشات والمحسوبيّات والرواتب والمنافع والفساد، فضلاً عن الاسترخاء أمام أيّ مكسبٍ وطنيّ بسيطٍ وسهلٍ ومحدود. لكنّ محرّكَها الأكبر هو الهيمنة على القرار من قِبل دائرةٍ ضيّقة، تؤثّر في تركيبها عواملُ مختلفةٌ: أوّلُها المالُ، ثم العلاقاتُ الخارجيّة المفصليّة، فالقوةُ الأمنيّةُ وما يتفرّع منها وذلك كلّه من دون أساسٍ كافٍ للادّعاء بوجود المؤسّساتيّة في الممارسة. وإذا كانت هنالك إشاراتٌ تتردّد بقوةٍ حول علاقة حماس ببعض القوى الإقليميّة، فإنه لا يمكن نفيُ مثل هذا الاتهام أيضًا عن تلك الأطراف، بغضّ النظر عن مضمونِ ما ينتج سياسيّاً من كلٍّ من هاتيْن العلاقتيْن.

إنّ عجزَ قيادات حركة «فتح» عن عقد مؤتمرها لفترةٍ طويلةٍ نتيجةٌ طبيعيّةٌ لهذه الحالة، ولن تستطيع أن تخرجَ منها إلاّ بهزّةٍ سياسيّةٍ وتنظيميّةٍ تكفي للتغلّب على قوة الكبح والتواني والخلود إلى المكاسب المضمونة العابرة. ولن تستطيع مجزرةُ غزّة أن تفعل شيئًا بهذا الخصوص كما يبدو، لأنّ شبكة العنكبوت ما زالت قادرة على منع الحركة من الحركة. هنا، ربما لا يختلف الوضعُ في إطار منظمة التحرير عنه في فتح، بل لعلّه أصعب قليلاً.

الخطأُ والامتحانُ الأكبرُ كان ألاّ تتحمّل السلطةُ و«فتح» فوزَ حماس المُستَحَقَّ في الانتخابات، من الناحية العمليّة. بل كان هذا ميدانًا لقبول الدغدغة الدوليّة والعربيّة التي شَجّعتْ مثلَ هذا الموقف وأغرت به. هذه التجربة هي الفرصة الضائعة الكبرى التي لن يكون سهلاً مراجعتُها وتلافيها، ولن تكفي مجزرةُ غزّة لذلك أيضًا.

والنتيجة الطبيعيّة هي الفراغُ وضعفُ الروح الكفاحيّة عند القيادات. ومن الطبيعيّ أن ينتقل ذلك بشدة إلى «القواعد،» ليصبح الفردُ في إطار سياسيّ آخر مساويًا في نشاطه وعزيمته وكفاءته لعدّةِ أفرادٍ في دائرة السلطة الواسعة العريضة.

مثلُ هذا الفراغ والضعف هو ما أتاح للقوى الأكثر راديكاليّةً ودأبًا وجديّةً أن تبرز، بما تستحقّه، أو بما لا تستحقّه، من الناحية الحسابيّة قبل النوعيّة.

❖ ❖ ❖

الآن، نحن أمام العدوان والمجزرة واستفحالِ نتائج الحصار حتى حدود الحالة الصوماليّة، بل ربّما أشدّ وأصعب. ودرجةُ متابعة المسألة لا توحي بمخرج يؤمّن أهلَ غزة ويحميهم من مثل هذا المصير. وما تزال السياسة غائبة ومنكفئة على الأرض.

قيادة حماس تُقْسم الأيمانَ المغلّظةَ بأنها انتصرت. وإسرائيل تقول إنها حقّقتْ أهدافها. وأهلُ غزّة يموتون.

في الأهداف المباشرة، يُقال إنّ الأهداف الإسرائيليّة تتركّز على وقف إطلاق الصواريخ وتسرُّبِ السلاح والذخائر عبر أنفاق رفح. ومن الأهداف الأخرى: إضعافُ حكومة غزّة أو إنهاؤها، وإطلاقُ الجنديّ الإسرائيليّ الأسير، وتمهيدُ الوضع لقيام حالةٍ أقلّ ضررًا بإسرائيل. وهذا، يقول البعض أيضًا، لن يكون.

وحين يجري الحديثُ عن الخسائر، يُقال إنّ «العدّ التصاعديّ» للخسائر الإسرائيليّة قد بدأ، وأنّ الخسائر الغزّاويّة الهائلة ما هي إلاّ قربانٌ للحريّة والشهادة وطريقٌ للفردوس. وفي ذلك أخطرُ المضامين وأشدُّها ضررًا، لأنه موافقةٌ طوعيّةٌ على عنصريّة الإسرائيليين وبعض الغرب، وعلى نظرتهم المزدرية بحقّ الحياة والحريّة والمساواة. فكأنما موتُ إسرائيليٍّ واحدٍ مقابلَ مائة فلسطينيّ معادلةٌ صحيحةٌ ورابحة (يقول البعض: ذلك لأنّ موت اليهوديّ أو أسْره مسألةٌ بالغةُ الحساسيّة لجماعته!).

كما تَبرز الأفكارُ التي تخْدم الاعترافَ بحماس ناطقًا باسم القضيّة الفلسطينيّة؛ وهنا خطرٌ جديد. فلقد تقدّمت القضيّة الفلسطينيّة شوطًا كبيرًا في السبعينيّات حين أقرّ العرب ـ وبخاصةٍ المصريّون الذين كانوا يديرون غزّة، والأردنيّون الذين كانت الضفّةُ جزءًا من مملكتهم ـ بأنّ منظمة التحرير هي الممثّل الشرعيّ الوحيد للفلسطينيين. وسوف يَدْفع العربُ والفلسطينيون كثيرًا مقابلَ تحوّل طرف (واحد) ـ ولو كان حماس ـ إلى ممثّل للقضيّة والشعب: فهذه مغامرةٌ سياسيّةٌ غيرُ محدودة العواقب، وعلى حماس وعلى مَنْ يغريها بذلك أن يراجعَ حساباتِه فيها، ولا يتورّطَ أكثرَ في هذا الاتجاه. ولا يعني هذا استخفافًا بقوّة حماس وقدراتها، ولا بروحها الكفاحيّة، ولا بتضحياتها من أجل فلسطين. بل إن كلّ نجاح تحقّقه، في القضيّة المحدّدة الاتجاه، لا بالأهداف العابرة، هو نجاح ليس للفلسطينيين وحدهم، بل للعرب جميعًا. لكنّ هنالك مغامرةً كبيرةً قد يَخْسر الفلسطينيون فيها حلمَ الدولة الفلسطينيّة المستقلّة، التي يقول بعضُ العالم إنهم أثبتوا أنهم غيرُ أهلٍ له، ويقول بعضُنا إنّ ذلك مكسبٌ وربحٌ عميمٌ لهم يعيدهم إلى هدف تحرير فلسطين من النهر إلى البحر. وهذا قد يكون هدفًا عميقًا للعدوان، يختفي خلف الأهداف المعلنة.

رغم كلّ ذلك، يبقى الأمرَ الملحَّ الآن هو وقفُ المجزرة، وتنكّبُ طريق الحوار والوحدة، وإنقاذُ ما يمكن إنقاذُه. عندئذٍ سوف نتحدث أيضًا عن الانتصار.. ونَزيد.

دمشق

موفّق نيربيّة

كاتب من سوريا.

حصان فلسطينيّ أحمر

□ أحمد الخميسي

(قصة)

بالأمس رأيتُ بين الحقول حصانًا أحمر، فظننتُ أنه حلمٌ لأنه لم يسبقْ لأحد أنْ شاهد حصانًا بهذا اللون، ولم يأتِ ذكرُ شيءٍ كهذا من قبل. كان يشْبه بقعةً حمراءَ كبيرةً في الأفق الشاحب، وتمنّيتُ لو أنني رَمَحْتُ في الخلاء الواسع بحصانٍ كهذا.

خطوتُ بحذرٍ شديدٍ نحوه، لكنني ما إنْ تحرّكتُ حتى رفع قائمتيْه الأماميتيْن عاليًا، متراجعًا، ملفوفًا بهالةٍ حمراءَ خفيفة. تجمّدتُ مكاني، فعاد إلى وقفته، ومال برأسه على الأرض يَلُوك أعشابًا حمراء، ثم عَطَفَ رقبتَه نحوي قليلاً ليريَني عينيْن واسعتيْن مثلَ فنجانيْن ممتلئيْن بالدم. فأطلقتُ ساقيَّ للريح عائدًا إلى مشارف القرية، وقلبي يدقّ بقوة.

حين رويْتُ لجدّتي في المساء ما رأيتُه، وأنني تمنّيتُ لو أنّ لي حصانًا كهذا، حَكَتْ لي حكايتَه. قالت إنّ الخيل أحسّت ذاتَ يوم بأنها مهدَّدة بالزوال، فتوافدتْ من كلّ بقاع الأرض إلى غابةٍ معزولة، واتّفقتْ على أنها بحاجة إلى حصانٍ نادرِ التكوين، يُلْهم الخيلَ كلَّها الشجاعةَ والصبرَ في الدفاع عن وجودها. وأضاف حصانُ الحكمة العجوز: «لا بدّ أن يكون أحمرَ ليصبح مرئيّاً في أيّ مكانٍ أو زمان.» وقال حصانُ الخبرة: «لكنّ حصانًا كهذا بحاجة إلى بحيْراتٍ من الدم عامًا بعد عام، يغطّيه من قوائمه حتى عرْفه، ليبقى لونُه ثابتًا في جلده.» وقالت فرسٌ ولّادة: «لا بدّ من أن يولدَ في حريقٍ يلقّنه الثباتَ في اللهب بلا فزع.» وقالت فرسٌ مرْضِعة: «لا بدّ، إذن، من أن يأكل أعشابًا حمراءَ، ويشرب ماءً أحمرَ، ويَلْعق ظلالَ الحرائق الحمراء من فوق الأرض الساخنة؛ فعندئذ لن يمحوَ لونَه شيء.» وغمغم الحصانُ الشاعرُ: «سيكون وحيدًا، فردًا، لا مهرة له ولا ولد. لكنه إذا صَهَلَ من أعالي الجبال، أيقظَ في الخيلِ كلِّها محبّةَ الريح والحريّة!»

تلك الليلة كانت باردةً، فالتصقتُ بجدّتي التي فركتْ يديْها فوق الحطب المتّقد، والظلالُ تتأرجح على وجهها. ثم أكملتْ:

ولم تكن هناك في العالم أرضٌ مثلُ غزّة تجري فيها الدماءُ بهذه الوفرة. وفيها وُلِدَ المهْر، وشبّ. إذا خبا بين البيوت والدكاكين في أزقّتها المبلّطة، تشبّعتْ قوائمُه بالدم؛ وإنْ ركض إلى الميادين المفتوحة، غطّت صدرَه ورقبتَه الدماءُ من ورش العمّال وأفرانِ الخبز؛ وحين يَرْمَحُ بعيدًا هاربًا إلى الحقول، يغْمره الأفقُ بالدم. وأصبح المهرُ حصانًا فردًا، وخرجت الخيلُ كلُّها تشقّ طريقَها إليه: من بحر البقر، وشبعا، وصبرا، وشاتيلا، ورام الله، والجولان. خيولٌ من كلّ الأزمنة، تَخْمش الأرضَ بقوائمها أمام الحصان الأحمر، تتململ، تميل برقابها، وترجع على مهل.

وتابعتْ جدّتي:

الكثيرون مثلكَ يروْن ذلك الحصانَ بعيدًا متوهّجًا، ويتمنّوْن لو كان لديهم مثله. لكنّ أحدًا لا يفكّر كم أنهكه قدَرُه الذي كُتِبَ عليه أن يكون نادرًا، ووحيدًا، وأن يتحمّلَ في سبيل ذلك ألمًا فوق طاقة الخيل كلّها. فإذا تمكّنتَ من امتطاء صهوته، فسترى العالمَ كلَّه باللون الأحمر: الأشجار الخضراء، قطراتُ المطر، أثوابُ الزفاف البيضاء... كلّها تصبح حمراء.

سألتُ جدّتي بلهفة: ألا يزول عذابُه؟

قالت: ربّما يعود إلى لون الخيول الأخرى إذا استراح من لون الحريق.

قلتُ: وسيكون جميلاً كما أراه الآن؟

لزمتْ جدّتي الصمتَ لحظةً ثم قالت: تأخّر الوقتُ وحان موعدُ النوم.

القاهرة

أحمد الخميسي

كاتب مصريّ ومراسل الآداب في القاهرة.

الكتابة تحت النار

□ نزار حسن

إنها المرة الثالثة التي يُطلب منّي فيها أن أكتبَ «تحت النار»: الأولى كانت في حرب الخليج، والثانية أثناء حرب تمّوز ٢٠٠٦. هل استعملتُ المصطلحاتِ الصحيحةَ لتعريف الحروب التي خاضتها إسرائيلُ وأمريكا على شعوبنا؟ أيصحّ أن نستخدمَ، بعد الأفعال التي قَتلتْ فيها أمريكا وإسرائيلُ هذا الكمَّ الهائلَ من البشر، فعلَ «خاضت» ـ وهو الفعلُ الذي نستخدمه في سياقٍ آخر، غيرِ وحشيّ، كما في قولنا: «خاض فريقُ ريال مدريد مباراةً ضدّ مايوركا»؟ وكيف إذا كتبتُ أنّ «الحربَ دائرةٌ بين إسرائيل وحماس،» وذلك بعد أن تعرّضتُ لاتهاماتٍ لأني قلتُ عن حرب صيف ٢٠٠٦ إنها «حربٌ بين حزب الله وإسرائيل»؟ أعترفُ بأني أخاف قنّاصي الكلمات. فما المصطلح، إذن، الذي سأستعملُه لوصف الحرب الدائرة منذ ٢٠٠٨/١٢/٢٧ في جنوب فلسطين، أو «جنوب إسرائيل،» أو ما استحدثه بعضُ «المثقفين» بدلاً من فلسطين، وأعني: «فلسطين التاريخيّة»؟

أأُصرّ على إنها «حربُ إسرائيل على حماس» (وهو ما تستخدمه إسرائيلُ في وصفها)، إذ لا حرب لإسرائيل، مثلاً، على «فتح» أو على «حركة أبناء البلد» في أمّ الفحم؟ أأستعمل مصطلحَ «الحرب على غزّة،» أو «الهجوم على غزّة»؟

أبمكان التعريف أن تسبّبَه (أو تدلَّ عليه) وجهةُ النظر والتحليل والاستنتاج، من دون الأهواء والرغبات؟ فإذا قلنا مثلاً إنّ هذه الحرب «حربٌ على حماس،» فقد يقول أحدُهم إنّ هذا لا يصوِّر النوايا والأهدافَ الحقيقيّة لهذه الحرب الإسرائيليّة، ألا وهي تصفيةُ القضيّة الفلسطينيّة؛ وقد يقول أيضًا إنّ ذلك يطابق ما تزعمه إسرائيلُ من أنّ حماس منظمةٌ إرهابيّةٌ تَستخدم الفلسطينيين المدنيين دروعًا بشريّةً تحتمي بهم، فتعرّضُ حياتَهم للخطر. ولكنّ هناك منْ هم ضدّ إسرائيل فعلاً، ومع الشعب الفلسطينيّ، ومع ذلك فإنهم يصِفون هذه الحربَ بأنها «حربٌ على حماس»؛ ودليلُهم على ذلك أنّ حماس اليوم هي كبرى منظّمات الشعب الفلسطينيّ، وحاملةُ لهمومه الوطنيّة ولمقاومته، كما حملتْ «فتح» وتنظيماتٌ أخرى ذلك في السابق، ولذلك فإنّ تصفيتها حجّةٌ لتصفية الشعب الفلسطينيّ وقضيّته. وقد يذهبون إلى أنّ الحرب هي على حماس لأنها مقاومة، وأنه من دون المقاومة لا يمْكن أن يحقّقَ الشعبُ الفلسطينيُّ دولته، وأنّ «فتح» أضاعت ما كان لديها من رصيد لأنها دخلتْ عبثيّةَ المفاوضات التي قادتْها تحت ما يسمّى «السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة،» وأنّ هذه الأخيرة وعبثيّة المفاوضات جذّرتا الاحتلالَ بدلاً من أن تقتلعاه.

التسميات والكلمات تحيّرني وأنا أفكّر وأكتب عمّا يدور الآن في جنوب فلسطين. فالكتابة عن فلسطين، منذ أوسلو، وضعتِ الكلماتِ تحت النار على الدوام: في زمن المفاوضات، كما في زمن التهدئة، وزمن الحرب. ذلك لأنّ شيئًا ما أَخرج الكلماتِ من قاموس الفهم، ومن قدرتها على تحليل الأشياء وتعريفها. ولعلّ التاريخَ الدقيقَ لعبثيّة الكلمات بدأ حين «بَشّر» بعضُ الفلسطينيين بحلٍّ للقضيّة الفلسطينيّة على شكل إقامة دولة بدلاً من تحرير الإنسان والوطن، وجاء ذلك تحت شعار «إقامة الدولة الفلسطينيّة على كلّ شبرٍ يحرَّر من فلسطين» (كحلّ مرحليّ). فقد كان من البديهيّ، إذنْ، أن تتحوّل حركةُ التحرير الوطنيّة الفلسطينيّة إلى مؤسّسةٍ إستراتيجيتُها السلطة، أي الدولة؛ والدولة، لا تحريرُ الإنسان والوطن، هي ذروةُ السلطة ومتعتُها. ومع ذلك لم تحصلْ فتح ومنظمةُ التحرير (بقيادة فتح) على دولة، بل على سلطةٍ تستمدّ شرعيتَها ووجودَها من رغبة دولٍ أُخرى أوّلُها إسرائيل، التي هي نقيضُ أيّ حركة تحرّر فلسطينيّة! والحال أنّ الدولة (لا السلطة) ليست إلاّ نتيجةً لتحرير البشر والوطن. وهكذا، لم تأتِ الدولةُ الفلسطينيّةُ وضاع التحرير معًا، ليس فقط لدى الفلسطينيين بل لدى العرب ممّن انضمّوا إلى قضيّة فلسطين لإيمانهم بأنّ الوطن العربيّ، شأن فلسطين، ما زال في مرحلة التحرير الوطنيّ من الحكم الأجنبيّ ذي القناع العربيّ.

ولكنْ، وفي أحلك الأوقات، وتحديدًا حين ضاع التحريرُ وحركتُه بعد حرب لبنان سنة ١٩٨٢، حدث شيءٌ عجيبٌ مع فلسطين. وهذا الشيء كان سببَه التناقضُ بين السياسة النسبيّة، أو «الواقعيّة السياسيّة،» أيْ ما تَسْمح به موازينُ القوى في وضع راهن، من جهة... وبين السياسيّ بالمطلق من جهةٍ ثانية، أيْ ما يصبو إليه البشرُ كبشَر، وأعني بذلك: «الحلمَ السياسيّ» بأن يكون هناك عدلٌ ومساواةٌ وازدهارٌ وحريّةٌ وتحريرٌ.

لقد كانت حربُ لبنان سنه ١٩٨٢ تحطيمًا لحركة التحرر الوطنيّ الفلسطينيّ، ولكنها كانت تحطيمًا أيضًا لحركة التحرر الوطنيّ العربيّ، وتحطيمًا ـ بالذات ـ

حين انتحرتْ حركة فتح بعد أوسلو، وُلدتْ نواةُ حركة التحرّر العربيّ بشقّيْها: الشماليّ (حزب اللّه) والجنوبيّ (حماس).

للتلاحم بين حركتَي التحرّر الفلسطينيّة واللبنانيّة. غير أنه، في موازاة نجاح إسرائيل ومَنْ يوافقها الرأيَ والمصالحَ في العالم العربيّ في تحطيم حركتي التحرّر، وفي موازاة انخراط بعض الفلسطينيين في اتفاقيّة أوسلو، وبعضِ العرب في «عمليّة السلام،» بدأتْ تتبلور في فلسطين ولبنان حركتا تحرّرٍ (تحرير) على شكليْن من فحوى واحدة. كانت حماس هي الرائدة في ذلك على الساحة الفلسطينيّة، وحزبُ الله هو الرائد على الساحة العربيّة (هل فَكَّرَ أحدٌ مرةً في أنّ جماهير هاتيْن الحركتيْن وقيادتيْهما هي من الطبقات الأكثر تضرّرًا في أوطانها، وأعني اللاجئين في فلسطين والشيعة في لبنان، إلى حدّ أنّ الصراع الطبقيّ يستحقّ أن يكون من بين أدوات التفكير في هاتين الحالتين؟).

الحركتان كلتاهما وُلدتا من رحم «فتح» أو منظمة التحرير الفلسطينيّة. وقَوْلي بريادتهما لا يستند إلى أعمالهما العسكريّة (فلحركة «فتح» أيضًا جناحٌ عسكريّ، هو «كتائبُ الأقصى،» ويشْهد الجميعُ لأفعاله وبطولاته)، وإنما لموقفهما من إسرائيل. فحماس لم تعترفْ بإسرائيل، بل لم تُبْدِ استعدادًا لذلك (وإنْ في المرحلة القادمة على الأقلّ، التي يبدو أنها أطولُ كثيرًا ممّا هو متوقّع)؛ ذلك لأنّ الاعترافَ بإسرائيل نقيضٌ للتحرير، وهي بذلك ردّت إلى حركة التحرر الوطنيّ شيئًا مهمّاً من اعتبارها. ولا يختلف حزبُ الله عن حماس في هذه الناحية. ولكنّ حماس (كما حزبُ الله) دخلتْ أيضًا ساحةَ الانتخابات، فمارستْ هي أيضًا التناقضَ الذي يحدث مِنْ تقاطع السياسة النسبيّة بالسياسة المطلقة، حين مارستْ ما يسمّى «السياسةَ الواقعيّة،» فانتُخبتْ وأصبحت القوةَ الحاكمةَ الشرعيّة الفلسطينيّة بالمفهوم الديمقراطيّ للحكم في الدول الغربيّة أو الأنظمة الديمقراطيّة، ومن دون أن تتنازلَ عن فحواها كحركة تحرر لا تعترف بإسرائيل. وهذه، لا نزعةُ حماس وحزب الله الإسلاميّة، هي «مشكلتُهما» في عيون أعدائهما.

كانت أوسلو تتويجًا لتحالفٍ إسرائيليّ وغربيّ وعربيّ لسحق حركة فتح ومنظمة التحرير، كحركة تحرر وطنيّ فلسطينيّ استطاعت أن تحتضن العناصرَ العربيّة التي آمنتْ بالتحرّر العربيّ الوطنيّ. وحين انتحر شكلُ هذا التحرّر (ممثَّلاً في حركة فتح) وُلدتْ نواةُ حركة التحرّر العربيّ بشقّيْها: الشماليّ (حزب الله)، والجنوبيّ (حماس)، وبعقيدةٍ إسلاميّة. وعليه، فإنّه لا يجوز لمن يدّعي أنه يريد العدالةَ والسياسةَ المطلقة أن يشترطَ، لتأييده حركاتِ التحرر الوطنيّ، شكلَ عقيدتها ومضمونَها، إلاّ إذا كان ضدّ مبدإ التحرر الوطنيّ! فالعقيدة تشترط فقط شكلَ **الدولة** وفحواها. وعليه، فإنّ الحربَ على حزب الله في صيف ٢٠٠٦، والحربَ الآن على حماس، هي الحربُ ذاتُها على نواة حركة التحرر الوطنيّ العربيّ، التي عقيدتُها اليوم عقيدةٌ إسلاميّة؛ وهي لا تختلف أبدًا عن الحرب سنة ١٩٨٢ في لبنان ضدّ المقاومة الفلسطينيّة والحركة الوطنيّة اللبنانيّة. ولكنْ يبقى أنّ نجاحَ هذه الحركات ليس منوطًا بإرادة إسرائيل وعربها وأمريكا وغربها، بل منوطٌ بما إذا كانت حركاتِ تحرّرٍ وطنيّ بغطاءِ دولة/سلطة (انتخابات)، أمْ كانت دولة/سلطة بغطاءِ حركاتِ تحرّر وطنيّ!

وأخيرًا، ولمّا كانت كلُّ كتابة متأثّرةً بأهواء كاتبها، فكلّي أملٌ في أن يبقى أصحابُ وعي حركة التحرر الوطنيّ في هاتين الحركتين متغلّبين على ذوي الميول السلطويّة، لكي أستطيع أن أعيشَ يومًا ما ـ أنا أو مَن سيأتي بعد جيلٍ أو جيليْن ـ في وطني العربيّ أو فلسطين: فوضويّاً، ملحِدًا، شهوانيّاً، ذاتيّاً، واجتماعيّاً، يتحمّل مسؤوليّةَ ما يمليه عليه أن يكون فردًا في مجتمعٍ ذي عقائدَ مختلفة.

الناصرة

نزار حسن

سينمائيّ من الناصرة ـ فلسطين.

الدوحة أَمِ الكويت: كُلُّ الطرق لا تؤدّي إلى غزّة!

□ محمد فرج

كان متوقّعًا أن تكشف الحربُ على غزّة عن تواطؤ الأنظمة العربيّة أو تخاذلها، ولكنْ لم يكن متوقّعًا أن يمارس بعضُها الغباءَ في هذا التوقيت تحديدًا. المحور القطريّ ـ السوريّ دعا إلى قمّةٍ خاصةٍ لتدارس الأحداث في غزّة؛ وهذا يُعتبر، ضمن سقوف الأنظمة العربيّة، أكثرَ منطقيّة، وينطوي على تقدّمٍ جديدٍ لهذا المحور على الخارطة السياسيّة العربيّة، إذا ما أضيف إليه الدورُ الذي لعبتْه قطر في الشأن اللبنانيّ. أما المحور السعوديّ ـ المصريّ فاراد أن يستغلّ انعقادَ القمّة الاقتصاديّة في الكويت ليَحرم المحورَ الأولَ أيَّ دورٍ جديدٍ في المنطقة، ولوقف مسلسل تراجعه المستمرّ ـ بدءًا بالإخفاق السعوديّ في اتفاق مكة وانتهاءً بحرج الموقف المصريّ في أحداث غزّة.

تصالحُ الإيديولوجيّ على حساب الجغرافيّ

الحرب على غزّة أثبتتْ تصالحَ الإيديولوجيّ على حساب الجغرافيّ. ففنزويلا، ومن بعدها بوليفيا، قطعتا العلاقات الدبلوماسيّة مع إسرائيل من دون الحاجة إلى عقد قمّةٍ لاتينيّةٍ ولو مصغّرة. أما الأنظمة العربيّة فمنغمسة في خلافات خارج إطار المنطقة المعنيّة. فما هي نوايا أنظمةٍ تختلف على مكان القمّة وزعامتها؟! هل مصر في حاجة إلى قمّة عربيّة كي تفتح معبر رفح؟ إنْ كان الأمرُ كذلك فلها كلّ الاحترام على قدرتها على الاستفادة من عامل الوقت! هل السعوديّة في حاجة إلى قمّة عربيّة لتصرّح عن ندمها عن المبادرة العربيّة؟ وإذا كانت قطر وسوريا قد أولتا القمّة كلَّ هذا الاهتمام، فما المانع من أن تتّخذا مواقفَ أكثرَ ثوريّةً وحزمًا توازي، على أقلّ تقدير، الموقفَ الأمريكيّ الجنوبيّ؟

القمم انعقدتْ، فماذا صدر عنها؟ تنديدٌ جديدٌ خجول، أو شديدُ اللهجة في أحسن الأحوال؟ هل سيبادر الخليجُ إلى سياسةٍ تعامليّةٍ نفطيّةٍ جديدة؟ هل ستَفتح مصر بابَ الدعم اللوجستيّ لغزّة بكلّ أشكاله؟ هل سيكون الدعمُ المحدودُ مغطّى، كالعادة، بتحفّظاتٍ عن حماس؟ الأنظمة العربيّة ما زالت تعتبر أنّ المعركة مع الكيان الصهيونيّ لا بدّ من أن تمرّ بنفق حماس؛ وهذه هي الستارة الرماديّة التي تختبئ خلفها من شعوبها. غير أنّ المعركة مع الكيان المذكور معركة مباشرة، ولها أدواتها وساحاتُها المباشرة. وإنْ كان لا بدّ لهذه المعركة من نفق، فهو بالتأكيد نفقُ المعركة ضد الإمبرياليّة العالميّة التي تجعل من إسرائيل أداةً وظيفيّةً فعّالةً في الشرق الأوسط.

خصومة في مرحلة وقف الهدم

بدأت الخصومة، إنْ جازت التسمية، بين المحور السعوديّ – المصريّ والمحور السوريّ – القطريّ منطلقةً على قاعدة التزعّم والتسيّد التي اعتادتها الأنظمةُ العربيّة. المحوران في هذه المرحلة مختلفان. الأول، المتمسّك باعتداله إلى حدّ الثمالة، حاول بالدرجة الأولى، من خلال المبادرة المصريّة المهملة، تثبيتَ نفسه بوّابةَ استجداءٍ وحيدةً للكيان الصهيونيّ، ففشل فشلاً ذريعًا، ولاسيّما بعد أن أوقفتْ إسرائيلُ إطلاق النار من جانب واحد ومن دون العودة إلى مجريات المبادرة المصريّة. إلاّ أنّ هذا الحدث لم يشكّلْ تحوّلاً جذريّاً في أداء هذا المحور، وحاول ـ باستخدام النهج ذاته ـ معاتبةَ إسرائيل من خلال شرم الشيخ.

المحور الثاني كان ذا حظّ أوفر في هذه المرحلة بحكم استخدامه أداةً خطابيّةً أكثرَ حدّةً نسبيّاً وأقلَّ عرضةً لسخط الشارع العربيّ. غير أنّ القمّة الخاصّة التي بادر إليها لم تتجاوز الإسهالَ الخطابيّ، مع عدم اتخاذ خطوات أوّليّة لبرنامج شامل، يكون عنوانَه العريضَ هو الخصومةُ الحقيقيّةُ والمستمرّة للكيان الصهيونيّ.

مصالحة في مرحلة إعادة الإعمار

بعد أن توقّف إطلاقُ النار، بالطريقة الإسرائيليّة، تنفّس المحورُ الأول، ووجد مخرجًا من الأسئلة المتكررة حول جدوى مبادرته ونهجه ككلّ. أما المحور الثاني فلم يعد لخطاباته سياقٌ زمنيّ واقعيّ: فهو لا يملك برنامجًا خاصّاً بالعداء مع الكيان

إذا كانت الحدود مغلقة باتجاه غزّة، فالباب مفتوح لحملات مقاطعة الشركات الداعمة لإسرائيل (الصورة: كاترپيلر هدمتْ مخيّم جنين وقتلتْ ريتشيل كوري).

الصهيونيّ، ويعتمد ردّات الفعل لتسيير خطاباته. هنا كانت نقطة الاتفاق: المحور الأول يجيد اللعبَ في المزادات، والمحور الثاني يجيد المصادقةَ عليها! ولكنْ ماذا لو تعرّضتْ غزّة بعد عام إلى عدوانٍ جديد؟ مَن سيوقف الهدم؟ مَن سيعيد الإعمار؟

مصالحة في أيّ اتّجاه؟

الخصومة كانت قائمة بين طرفيْن، لا نهجيْن، وإلاّ لما تمّت المصالحةُ أساسًا. فلو كان الثاني ثوريّاً على حساب الأول المتراجع، لأبرز نقاطًا خلافيّةً هامّةً في آليّة التعامل مع الكيان الصهيونيّ؛ ولو كان الأولُ عقلانيّاً على حساب الثاني المتهوّر، لأبرز نقاطًا خلافيّةً في السياق ذاته!

المصالحة قامت على أرضيّة الزعامات والتسويات الأشبه بالصلح العشائريّ؛ فكلا المحوريْن يفسح المجالَ للآخر للعب في ساحته. والقمّة العربيّة وما أفرزتْه من «مصالحة» بين «المحورين» أكّدتا أنّ سقف الدعم العربيّ لا يتجاوز الخطاباتِ البرّاقة.

كلمة أخيرة: طبيعة المعركة

المعركة الآن، باختصار، هي معركةُ الشعوب الحرّة الرافضة للظلم، مصحوبةً بمعركتها في تعرية الأنظمة المتآمرة وتغييرها. إذا كانت الحدود مغلقةً باتجاه غزّة، والحريّات السياسيّة تعاني قمعًا متواصلاً من أنظمتها، فالباب مفتوحٌ لحملات مقاطعة الشركات الداعمة لاسرائيل، والباب مفتوحٌ لإيقاف المناطق الصناعيّة المؤهّلة في مصر والأردن، والباب مفتوحٌ على الجبهة العراقيّة لمواجهة الشركات المستفيدة من نظريّة «اقتصاد الكوارث» والتي تعمل في مجالات الاتصالات والمياه والريّ والتجارة الوسيطيّة والأمنيّة.

أمام الشعوب العربيّة الآن مهمّاتٌ كبيرةٌ تشكّل رافدًا حقيقيّاً لنضال الشعب الفلسطينيّ في غزّة:

- المعركة الداخليّة، المتمثّلة في تطويع الموقف الرسميّ باتجاهٍ أكثر ثوريّةً.
- المعركة الاقتصاديّة، المتمثّلة في استرداد موارد الثروة العامّة، وتلعب دورًا كبيرًا في جرأة القرار السياسيّ.
- العمل على فتح شراكاتٍ اقتصاديّةٍ جديدةٍ تخفّف من الشكل التبعيّ المتّبع حاليّاً.
- تكريس نهج المقاومة وضخّ دمائه من جديد في شرايين الشارع العربيّ.
- محاربة المشاريع الاقتصاديّة المرتكزة على الرأسمال الإسرائيليّ والمختبئة خلف وكالات عربيّة وأمريكيّة وأوروبيّة.

الكرة الآن في ساحة الشعوب، لا الأنظمة: فإما أن تضغطَ وتغيّر؛ وإما أن تكتفي بالنواحِ والبكاءِ والقنابلِ الصوتيّة التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

عمّان

محمد فرج

كاتب وناشط من الأردن.

تشكيلٌ بالأبيض: النارُ في غزّة، النارُ فينا

□ هشام البستاني

(قصة)

يزورهُ إسرائيلُ في منامه. يرتفعُ جدارًا مُصْمَتًا أمام عينيْه نحو السماء.

❖❖❖

السماءُ زرقاء، تشقُّها خطوطٌ بيضاءُ متّصلةٌ بمؤخّرة الـ أف ـ ١٦. والعصافيرُ تبعثرها دفقاتُ هواءٍ حارّةٌ تنبعُ من شفراتِ الأباتشي.

لحظات، ويُسمع الصوتُ وتهتزّ الأرضُ. لم يكن صوتُ الله يكلّم موسى، ولا صوتَ ارتطام لوحة الوصايا العشر الحجريّة بوجه الصحراء. «لا تقتل،» كانت تقول. لكنّ الصاروخ، المندفعَ بعزم يهوه وسرعةِ حجر داود، أنزلَ عمارةً كاملة. بينَ الغبار والركام الأبيضيْن، كان رأسُ طفلةٍ يحاول الخروجَ، بينما استلقى أجسادُ ثلاثة عشر من إخوتها في الأعماق معانقين ما تبقّى من أمّهاتهم.

سحابةٌ بيضاءُ ثقيلةٌ تُمْسك الآن بوجه الأرض، تتسلّل من تحت الأبواب، من أطرافِ الشبابيكِ، ومن الثقوب التي خلّفها الرصاصُ في الجدران. الرائحةُ معدنيّةٌ، تَطْرقها أصواتُ سعالٍ واختناق. لا تَرى أحدًا؛ فضبابُ القنابلِ كثيف. بين الحين والآخر تسقطُ زخّةٌ من شُهُب الفسفور الأبيض، وتندلع النار. يبدأ الناسُ بالركض، بينما يتساقطُ لحمُهم المتفحّمُ على الأرض.

يضحكُ الجنرالاتُ على عرضِ الألعاب الناريّة.

❖❖❖

يمشي في حيّ الزيتون. يتابع بنظرهِ الهياكلَ العظميّةَ الراكضة. يَنْفض عن رأسه غمامةَ القهر، ويتابع المسيرَ. يسير بعيدًا، بعيدًا...

...بعيدًا إلى الجنوب الشرقيّ: «تملّكِ الآنَ شقّتَكَ الفاخرةَ في مدينة النصر، على الخليج مباشرةً.» فتح البابَ ودخل. الأصواتُ في شبه الجزيرة مختلفة، والسماء مشقوقةٌ بخطوطٍ بيضاء أيضًا لكنْ لم تتبعثرْ فيها العصافيرُ. العَلَمُ المرصّعُ بالنجوم يلمع لوهلةٍ تحت الجناح، وتَظْهر حروفٌ ناريّة: USAF.

يقفزُ من الشُّباك ليسقطَ بين غابات النخيل وأهوارِ الماء وضفافِ الرافديْن. يتسلّلُ الجنودُ مدجّجين بالأم ـ ١٦ والإصبعُ على الزّناد. يمرُّون به وكأنه نسمةٌ من هواء. صياحُ ديكٍ، ونقنقةُ دجاجاتٍ، ونهيقُ حمارٍ، ثمَّ تندلع النارُ من قاذفة اللهب لتتحوّل القريةُ شمسًا صغيرة.

❖❖❖

حين استيقظَ من كوابيسهِ كانت آثارُ الدماءِ والحروقِ وأغلفةُ الرصاص الفارغة تتناثر هنا وهناك في غرفته وعلى أغطية سريره. ومن ثقبٍ في السقف، كان يرى السماءَ الزرقاءَ المخطّطةَ بالأبيض والخاليةَ من العصافير. كان ثمة صاروخٌ لم ينفجرْ يخترق بطنَه.

إلى يمينه جلس إسرائيلُ يهدهده ويقول له: «نحن نتألّم لكلّ قتيلٍ مدنيّ. نحن لا نستهدف النساءَ والأطفال. نحن نقتل الإرهابيين فقط. سنفتح تحقيقًا حول ما حصل هنا...»

ابتسمَ. نظر ثانيةً إلى السماء الزرقاء، فشاهدها تتحوّل قليلاً إلى الأحمر. مرّ سربٌ من العصافير، وبالونات، وطيّارات ورقيّة. تدثّرَ جيّدًا بحزامٍ ناسفٍ، وضَغَطَ.

عمّان

هشام البستاني

طبيب أسنان، وكاتب وقاصّ من الأردن. صدرتْ له مؤخّرًا مجموعة: **عن الحبّ والموت** (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٨)

دَمُها يُشْرِقُ الآنَ في أُفُقٍ من حديد!

□ هادي دانيال

(قصيدة)

ها أنا أَتَهَيَّأُ
كي أكتُبَ الآنَ
سِفْرَ الصباحِ البعيدِ
بلا قَهْوَةٍ مُرَّةٍ:
فالفناجينُ في مطبخِ الرُّوحِ ملأى دَمًا،
والعناقيدُ تقطُرُ فَوْقَ البياضِ
بقايا صديد.
مِنْ جناحِ الحمامةِ
أختار ريشَةَ حبْرِيَ،
أَغْرزُها في وريدي
أين ضاعَ دمي؟!
قُلْتُ: أَغْرزها في فمي!
أين ريقي،
مرارتُه ولزوجتُه؟
كان ممتلئًا برمادِ حريقٍ جديدِ...
فأَعدْتُ إلى الطَّيْرِ ريشَتَهُ
وارْتَجَلْتُ نشيدي!

- ١ -

«غزَّة الآن» عنوانُه،
ومَطْلَعُهُ: «دَمُها
يُشْرِقُ الآن في أُفُقٍ من حديدِ.»
.....
قد انكسَرَ النُّورُ في لحظةٍ
عَبَرَتْها الصقورُ
إلى وجبةٍ
من عيونٍ جميلَةْ
وأصابعِ كفٍّ نحيلَةْ
وَثَدْيٍ ينزّ دمًا وحليبًا
على شَفَةٍ من بَنَفْسَجْ.
.....
العماراتُ تَهْوِي على رُكَبٍ
وَتُكَبِّرُ في غَضَبٍ،
والدُّخانُ يُعَرِّجُ صَوْبَ السَّماءِ
بأرواحِ سُكَّانها..
كانَ أطفالُها يفتحونَ العيونَ على مِخْلَبٍ وَيليهِ رُكامُ،
والقذائفُ كانت تُهَدْهِدُ هذا السريرَ الأخيرَ
ليغفو الصغارُ على وَقْعِهَا
ويطول المَنَامُ.

- ٢ -

تَلْهَثُ الكلمات وتَرْتَعِشُ
وتَهرُّ على الصَّفحاتِ حروفًا مُكَسَّرَةً وغبارَ صُوَرْ:
صُوَرٌ لِبَرَارٍ مُقَطَّعَةٍ بجنازيرِ دبّابةٍ إثْر دبَّابةٍ بمدافعِ قَنْصٍ تُفَتِّشُ بين المدارسِ أو
غُرَفِ النَّوْمِ عن صِبْيَةٍ يُطلقونَ الصواريخَ منها..

صُوَرٌ لشواطئ غزَّة، والبحرُ أمواجُه شلَّها الذُّعْرُ
مِن بارجاتٍ يلاحِقْنَها بشِباكِ اللَّهَبْ..
صُوَرٌ لشوارعِ لندنَ، كاراكاسَ، طوكيو، ومَا لَمْ أُسَمِّ
من أنينِ القَصَبْ
أو طُبُولِ الغَضَبْ...
صُوَرٌ لِلعَرَبْ
يُشيحُونَ عن جُرْحها وهُمُو
بَيْنَ مُسْتَعجِلٍ ذَبْحَها
ومرتجئٍ يتفرَّجْ!

....

- ٣ -

غَيْمٌ تَكَدَّسَ
والسَّماءُ كَقُبَّةٍ بيضاءَ مُرْبَدَّهْ.
قِططٌ تَمُوءُ،
ونسْوَةٌ يَعْبرنَ قُرْبَ توتُّري
شُهُبًا مُعَطَّرَةً
يُحَرِّكْنَ الرَّمادَ بداخلي
والرُّوحُ مُسْوَدَّهْ.
وسماءُ غزَّةَ فرْنُ غازٍ هائلٌ
أَخَذَ المدينة كُلَّها
وتصاعَدَتْ في الكونِ
رائحةُ الشِّواءِ،
وسالَ مِن كُلِّ النّيوبِ لُعابُها،
وتَسابَقَ المتحمِّسُون
إلى مزادِ شرائها أو بَيْعها..

....

مَطَرٌ هُنا،
وأنا وراء زجاجِ مَقْهايَ الصغيرِ
ويدي على كتفَي تونسَ
أستجيرُ بدفئها.
مَطَرٌ هُنا
وأنا أُحاولُ أن أعيدَ إلى رموشِكِ
كحْلَها.
مَطَرٌ
وتغتسلُ الشوارعُ
من دموعِ مدينةٍ بكت المدينةَ
أُخْتَهَا..

....

- ٤ -

قَمَرٌ واقِفٌ في سماءِ المدينةِ
يرشَحُ فضّتَه الذَّائبَهْ

....

أماميَ في الكأسِ ماءٌ
وَخَلْفَ الزُّجاجِ تَلامَعَ ماءُ المَطَرْ
على العَرَباتِ، المظلاّتِ، شَعْرِ
البَنَاتِ الصغيراتِ، إسْفَلْتِ
شارعِنا التونسيِّ الحزين..
كُنْتُ وحديَ؛ في عُمْقِ مَقْهَايَ ثرثرةُ الياسمينِ تُداعِبُ غيتارَ صَمْتيَ
حتى انقطاعِ الوَتَرْ...
كنتُ وحديَ وامرأتي
هاتَفَتْني من الغرَبةْ:
«هل أجيء؟»
بَيْدَرُ القَمْحِ إمرأتي
وأنا نَوْرَجُ حَزِنٌ في شتاءِ الرَّصاصِ القَصِيِّ.
قُلْتُ: «لا،»
وانزرعْتُ على مقعدي
سحْنَةً شاحبَهْ!
فجأةً فاضَ صَمْتيَ بَحْرَ دماءٍ
شواطئه لَهَبُ
والسَّماءُ مُحايدَةٌ
والنسورُ تُبَعْثِرُ
هذا الحيادَ الرَّماديَّ
تَعلو وتزعقُ

ثُمَّ تحطُّ وتَحْرِقُ
ثُمَّ أرى
وردةَ النار
يَنْشَقُّ عَنْها الثرى
لحظةً بَعْدَها تَشْهَقُ..
صارَ قلبيَ في أُذُنَيَّ
طُبُولاً تُدَقُّ
على وَقْعِهَا سارَ جُنْدُ العَدُوِّ
ومن دَمِيَ اقْتَرَبوا!
كُنْتُ وحديَ، لا
لم يجئْ مسلمونَ إليَّ
ولا عَرَبُ..
كلُّهم من وعيدِ عمائمِهِمْ
وصليلِ صوارمِهِمْ
إلى صَمْتِهِمْ هربوا!

- ٥ -

قَمَرٌ كالحُ القَسَماتِ
قادِمٌ من أساطيرِ تَلْمودِهِم
يَنْضح الآن فوسفورَهُ الأبيضَ
فوقَ لحمِ المدينةِ
غَزَّةَ.

.....

غزَّة ليستْ كُتَلاً من إسْمَنْت!
غزَّة أطفالٌ كبروا في مَهْدِ الجوّعِ، نساءٌ يَعْجِنَّ تَرَمُّلَهُنَّ بِدَمْعِ الثّكَل،
وشيوخٌ أخْطَأَهُم صخبُ القَتْلِ،
عشْبٌ يَعْطبُ جنزيرَ الدبّابةِ، وحصًى يكسر أنْفَ العلْجِ وقرْنَ العجْلِ..
غزَّةُ نبضٌ
وتفاصيلُ حياةٍ زَهدَ بها كُهَّانُ اللَّيْلِ،
تلويحةُ طفلٍ لأبيهِ على بابِ المدرسةِ، وسوقٌ يتلامَعُ فيهِ السَّمَكُ ويعلو صَوْتُ الباعةِ يمتدح خضارَ الصَّحراء وفاكهةَ الزَّمَنِ البعْل...
غزَّةُ صرخةُ غيفارا الشعبيّ، وكوفيّةُ عرفات على شُرُفاتِ الدُّنيا وشوارعها المُهْتَزَّةْ...
غزَّةُ حكمةُ أحمد ياسينْ
الغائبِ كالصّاعقِ
عن قُنْبُلةِ الدّينْ.
غزَّةُ شلاَّلُ أغانٍ لحياةٍ أجَلَّها الموتُ الطارئُ
قايَضَها تُجَّارُ الموتِ
بحفنةِ رزّ..،
ولُهَاثُ أَسِرَّةِ حُبٍّ دامٍ، ومدارسُ يَصْعدُ
منها زَغَبُ الكلماتِ إلى أجنحةِ الصَّقْرِ الرَّمْز..
لكنَّ عيونَ الأطفال، المفتوحةَ موتا،
والمَسْمولةَ صَمْتا،
تَسْأل: هَلْ غزّة صخرةُ ملْحٍ في جُرْح
أمْ وقفةُ عزّ؟

.....

- ٦ -

كُنْتُ أخرجُ منّي
أطيرُ على ذكرياتِ الحروبِ التي لَفَظَتْني،
عندما اعتَرَضَتْني
صرخةٌ عاريهْ
لا حرير يُغَلِّفُها أو رتوشْ:
«برصاصةٍ في صدْغ بوشْ
أنْقِذوا أَرْضًا تموتُ
وعقِّمُوا أرحامَ أمريكا
فَقَد قَذَفَ الوحوشُ مَنِيَّهُم فيها
وأنَّى وَجَّه الأعمى بصيرتَه
تكاثَرَت النّعوشْ!»

.....

قُلْتُ أمضي إلى قَمَرٍ في سماءٍ أَليفَهْ
إلى نورِهِ المُتَهَاطِلِ في الصَّيْفِ
ثَلْجًا خفيفًا..
فارتَطَمْتُ بهِ قَمَرًا آخَرَ
طالِعًا من رُفاتِ سَدومْ
خنجرًا أغْبَرَ

في ضَبَابِ عروبتنا والغيومْ

ناشِرًا في الورى

سُمَّهُ الطائفيّ.

.....

ـ ٧ ـ

عبْر الزّجاجِ

كانت طيورُ البحرِ تَعْبُر روحيَ المُتَرَنِّحَهْ

شَمْسُ الشتاءِ الحارِقَهْ

قَدَحَتْ مُخَيِّلتي

وضَجَّتْ في الهواءِ

الرّائحهْ.

.....

هذا نهارٌ واضحٌ

وأنا بعيدٌ في شمالٍ غَرْبَهَا

وعلى يَدَيَّ دَمٌ

وفي قلبي

حروقٌ..

أمضي بلا سَمْتٍ

تحيطُ بِيَ البروقُ.

لا نجمةٌ، لا نجمتانِ، ولا أَهِلَّهْ؛

لا منجلٌ، لا مِطْرَقَهْ؛

هذا نفيرُ المحْرَقَهْ.

أمضي بلا زادٍ ولا عتادْ

لا امرأة عندي

ولا بِلادْ

حتى علاقتي

بإخوتي

علاقةُ الرَّمادِ

بالقَتَادْ.

.....

لم أَخْلُق اللّه الذي خَلَقَني

لم أخْذُل اللّه فَهَلْ تَرَكَني؟

كأنَّهُ معي

كأنَّهُ فراشَةٌ مِنْ فَرَحٍ

تَرِفُّ بين أضْلُعي

وبلبلٌ مُغَرِّدٌ

في مَسْمَعي

لكنَّ جيشَهُ وَشَعْبَه، عبادَه وحزْبَه، آياتِهِ والحاكمين باسمهِ والمالكين بيته..

والكهنوتَ المدّعي..

ليسوا معي!.

❖ ❖

أنا الآن أمضي

إلى آخِرِ المَذْبَحَهْ

أُخَزِّنُ في الرُّوحِ والذّاكرهْ

كُلَّ هذا السَّوادِ

وما في الرُّكامِ وَتَحْتَ الرُّكامِ

وفي المَشْرَحَهْ.

فكم جثّةً بُذِرَتْ في تُرابِ البلادِ؟

وكم طائرًا سَوْف ينهض من كُلِّ هذا

الرَّمادِ؟

هكذا الآنَ تنهضُ أجنحةٌ فَرِحَهْ

بأسئلةٍ جارِحَهْ

وَتُحَلِّقُ في كُلِّ نَجْدٍ وَمِصْرَ وشامْ

بانتظار الحصادِ!

مقهى اللوفيرو ـ المنزه السادس ـ تونس

(٢٠٠٩/١/١٤)

هادي دانيال

شاعر من سوريا مقيم في تونس.

غزّة
تأملات وعبر

المثقّف والحقيقة على ضوء الجحيم: حوارات في مصر

□ أجراها وقدّمها: أحمد الخميسي، مراسلُ الآداب في القاهرة

بلور المصريّون موقفَهم ممّا يحدث في غزّة بعشرات المظاهرات التي اخترقت الشوارعَ في القاهرة وكافّة المحافظات، بالرغم من التصدّي البوليسيّ البشع بكلّ أدوات القمع: من العصيّ، وسيّارات جنود الأمن، والسجون... وقد طالب المتظاهرون بوقف كلّ أشكال التطبيع الاقتصاديّ والسياسيّ مع إسرائيل، وطردِ السفيريْن الإسرائيليين من القاهرة وعمّان، ووقفِ تصدير الغاز إلى إسرائيل، وسحبِ مبادرة السلام العربيّة التي تكرّس الاعترافَ بالعدوّ الصهيونيّ وتتنازل عن حقوق الشعب الفلسطينيّ كاملةً، وفتحِ معبر رفح بصورةٍ دائمة، وتقديمِ الدعم بكلّ أشكاله للمقاومة في غزّة، وتوفير التأييد السياسيّ للشعب الفلسطينيّ قبل كلّ شيء، أيْ تأييد حقّه المشروع في مقاومة الاحتلال وتحرير وطنه. وبلورت النخبُ المصريّة المطالبَ ذاتَها في اجتماعاتٍ حاشدةٍ داخل نقاباتها وهيئاتها المختلفة. وقد جاء موقفُ المصريين ردّاً على تخاذل النظام المصريّ، وتواطئه، وتكريسه للاحتلال الإسرائيليّ، وذلك حين اعترف بأنّ معبرَ رفح المصريّ يقع تحت سلطة الاحتلال، وبأنّ للاحتلال وحده حقَّ التصرّف فيه، بكلّ ما يعنيه ذلك من اعترافٍ بحقوق الاحتلال لا بحقّ المقاومة! أمّا وزيرُ خارجيّتنا أحمد أبو الغيط فقد صرّح بأنه «حذّر من الأخطار، فلم يستمعْ إليه أحد، ولا يلومنّ أحدٌ إلاّ نفسَه»! وبذلك قلّص أبو الغيط دورَ مصر إلى حدود «زرقاء اليمامة» التي يقتصر عملُها على رؤية المخاطر بعيداً والتحذير منها، وكأنّ الفلسطينيين مصابون بعمى ألوان: فهم لا يروْن المخاطر، ولا يلزمهم سوى مَن يحذّرهم منها! ولذلك لم يكن مستغرَبًا أن يصرّح قادةُ إسرائيل بأنّ تصفيةَ حماس (أيْ تصفيةَ المقاومة) مصلحةٌ عربيّة: ذلك لأنّ المقاومة تُحْرج الأنظمةَ العربيّة، وتعمّق الفجوةَ بينها وبين الجماهير، بقدْر ما تعرقل المقاومةُ مشروعَ التسوية السياسيّ المذلّ الذي يقوم على منح الفلسطينيين دولةً كاريكاتوريّةً ملحقةً بإسرائيل ليس لها من علامات الاستقلال سوى العلم وتشريفة الحرس!

ومازالت المقاومة صامدةً حتى بعد انتهاء المعارك في مواجهة دولتيْن: إسرائيل الأقوى في المنطقة، وأمريكا الأقوى في العالم. أكثر من ثلاثة وعشرين يومًا كاملةً قامت إسرائيل خلالها بقصف غزّة جوّاً وبرّاً وبحراً بكلّ أنواع السلاح، وغزّة وحدها عارية في الجحيم، تستمطر النجدةَ، فلا يصلها سوى هرولةٍ دبلوماسيّة ودعواتٍ ومشروعاتٍ مؤجّلة ولقاءاتٍ متباعدةٍ وإدانةٍ لفظيّة ومزايداتٍ لغويّة، تمهل إسرائيلَ المزيدَ من الوقت لتنجزَ المجزرةَ وتصلَ بمهمّتها إلى نهايتها. لكنّ إسرائيل لم تستطع أن تحقّق أيًّا من أهداف حربها: فلا هي أطاحت بحكومة حماس المنتخبة، ولا أوقفتْ صواريخَ المقاومة، ولا حرّرتْ جلعاد شليط الجنديَّ الأسير، ولا أرغمت

المقاومةَ على القبول بالتسوية السياسيّة المذلّة، ولا استطاعت أن تؤلّب الشعبَ الفلسطينيّ على المقاومة. لم تنجحْ إسرائيل خلال ذلك إلاّ في إظهار حقيقتها للعالم كلّه: قاعدةً عسكريّةً متقدّمةً للاستعمار الأمريكيّ، يمتدّ عدوانُها إلى القاهرة وفلسطين ولبنان وسوريا والعراق... وأوسيتيا الجنوبيّة حيث لا يوجد عربيٌّ واحد! وبينما كانت النازيّةُ الإسرائيليّةُ تقيم من لحم الأطفال محرقتَها في غزّة، فإنّها كانت تخسر قسمًا كبيرًا من الرأي العامّ العالميّ، وفي مناطق تُعدّ مرتكزًا لحركاتٍ صهيونيّةٍ عريقة. وكانت تحشد كلَّ مواطنٍ عربيّ بحقيقة أنّ ذلك الكيانَ العدوانيّ يفتقر إلى أيّ مستقبلٍ في منطقتنا. كما كانت تعمّق الهوّةَ الشاسعةَ بين الأنظمة العربيّة، التي تعرّتْ كلُّها، وجماهيرها. وكانت أيضًا ـ حيثما أرادت قمعَ المقاومة ـ تنشر المقاومةَ وفكرتَها وجدواها، وترسِّخ في الوعي العامّ أنّ المقاومة الفلسطينيّة، واللبنانيّة، والعراقيّة، هي الطريقُ الوحيدُ للحياة والتطوّر، وأنّ ذلك «السلام» قد قَتل منّا أكثرَ مما يقتله الصراعُ والتحدّي. ولقد شاهد الشعبُ المصريُّ الحقيقةَ من جديد، على ضوء الجحيم المشتعل في غزّة، وشاهدتْها معه ملايينُ الضمائر.

ما هو دورُ المثقف في تلك اللحظات الفارقة؟ ما الذي يستطيعه؟ ما الذي ينبغي عليه أن يقدِّمه؟ وما الذي يعطّله عن دوره؟ كيف يمكن لصوت المثقف أن يكون مسموعًا ومؤثّرًا؟ هذا هو موضوع هذه اللقاءات مع مجموعة من المثقفين المعروفين في مصر.

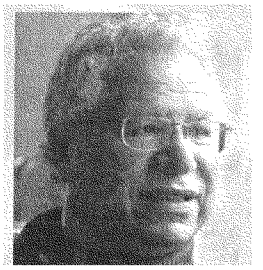

مريد البرغوثي

شاعر فلسطينيّ. له ١٢ مجموعة شعريّة. حصل على جوائز عديدة، ومنها: جائزة فلسطين في الشعر عام ٢٠٠٠، وجائزة نجيب محفوظ للآداب عام ١٩٩٧ عن **رأيت رام الله**. تُرجم إلى العديد من اللغات.

*** غزّة تطرح السؤالَ بقوةٍ عن دور المثقف في مواجهة المجزرة، وبخاصةٍ حين يكون المثقف شاعرًا.**

ـ عندما يندلع الحريقُ الهائلُ كما يحدث الآن، يصْعد إلى المقدّمة دورُ المثقف بصفته مواطنًا بالدرجة الأولى. لكنْ خلال مسيرة المجتمع نحو التطوّر يَصْعد دورُه الإبداعيّ ليساهم بأعماله الفنيّة والأدبيّة والفكريّة في جهدٍ إنسانيّ عامّ لتطوير الحياة والمجتمع. كمواطن، لا بدّ أن تفعلَ كلَّ ما في وسعك لوقف المجزرة: فتساعد بتبرّعاتٍ عينيّة، بوقفةٍ تضامنيّة، بمظاهرة، بكلّ ما ينفع نفعًا فوريّاً مباشرًا ملموسَ الأثر. وإذا استطعتَ أن تكتبَ أو ترسمَ أو تنحتَ أو تغنّي، فافعلْ ذلك؛ ولكنْ لا تفتعلْه أبدًا، لأنّ الفنّ المفتعَل لا يفيد أيّة قضيّة مهما حسنتِ النوايا. وفي ظلّ محرقة غزّة الآن، ينبغي أن يتصدّى المثقفُ للمفاهيم المغلوطة التي تشوِّه كفاحَ الشعب الفلسطينيّ، كالادّعاء أنّ صواريخَ حماس هي التي تسبّبتْ في المذبحة. لقد حوصرت الضفّة وما تزال محاصرةً بستمائة حاجزٍ عسكريّ، وضُربتْ «فتح» ومنظّمةُ التحرير من قبل، وذُبحتْ مدنُ الضفّة ومخيّماتها من دون أن يُطلَقَ منها صواريخ! إذنْ، هناك صراعٌ واضحٌ في صفوف مثقفينا: بين مَن يعمل على تشويه نضال الشعب الفلسطينيّ، ومَن يضع ذلك النضالَ في موضعه الصحيح. هناك تشويهٌ لفكرة المقاومة كحقٍّ مشروعٍ للشعب المحتلّ، وهو ما فعله البعض من قبل عندما وجّه اللومَ إلى المقاومة اللبنانيّة وحزب الله. أنا لم أعد أحلم بمثقفٍ جديد، بل فقط بألاّ يصل أولئك المثقفون الصغار إلى حدّ تمنّي النصر لإسرائيل!

غزّة على حقّ لأنها أرضٌ محتلّة، ويمنحها القانونُ وشهوةُ الكرامة الحقَّ في مقاومة المحتلّ. غزّة الآن تحمي طفلتَها الوحيدةَ الجميلةَ وتحتضنها بين أزقّة الحرائق والدخان، طفلتَها التي اسمُها: الحريّة.

*** هل يمكن أن تَخلق المذبحةُ مثقفًا جديدًا؟**

ـ كنتُ أتمنّى ذلك، وتوقّعتُ في ظلّ ما يجري أن يراجع البعضُ نفسَه. لكننا للأسف نعيش في عالمنا العربيّ الآن ما أسمّيه «عصرَ القادة الصغار والمثقفين الصغار،» وهؤلاء لا يفكّرون في ما يروْن بل يروْن ما يفكّرون فيه. من الفاجع أن نرى مثقفي العالم الأكثرَ احترامًا في الشرق والغرب يعلنون يوميّاً إدانتَهم للعدوان الإسرائيليّ وتأييدَهم لمقاومة أهل غزّة بأوضح العبارات وأعلى الأصوات، بينما ينهمك مثقفونا الصغار بجعل عدم إعجابهم بحماس مقياسًا وحيدًا لمواقفهم المريضة. والحال أنه ليس شرطًا أن يكون المثقفُ مؤيّدًا لحماس كي يتّخذ موقفًا حاسمًا واضحًا عادلاً ضدّ المحرقة الإسرائيليّة.

*** تتحدّث عن المثقفين الصغار. ماذا تقصد؟**

ـ المثقفون الصغار، الذين يشكّلون الفئةَ الأكبرَ والأعلى صوتًا للأسف هذه الأيّام، لا يروْن من الظواهر سوى جوانبها الجزئيّة. إنهم يصغّرون كلَّ قضيّة

وكلّ فكرة لتنسجم مع حساباتهم الضيّقة التي يتمترسون خلفها. كلّما دخلتْ قضيّةٌ ما إلى حالةٍ مركّبةٍ متعدّدةِ الطبقات والمستويات، يرتبك مثقفُنا الصغير: فقد اعتاد أن يتّخذ موقفًا (مع أو ضدّ) من مسائلَ صغيرةٍ واضحة. وفي بعض الدوائر، خلال المجزرة، وصل بنا الانهيارُ الثقافيّ حدَّ تصغير كلّ قضايا الحاضر والمستقبل، وكلّ نقاشٍ فكريّ أو سياسيّ، إلى قضيّة صغيرة في النهاية، اسمُها: حماس/فتح. أيُّ فقرٍ هو هذا! نحن لا نشكو فقط من القادة الصغار، بل من المثقفين الصغار أيضًا! فيما مضى كنّا ندعو ونلحّ على استقلال المثقف عن الحكومة، أما الآن فنرى تسابقَ المثقفين إلى الجلوس في حضن السلطة وأجهزتها. لم تعد الحكوماتُ تسعى إلى «استيعاب» المثقفين كما كان يحدث من قبل، بل صار المثقفون هم الذين «يلهثون» ليلتحقوا بالحكومات.

*** لكنّ المشهدَ لا يخلو، بالتأكيد، من مثقفٍ مختلف؟**

ـ هناك العديد من المثقفين الشرفاء، لكنّ أزمتهم أنهم بلا منابر مؤثّرة بعد أن فسدتْ وأُفسدت المنابرُ الثقافيّة، كالنقابات واتحادات الكتاب وروابطهم. إنهم فرادى متناثرون، لا يَجْمعهم جامع. المنظَّمون حقّاً كعصابة متجانسة هم الليبراليّون الجدد، مروِّجو الأكاذيب الرسميّة. أولئك هم الأعلى صوتًا، والأكثرُ وقاحةً، وبعضُهم يقف على يمين الحكومة نفسها!

*** ما سببُ ذلك الشتات في رأيك، في مصر على الأقلّ مثلاً؟**

ـ هناك أسبابٌ كثيرة. لقد اختارت معظمُ أحزاب المعارضة العلنيّة أن تلتقي مع النظام بدرجاتٍ متفاوتة. وحين أفرجت الحكومة ـ بعد اغتيال السادات ـ عن المعارضين سألْتُهم: أأنتم معنا أمْ مع الإرهاب؟ فأجاب معظمُهم بأنهم مع الحكومة ضدّ الإرهاب! اختاروا الإجابةَ الخطأَ عن السؤال المطروح أصلاً بصيغة غير صحيحة. ومن ثم تُركت الساحةُ السياسيّةُ للإخوان المسلمين الذين يتصرّفون بنوعٍ من الأنانيّة التنظيميّة، ويتردّدون كثيرًا قبل إشراك قوًى أخرى معهم في الحركة، ويختارون متى يضعون ثقلَهم وأين، ومتى ينسحبون من المشاركة ليتركوا الآخرين وحدهم بهدف إظهار قلّتهم! وقد أدّى المأزقُ الذي وضعت المعارضةُ نفسَها فيه إلى بلوغنا مرحلةً لم تعد فيها القوى العلمانيّةُ والوطنيّةُ تتجاوز في فعّاليّاتها ألفيْ شخص على أحسن تقدير! وبالرغم من ذلك، فإنّ الزخم الشعبيّ المؤيِّد لكفاح غزّة يتصاعد يومًا بعد يوم ويشكّل حقيقةً تنمو وتواصل تأثيرَها في الوعي والحركة.

*** هل تعتقد أنّ لاتفاقيّة كامب ديڤيد دورًا في عزل المثقفين الشرفاء؟**

ـ هذه الاتفاقية هي السببُ الرئيسُ في معظم وأخطر ما نمرّ به الآن، ولا يقتصر الأمرُ على عزل المثقفين. لقد أخرجتْ كامب ديڤيد مصرَ من الصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ، ومنذ ذلك الوقت دخل العربُ عصرَ المواجهة الثنائيّة مع العدوّ الإسرائيليّ: فتنفرد إسرائيلُ بلبنان في اجتياحها عام ٨٢، وتنفرد بالضفّة في الانتفاضتين، واليوم تنفرد بغزّة وحدها بلا معين ولا نصير. بعد الاتفاقيّة المذكورة راحت إسرائيل تُدخل كلَّ طرف من أعدائها إلى غرفةٍ مغلقةٍ لتقوم بضربه معزولاً عن الكل العربيّ ـ وهذا ما تنوي أن تفعله مع الجميع، واحدًا بعد الآخر، إنْ لم نستيقظْ وننتبهْ إلى مستقبلٍ خطرٍ كهذا.

*** تقول إنّ ما هو وطنيّ وما هو إبداعيّ يمتزجان عند المثقف، وإنْ شَغَلَ أحدُ الدوريْن الصدارةَ في لحظات. فهل تتقدّم بقصائدك إلى المعركة؟**

ـ أقول لكَ بدايةً إنّ الفنّ ينبغي أن يكون جميلاً في كلّ حالاته، وإنّ الإبداع فعلٌ بحدّ ذاته. لكنّ أيَّ كتابةٍ رديئةٍ في زمن السلم أو الكفاح تصبح عملاً ضارّاً مهما توارى خلفَها من حسٍّ وطنيّ. أما عن قصائدي فإنني أكتبها ولا أفتعلها، وأتقدّم بها للنشر في دواوين شعريّة، لا في الأمسيات الشعريّة التي أجدُني مضطرّاً إلى الاعتذار عن تسعين في المئة منها لأنها مرتّبة غالبًا، بل دائمًا، بمنطقٍ مختلفٍ عمّا أتصوّره.

أشرف البيومي

مفكّر وكاتب، أستاذ الكيمياء الطبيعيّة في جامعة الإسكندريّة وولاية ميشيجين، رئيسُ فريق الملاحظين في الأمم المتحدة لتوزيع الغذاء في العراق سابقًا.

*** ما هو دور المثقف في مواجهة مجزرة غزّة يا دكتور؟**

ـ في اعتقادي أنّ على المثقف الملتزم الذي تضعه الظروفُ بعيدًا عن المعركة، كما هي الحال بالنسبة إلى البعيدين عن غزّة وفلسطين، أن يقف مدافعًا بكلّ ما أوتي من قوة عن المقاومة، لأنّ المقاومين في غزّة الآن يدافعون عن مستقبل الأمّة العربيّة كاملةً. دور المثقف هو أن يواجه كلّ المغالطات والأكاذيب التي تنشرها، بدأبٍ، قوى المهادنة، وأن يتحرّك لحشد أوسع دائرةٍ ممكنةٍ تأييدًا لرؤية المقاومة، وذلك عبر الصحف والاجتماعات والمؤتمرات والمظاهرات أيضًا. يحْدث أحيانًا أن يستهينَ الناسُ بالكلمة، بالوعي، مطالبين بالعمل؛ يقولون «كفانا كلامًا ولنعملْ.» لكنْ من دون وضوحٍ في الرؤية لا يمكن أن نتقدّم إلى الأمام! فعلى سبيل المثال، تروِّج

القوى الفكريّةُ الموالية لأمريكا وإسرائيل أنّ المعركة في غزّة تدور بين إسرائيل وفصيلٍ فلسطينيّ، والبعضُ يروّج فكرة أنّ إسرائيل المعتدية هي الضحيّة! هذه الأفكار، إذا لم تجد مَن يواجهها، تسري في الوعي بلا عائق. دور المثقف [المصريّ] هو أن يطْرح القضيّةَ طرحًا صحيحًا، أن يفسّر الطبيعةَ الحقيقيّةَ للصراع الدائر، وأن يوضحَ أنّ الموضوع الفلسطينيّ هو موضوعٌ مصريٌّ في الأساس.

*** قمتَ أنتَ شخصيّاً في السابق بدور في «اللجنة القوميّة لمناصرة الشعب الفلسطينيّ واللبنانيّ» عام ١٩٨٢، ثم بدورٍ مماثلٍ في فضح الغزو الأمريكيّ للعراق. ألا تلاحظ أنّ زخمَ التأييد الشعبيّ للمقاومة الفلسطينيّة جديرٌ بتطوير أشكال عمل المثقف؟ ثم ألا تعاني المعارضةُ المصريّةُ ضعفًا في التنسيق في ذلك الصدد؟**

ـ بالطبع، ما يجري حاليّاً جديرٌ بأقصى قدْرٍ من تطوير وسائل الحركة. وهذا التطوير بحاجة إلى تنسيقٍ واسعٍ لكي يصبح مؤثّرًا. والملاحَظ أنه في عام ٢٠٠٣ اشتدّت في مصر موجةُ المقاطعة، والعداء للتطبيع، ثم تراجعتْ هذه الموجة لأنّ القيادات السياسيّة للأحزاب والحركات في مصر انكفأتْ على قضيّة الإصلاح والتغيير. هذا بينما التزمت الحركةُ الوطنيّةُ المصريّة كلُّها منذ ثورة ١٩١٩ بمطلبيْن على مساريْن: الدستور والاستقلال، أي التزمت الربطَ بين القضيّة الداخليّة والقضيّة الوطنيّة الأعمّ. الآن تتحدّث أحزابُنا في الأغلب فقط عن «الإصلاح» في الداخل. وهذه الانعطافة أضعفت المعارضةَ المصريّةَ كثيرًا، وحين بدأتْ مجزرةُ غزّة لم تستطع تلك القوى أن تنسّق فيما بينها.

*** هل هناك أسبابٌ أخرى ذاتيّة لذلك الضعف، أيّ تتعلّق بالمثقفين أنفسهم؟**

ـ بالطبع. هناك قضيّة (أو مأساة) التمويل الأجنبيّ لشريحةٍ كبيرةٍ من المثقفين؛ وأقصد الأموالَ التي تردُ من الاتحاد الأوروبيّ والمؤسّسات الأمريكيّة والتي جعلتْ أولئك المثقفين يدورون في فلكٍ آخر. ولنسألْ: أين هو دورُ منظّمات حقوق الإنسان في معركة غزّة؟ لقد ساهم التمويلُ في إضعاف دور المثقف بشكل واضح. كما ساهم في حرف دور المثقف: من الصراع الأساس مع الاستعمار، إلى قضايا فرعيّة.

*** هل تعتقد أنّ لكامپ ديڤيد دورًا في شلّ حركة المثقف المصريّ؟**

ـ بالتأكيد. وللأسف، كما قلتُ سابقًا، فقد تراجع الاهتمامُ بالقضيّة الوطنيّة، ولم يقم المثقفون بدورٍ كافٍ للتعريف بأخطار تلك الاتفاقيّة، والتي بموجبها لم يكن لمصر حتى عام ٢٠٠٥ أيُّ جنديّ في سيناء، وبعد ذلك أصبح من حقّها أن تضع على أرضها سبعمائة وخمسين جنديّاً فقط تقريبًا بلا سلاح! لقد عَزلت اتفاقيّةُ كامپ ديڤيد مصرَ عن دورها العربيّ، وحيّدتْها، وسلبتْنا استقلالَنا السياسيّ والاقتصاديّ. ولهذا فإنّ أمنَ مصر القوميّ منتقَصٌ ومهدَّد، ويواجه النظامُ عندنا كلَّ دعوةٍ إلى مراجعة تلك الاتفاقيّة بمختلف الوسائل، الأمرُ الذي يعرقل من دون شكٍّ حركةَ المثقف الملتزم.

*** هل في إمكان التأييد الشعبيّ الجارف للمقاومة في غزّة أن يصل إلى حدّ فتح معبر رفح؟**

ـ المفترض أن يصل إلى ذلك. لكنّ هناك معوّقاتٍ مهمّةً، منها أنه ليس في سيناء ثقلٌ سكّانيّ رغم مضيّ ثلاثين عامًا من «الصلح.» وهي (ومن ثم المعبر) بعيدان نسبيّاً. ومع ذلك فقد شهدنا مظاهراتٍ في العريش وفي غيرها تأييدًا للمقاومة؛ وذلك لأنّ الناس يشعرون ويدركون أنّ مَنْ يقاومون في شوارع غزة الآن إنما يواجهون مشروعًا إمبرياليّاً صهيونيّاً يهدّد الأمةَ العربيّة كلَّها. وكما احتضن الناسُ بمشاعرهم المقاومةَ العراقيّة والمقاومةَ اللبنانيّة، فإنهم يلتفّون حول المقاومين في غزّة.

أخيرًا، كنتُ أودّ أن أشير إلى ضرورة التنسيق بين المثقفين العرب. وهناك أطرٌ تحتمل ذلك، مثل «المؤتمر القوميّ العربيّ»؛ لكنها أطرٌ ليست فاعلةً بما يكفي.

*** ما هو دور المثقف، وبخاصةٍ في مجالٍ كالسينما في مواجهة مذبحة غزّة؟**

ـ أعتقد أننا حين نتحدّث عن «دور المثقف،» فإننا نقصد المثقفَ الثوريّ. فهناك، كما تعلم، مثقفون رجعيّون، وهناك مثقفون تقليديّون، وهناك أيضًا مثقفون حكوميّون ، بل مثقفون من أتباع الاستعمار كذلك!

عرب لطفي

مخرجة سينمائيّة، لها عدّةُ أفلام تسجيليّة امتازت برؤاها الاحتجاجيّة والوطنيّة.

نحن إذن نتحدث عن مثقفٍ منحازٍ إلى قضايا شعبه، ولديه مشروعٌ للتغيير الاجتماعيّ والوطنيّ. وبالنسبة إلى دور هذا المثقف، فثمة إشكاليّةٌ واضحة، وهي أنّ كلّ المثقفين المعنيّين بتفعيل اللحظة السياسيّة الراهنة على ضوء حريق غزّة يفتقرون إلى آليّاتٍ

تنظيميّةٍ تبلور مشروعَهم البديل. المثقف الثوريّ هذا يَظهر كومضات هنا وهناك، وبطرقٍ مختلفة، وعبر جهودٍ متعدّدة، لكنه للأسف يعجز عن القيام بدورٍ جذريّ. المسألة المطروحة هي: كيف يمكن أولئك المثقفين أن يخلقوا معًا مشروعَهم الجديد؟ العديد منهم يعمل داخل مؤسّسات في الدولة، ويؤثّر بدرجةٍ ما عبر تلك الإطر القائمة، ومن ثم فإنه يساهم بشكلٍ ما في بناء الحركة الشعبيّة. لكنّ تلك المساهمة الجزئيّة لا تمثّل بالطبع ما أسمّيه مشروعًا اجتماعيّاً بديلاً بالكامل.

*** في اعتقادك، ما الذي يمكن أن يوسّع دائرةَ تأثير ذلك المثقف؟**

ـ هناك جدليّة بين دور المثقف النوعيّ كمثقف، وبين دوره كإنسان ومواطن. كمواطن، لا بدّ أن يشارك في خلق حركةٍ ووعيٍ اجتماعيين معارضيْن. ولكي يقوم بذلك، وتتسعَ دائرةُ تأثيره، فلا بدّ له من الاشتباك في الصراع الدائر داخل مجتمعه. على سبيل المثال، أفضلُ كتّابنا الآن هم الذين ارتبطوا بفترة نهوض الحركة السياسيّة في السبعينيّات، وبالنقد الموجّه إلى السلطة وبنية النظام وعلاقته الاستعمار. وفي الأجيال الأسبق نفسها، كان أفضلُ الكتّاب هم الذين ارتبطوا بحركة معاداة الملَكيّة والاحتلال. ومن ثم، فإنّ قدرة المثقف على تقديم شيءٍ ما مرتبطٌ، بالضرورة، باشتباكه بحركة نضالٍ شعبيّة.

*** كمخرجة سينمائيّة، هل العثورُ على فنّانين ثوريين داخل حقل السينما أصعبُ من المجالات الأخرى؟**

ـ لا. الضعف في الحقل السينمائيّ، وقلةُ الفنّانين والمخرجين من أصحاب المواقف، جزءٌ من حالة الضعف العامّ. فإذا أردنا أن نقدّم سينما بديلةً مثلاً، فإنّ علينا أن نتحرّك نحو مشروع عملٍ جماعيّ. أما إذا ظلّ الفنّانون مستغرقين في ذواتهم، فلن يستطيعوا أبدًا أن يشكّلوا حركةً عامةً يبرز خلالها دورُ المثقف.

*** الآن في مصر، ما هي تجلّيات وجود المثقف في مواجهة مجزرة غزّة؟**

ـ يقوم الكثيرون بأعمال عديدة مهمّة. فهناك مَعارضُ فنّ تشكيلي قَدّم أصحابُها أعمالَهم للبيع لصالح غزّة، ومن أولئك الفنّانين التشكيليين فنّانٌ كبير هو د. عبد الهادي الوشاحي. وهناك حفلاتٌ موسيقيّة يخصّص دخلُها للهدف ذاته. هذا على المستوى الثقافيّ. أمّا على المستوى العامّ فهناك لجانٌ في القاهرة والأقاليم، في كلّ منطقة تقريبًا، تجْمع التبرّعات العينيّة والماليّة والأدوية لإرسالها لإخواننا في غزّة. ووراء كل ذلك يقف مثقفون يبذلون من وقتهم وجهدهم الكثيرَ.

*** هل تعتقدين بجدوى المظاهرات سلاحًا للتعبير عن الدعم؟ وكيف يمكن تطويرُها لصالح الشعب الفلسطينيّ الآن؟**

ـ لا شكّ في أنّ المظاهرات ذاتُ أثر ملموس، خلافًا لما يكرّره كتّابُ الحكومة. فالمظاهرات تحطّم حاجزَ الخوف من الحكم لدى الناس، وتثير شعورَهم بقوةِ وجودهم وبقدرتهم على التضامن مع قضيّة عادلة. كلّ هذا الأثر الإيجابيّ مهمّ جدّاً. لكنّ التظاهر وحده، وبحدّ ذاته، غيرُ كافٍ. فلا بدّ له أن يرتبط بمشروعٍ سياسيّ أعمّ، أيْ لا بدّ أن تكون المظاهراتُ خطوةً في سياق، وإلاّ أصبحتْ في نهاية المطاف نوعًا من التنفيس عن الغضب لا أكثر.

*** في تقديرك، ما هي مسؤولية النظام المصريّ عن مجزرة غزّة؟**

ـ النظام المصريّ ليس مسؤولاً فقط، بل هو متواطئ أيضًا مع إسرائيل في ضرب غزّة ومحاولة سحق المقاومة. فقد ساهم النظامُ في إحكام الحصار على غزّة طوال عامٍ ونصف، ثم قام بإغلاق معبر رفح أمام الفلسطينيين خلال المجزرة. ومن ثم فتلك شراكةٌ واضحةٌ مع المشروع الاستعماريّ ـ الصهيونيّ، ولا يمكن صياغةُ ذلك الموقف بعبارة أخرى.

*** هل لكامب ديڤيد دورٌ في شلّ يد المثقفين؟**

ـ كامب ديڤيد لم تشلّ يدَ المثقفين فحسب، بل أيادي مصر كلّها! فقد عزلتْ مصرَ عن هموم التحرّر العربيّة، وعطّلتْ مصالحَ مصر محوّلةً إيّاها من دولةٍ مركزيّةٍ إلي شيءٍ هامشيّ. أين ذلك من حجم مصر وتاريخها؟!

*** أحيانًا يتساءل البعضُ لماذا توجّه سهامُ النقد كلها إلى الموقف المصريّ الرسميّ، ولا يتحدّث أحدٌ عن سوريا التي لا تحاول دخولَ المعركة؟**

ـ الموقف السوريّ الرسميّ يختلف عن المصريّ من دون شكّ. فالاتجاه المهيمن في السلطة السوريّة هو اتجاهُ الممانعة للتسوية السياسيّة بالشروط الأمريكيّة. وهذه الممانعة تشكّل حالةً من حالات الدعم لعناصر المقاومة اللبنانيّة والفلسطينيّة حتى الآن. وبالتالي هناك فارق ضخم بين الموقفين. أما إلى متى يستمرّ النظامُ السوريّ في دوره الإيجابيّ النسبيّ هذا، فتلك مسألة مرتهنة بالتطورات داخل سوريا وفي المنطقة.

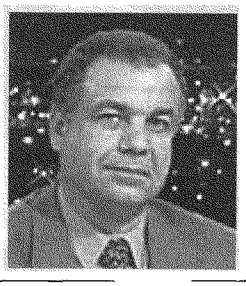

أحمد بهاء الدين شعبان

كاتب وباحث معروف في الشؤون الصهيونية.

*** يسأل الجميع: غزّة مشتعلة، فما العمل؟ أين المثقف في الإجابة عن ذلك السؤال؟**

ـ يطرح المثقفون إجابة على ذلك السؤال حركاتٍ وردودَ أفعال لا ترقى إلى حركةٍ كبيرةٍ متّحدةٍ ذاتِ أثر. وللأسف فإنّ أوضاع المثقف سيّئة؛ فقد شهدت العقودُ

الماضيةُ تراجعًا واضحًا في دور المثقف لأسبابٍ عديدة. لماذا لم يستطعْ، أو لم يتحرّك المثقفون لعقد مؤتمرٍ واسعٍ لهم يَطْرحون فيه آراءهم بشأن المجزرة الدمويّة في غزّة؟ أعتقد أنّ المثقف العربيّ، لا المصريّ وحده، أمام لحظةٍ فارقةٍ في التاريخ، لم يعد ينفع فيها لا الحزنُ على ما يجري ولا التألّمُ ولا الإدانةُ اللفظية ولا الغضبُ نفسُه. فلا بدّ لنا من أن نرتقي بالحزن والألم إلى مستوى الحركة المنظّمة. إنّ الهولوكوست الذي تقيمه إسرائيلُ الآن في غزّة ليس الأولَ من نوعه، بل هو مسلسلٌ إسرائيليّ ـ أميركيّ دوريٌّ: فقد عشنا هذه الحالة عند العدوان على لبنان واحتلالِ عاصمته عامَ ١٩٨٢، وعشناها عند ضرب العراق فاحتلاله، ثم عشنا مذبحةَ جنين عام ٢٠٠٢، وغزوَ لبنان مجدّدًا عام ٢٠٠٦. وفي كلّ مرة نلمس ضعف صوت المثقف العربيّ، فلا نسمع سوى النحيب ولطم الخدود واستمطار اللعنات على الصهاينة، وما إنْ ينحسر العدوانُ حتى يلتهي المثقفون بحياتهم الشخصيّة وهمومهم. الآن أصبح علينا أن نَخْلق آليّةً مستمرةً تتجاوز ردودَ الأفعال لمواجهة ذلك المخطط. وخلقُ هذه الآليّة جزءٌ من دور المثقف الطليعيّ القادر على استكشاف المستقبل وتحديدِ سبل مواجهة التحدّيات. واجبنا الآن أن ننخرطَ في عمليّة نشر الوعي والنضال من أجل انتزاع الحريّات الاجتماعيّة والسياسيّة من الأنظمة العربيّة المستبدّة والمتخلّفة والتابعة. هذا في اعتقادي المدخلُ إلى حلّ الأزمة، وطريقُ المثقف. فهل ننجح؟

*** لا شكّ في أنّ هناك عواملَ تؤدّي إلى ما أسميتَه «ضعفَ صوت المثقف العربيّ.» فما هي؟**

ـ هناك أولاً مطاردةُ السلطة للمثقفين الأحرار؛ وهي مطاردةٌ تبدأ بالإهمال، وتمرّ بالسجون، وتنتهي بالتجويع والعزل. وهناك الجهد الطويل الذي بُذل لتحييد المثقف، وتحويلِه إلى بائعِ معرفة مقابلَ ملاليم. وهناك التمويلُ الأجنبيّ الذي التهم شريحةً كبيرةً من المثقفين الذين صاروا يتلقّون الدعمَ من فورد فاونديْشن وغيرها، فانفتح بابُ التمويل المشبوه أمام المثقفين ومشاريع حقوق الإنسان، والمرأة، وكلّ «الحقوق الجزئيّة،» بحيث يعجز العقلُ عن إدراك القانون الجامع ولا يرى من الصورة العامة سوى التفاصيل. وفي الوقت ذاته اكتسحت الساحةَ مذاهبُ فكريّةٌ يُنفَق على ترويجها الملايينُ من الدولارات لنشر فكرةٍ مؤدّاها أنّ عصرَ القضايا الكبرى قد انتهى، بما في ذلك قضيّةُ تحرير الأوطان. ومن ثم نجد في النهاية أنّ قسمًا كبيرًا من المثقفين قد ابتعد عن قضايا المجتمع وعكف على تهويماتٍ ذهنيّةٍ وذاتيّةٍ بعيدة عن الواقع الاجتماعيّ.

*** هل كان لإسرائيل أن تقْدم على جرائمها في ظروف أخرى؟**

ـ كلا بالطبع. لم يكن لإسرائيل أن تصلَ إلى صنع المحارق للشعب الفلسطينيّ لو لم تكن أوضاعُنا على ما هي عليه من تردٍّ يعود إلى الجهود الجهنميّة التي بُذلتْ في العقود الأخيرة لتفتيت المنطقة العربيّة على مستوى الواقع الماديّ، وتفتيتها معرفيّاً على مستوى قراءة الواقع وفهمِه والتفاعلِ معه. في الخمسينيّات والستينيّات كانت هناك معركة واضحة ضدّ الاستعمار والصهيونيّة، وبعد هزيمة ١٩٦٧ بدأتْ أكبرُ عمليّةٍ إعلاميّةٍ وثقافيّةٍ رسميّةٍ لتفكيك العقل الوطنيّ.

*** رغم الجهود الكثيرة لمجمل الحركة الشعبيّة المصريّة في مساندة غزّة وكفاحها الأسطوريّ، فإنّ ثمة شعورًا بأنّ هناك ضعفًا في التنسيق.**

ـ نعم. هناك أشكال عديدة ظهرتْ في كلّ مكان في مصر لدعم غزّة بكلّ شيء ممكن. هناك ذلك الشعورُ الشعبيّ الجارف بالغضب وبالاستعداد لبذل أيّ شيء من أجل غزّة والشعب الفلسطينيّ. لكنّ تلك الأشكال عجزتْ عن التحوّل إلى مؤسّسة، أو إلى إطارٍ ثابت، له وظائفُه المستمرةُ في مواجهة مخطّط مستمرّ. لذلك تظهر تلك الأشكال وتختفي. وقد اقترحتُ أكثرَ من مرة إنشاءَ هيئةٍ قوميّةٍ جامعةٍ لكلّ فصائل المثقفين الوطنيين لمكافحة الصهيونيّة، تتولّى التنسيقَ، وترْصد التطوّرات، وتعبّئ المشاعرَ، وتوضح أبعادَ الصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ ومخاطرَه ليس على فلسطين وحدها بل على مصر وغيرها أيضًا. لكنْ للأسف مازالت تسود عندنا «عقليّةُ القبيلة» التي تقود كلَّ مجموعةٍ إلى تفضيل معارفها، وإبرازِ حركتها، وإعلاءِ ما هو ذاتيّ على ما هو موضوعيّ.

*** لكنْ ألا تلوح في ذلك الواقع صورةُ «المثقف الحقيقيّ»؟**

ـ لا شكّ في ذلك، وإلاّ لكان المشهدُ معتمًا تمامًا. فالمثقف المصريّ والعربيّ لم ينسَ واجبَه رغم كلّ شيء، والقوافلُ التي تتحرّك بالدواء والغذاء والملابس كلّ فترةٍ إلى رفح دليلٌ على هذا؛ وخَلْفَ حركتها مثقفون شرفاء، مازالوا قابضين على الجمر، يرونْ الصراعَ مع إسرائيل في أبعادَه الحقيقيّة والكاملة. ومن ثم تجد حركةَ مقاطعة العدوّ وبضائعه، ومناهضة التطبيع؛ حتى إنّ أكاديميين إسرائيليين أدلوْا بتصريحاتٍ مريرةٍ ضدّ المثقفين المصريين واتهموهم بأنهم وراء «فشل التطبيع» بعد ثلاثين عامًا من معاهدة السلام. وهناك بؤَرٌ كثيرة انخرطتْ منذ البداية في خلق تيّار مناهضة التطبيع: بدءًا من «لجنة الدفاع عن الثقافة القوميّة» (لطيفة الزيّات ورضوى عاشور...)، مرورًا بمواجهة مجموعة «كوبنهاغن» المصريّة الشهيرة التي رَوّجتْ أكاذيبَ السلام، ثم اللجان الشعبيّة لدعم نضال الشعب الفلسطينيّ عقب انتفاضة الأقصى. ووراء ظهور تلك اللجان وحركتها، ثمة مثقفون أخلصوا لدور المثقف الطليعيّ في التصدّي لتزييف الوعي.

*** ما مسؤوليّةُ النظام المصريّ في مذبحة غزّة؟ أهو أضعفُ من أن يقوم بدور؟ أهو متواطئ؟ أهي شراكة مع الاستعمار وإسرائيل؟**

ـ هناك دوافعُ تحرّكِ النظامَ المصريّ في موقفه من غزّة. أوّلُها، أنه حسم موقفَه من احتمال قيام «إمارة إسلاميّة» على حدوده تتقوّى بوجودها حركةُ الإخوان داخل مصر بحيث تشكّل تهديدًا للنظام. ثانيًا، أنّ النظام المصريّ يضع نصب عينيْه عمليّة «التوريث،» أو نَقْلِ السلطة التي ستتمّ عام ٢٠١١، وهو ما يستلزم استمرارَ رضى الأمريكيين عن النظام السياسيّ المرتهنِ باستمرارِ التحالفِ مع إسرائيل. هناك لقاءٌ بين المصالح الرسميّة المصريّة والإسرائيليّة، ولهذا لا نلمس أيَّ جهدٍ حقيقيّ لوقف المجزرة في غزّة. ولا ننسى أنّ النظام عندنا لم يأتِ بطريقٍ ديمقراطيّ؛ ومن ثم فإنه ليس مدينًا بوجوده للجماهير، بل للحماية الخارجيّة.

*** المظاهرات.. إلى أيّ مدى مجْدية؟ وهل يمكن أو ينبغي تطويرُها؟**

ـ المظاهرات تعكس الحسّ الشعبيّ اليقظ المؤيِّدَ لتحرّر الشعب الفلسطينيّ. هذه ميزتُها. لكنها غير مؤثّرة في صُنّاع القرار. وفي الدول الأوروبيّة نفسها، التي يُفترض أنّ تجربتَها الديمقراطيّة أبعدُ مدًى، ويُفترض أن يتأثّر صنّاعُ القرار فيها بحركة الشارع، لن تلمسَ أيَّ أثرٍ للمظاهرات. السؤال هو: كيف يمكن تطويرُ آليّاتِ ضغطٍ شعبيّ حقيقيّ؟ كيف يمكن تنظيمُ القوى الشعبيّة بحيث تصطفّ خلف المطالب الوطنيّة، وفي مقدّمتها الآن: وقفُ كلّ أشكال العلاقة مع العدوّ الصهيونيّ، ومراجعةُ اتفاقيّة كامب ديڤيد ووقفُ العمل بها، وإنهاءُ التطبيع الاقتصاديّ والعلميّ والثقافيّ والسياحيّ والتجاريّ مع إسرائيل، وبالذات في مجال بيع الغاز والبترول المصريّ الذي يتحوّل وقودًا للعدوان على إخوتنا في غزّة، والضغطُ لإحياء اتفاقيّات الدفاع العربيّ المشتركة والسوق العربيّة، وبالطبع فتحُ المعابر، وفي مقدّمتها معبرُ رفح؟ كيف يمكن أن ننظّم حركةً شعبيّةً تضغط لتحقيق ذلك وتنجح في تحقيق ذلك؟ هذا هو السؤال، وهذه هي المهمّة المطروحة علينا كمثقفين الآن، دفاعًا عن غزّة، وعن مصر، وعن بيروت، وعن بغداد.

القاهرة

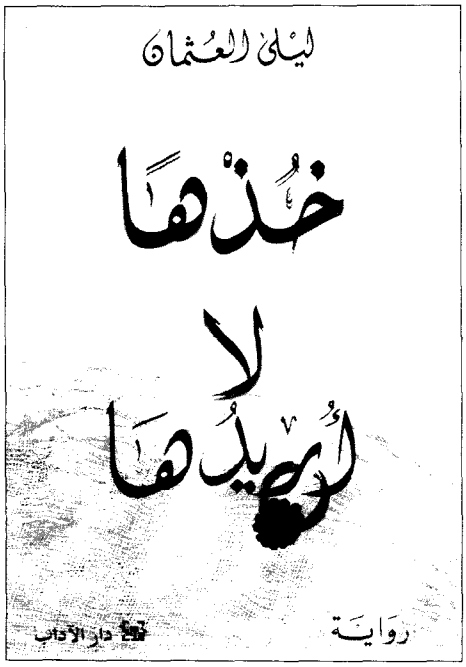

هو ذلك اليوم الذي تصوَّرتِ أنّ أمّكِ نفضتكِ عن صدرها كما تنفض حشرة عالقة بجسدها. كان صرير ثورتهما وحوارهما العاصف يُدوّي كالرّيح ويُساقطك في الزاوية كزهرة مُفتّتة. حتى دموعك استعصت، مُفسحةً المجال لعينيكِ كي تتربّصا بهما بانتظار أن يهدأا ويرحما طفولتكِ الموشكةَ على التفتّت. أبوكِ أطلق سهم قراره: «سآخذها معي». أمّكِ صرختْ بملء غضبها: «خذْها لا أريدها».

ليلى العثمان روائيّة كويتيّة، صدر لها عن دار الآداب أربعُ مجموعات قصصيّة وثلاثُ روايات: صمت الفراشات، والمحاكمة، وخذها لا أريدها.